

# العذراء والشعر الأبيض

مؤتمرات المكتبة العربية

[www.Tipsclub.net](http://www.Tipsclub.net)

*Amy*

حسان عبد القدوس

# العذراء والشعر الأبيض



دار المعارف

❦ أصحاب السوابق ❦

www.alkottob.com

- دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله في احترام مبالغ فيه ، وقال الأستاذ أحمد في هدوء :
- هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير ؟
- وقال السكرتير في رعشة :
- طبعاً يا أفندم .. طبعاً .. ثانية واحدة ..
- وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه في قرف وأطلق زفرة من صدره كأنه يستغيث بالله ، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة :
- الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا ..
- ورفع الوزير حاجبيه في دهشة وقال :
- ماذا يريد ؟
- يريد أن يدخل ..
- ألم يسبق أن طلب تحديد موعد ؟
- لا ..
- وأطلق الوزير أنفاس الضيق ، وعاد السكرتير يقول :
- هل أقول إن سيادتك في اجتماع وأحدد له موعداً في الساعة الثانية ..

- أى شيء يا أحمد .. أى شيء .. اطلب ..

وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير :

- إنك تعلم أنى لم أطلب أبداً شيئاً منكم ..

وقاطعه الوزير :

- ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذى كنت ترفض كل ما يعرض عليك ..

كان يمكن أن تكون الآن وزيراً ..

وضحك أحمد قائلاً :

- ربما لأنى أنبه منك .. فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيراً سابقاً ..

وأنا أكره أن أحمل لقب « سابق » إنه أقرب إلى لقب « المرحوم » .. هل تذكر

أخانا مختار رفعت .. إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق ، وهو أيضاً رئيس

مجلس إدارة سابق ، وسكرتير هيئة سابق ، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق ..

وهو يعيش فعلاً كأصحاب السوابق ، حائر فى تحقيق مكانه وصفته فى المجتمع ..

إنى أعرف أن الذى يصاب بلقب « سابق » يصاب بجرح خطر يؤثر فى كل تفكيره

وفى كل أحاسيسه .. إنه بعدها يصبح إما من أكبر المغالين فى النفاق وفى التزلف

وفى الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين فى المعارضة وفى النقد .. ولا علاج

له إلا أن يعود إلى الوزارة .. وكثيرون عادوا إما لجهودهم فى النفاق والاستسلام .

وإما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذى يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود

وهو مجروح ويزاول عمله وهو يحسب فى كل يوم أن يتلقى السهم المسموم من

جديد ويصبح « سابقاً » مرة أخرى ، ولذلك فهو يعمل لما بعد خروجه من الوزارة

أكثر مما يعمل لمسئوليته كوزير . ولست فى حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ،

فهى معروفة ..

وقال الوزير فى حرارة وقرب :

- ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون .. ومنذ وجد الإنسان

لم يوجد وزير بقى العمر كله وزيراً إلا فى القصص الخرافية ..

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك :

- هناك فرق .. فهناك وزارة بأكملها ترك الحكم ، أو وزير يخرج من

الوزارة نتيجة معركة .. سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأى

الفنى .. وفى هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعاً مستمراً

وهو المعركة السياسية أو الفنية .. فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه

داخل هذه المعركة .. ولكن الذى يصاب ويخرج هو الذى يصبح « سابقاً »

بمجرد شلوت .. شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأن يخرج من الوزارة ليصبح مستشاراً

أو بعد أن يمنح وساماً جليلاً ، وقد يكون شلوتاً إلى أسفل ويمجد نفسه فى الشارع ..

المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة

أو خارجها ، ولكنه أتى فجأة من الشباك وقراً خبر وفاته فى الصحف وبدأ يستقبل

المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم ، أو يقيم صيوماً لاستقبالهم .. إن آثار الشلايت

على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبداً حتى لو أخذ

بنطلونه وذبح به إلى أكبر الإخصائين فى إزالة البقع والفتوق ..

وقال الوزير فهى عباس فى حدة :

- اسمع يا أستاذ أحمد .. إن هذا الكلام يمسنى ولا بد أنك تقدر ذلك ..

وأحب أن أقول لك أنه لا يهينى أن أخرج من الوزارة اليوم أو غداً .. لا يهينى

فى أى لحظة أن أكون سابقاً .. كل ما يهينى هو إحساسى بأنى أجلس على هذا

المكتب لأؤدى خدمة لبلدى .. إنى أخدم بلدى سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير

أو إلى مكتب موظف درجة سادسة . . .

وقال الأستاذ أحمد دون أن يبدو عليه أى تأثير بحدثة سيادة الوزير :

- هذا ما فكرت فيه عندما عرضت على الوزارة منذ سنوات كما تعلم . . . فكرت في خدمة بلدى . . . وأنا كما تعلم محام وخريج كلية الحقوق وكل دراستى خاصة بالقانون والعلوم السياسية والاجتماعية ، ولكن الوزارة التى كانوا يعرضونها علىّ هى وزارة المواصلات . . . وقدرت أنى في حاجة على الأقل إلى ثلاث سنوات لدراسة علوم المواصلات حتى أستطيع أن أقرر بعدها إذا كنت أستطيع أن أكون وزيراً أو لا أستطيع . أى أنى لم أتعال على الوزارة ولكنى فقط درست قدرى وإمكانياتى على حمل المسؤولية . . . وقاطعه سيادة الوزير :

- يا أستاذ أحمد . . . إن الوزارة ليست مركزاً فنياً . . . كل الاختصاصات

الفنية يتولاها وكلاء الوزارة . . . أما الوزير فهو مركز سياسى . . .

وقال أحمد في هدوء :

- هذا هو الخطأ الأكبر الذى تقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضاً معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التى يعيشونها مركزاً سياسياً . . . أبداً . . . إن مركز الوزير لا يكون مركزاً سياسياً إلا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب في مواجهة حزب آخر . . . ونحن ما زلنا متأثرين بالماضى عندما كانت الوزارات سياسية حزبية . . . كان الوزير سياسياً لأنه وفدى أو لأنه دستورى أو لأنه مستقل ، ولكن الآن أى صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير . . . لقد أخطأنا يوماً ووضعنا للوزراء صفة التمثيل السياسى الخارجى . . . كنا في مرحلة التفاهم مع

أمريكا نختار وزيراً له موقف سياسى رأسمالى ، وفي مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفيتى نختار وزيراً له موقف سياسى شيوعى . . . وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية ، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسى ولا تستطيع ، ويس من حقها أن تقبل أو ترفض أى قرار سياسى . . . إن السياسة مركزة في تنظيم آخر خارج الوزارة . . . وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تتفرغ الوزارة ككيان في تنفيذى . . . ولكن هذه اللخطة بين السياسة والتخصص العلمى أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسى ولا هو فنى . . . أنت مثلاً . . . إنك خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية . . . وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلاً :

- يا أحمد . . . أنت أستاذنا جميعاً ونحن نقدر لك استمرارك في التفرغ

للمحاماة . . .

ورد أحمد مقاطعاً :

- حتى مكنتى كمحام تعرض لكل لهذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة . . . فأنت تعلم أن عدد الموكلين أو الربائز الذين يعتمدون على مكنتى محدود ، فرغم أنى متفرغ للمحاماة كمعلم فعلاً إلا أنى أكثر تفرغاً للفكر السياسى منذ تخرجت وقبل أن أتفرغ . . . وكانت صورتى وسمعتى السياسية والكتب السياسية التى كتبها ونشرتها ، ثم ما هو معروف عنى من عمليات ثورية كنت أقوم بها في شبابه ، كل ذلك أثر في إقبال الناس على مكنتى كمحام . . . وكنت أعطى الناس العذر ، فمع اقتراس أنهم يقدرتوقى كسياسى عاشوا معه جيلاً كاملاً ، إلا أنهم لا يحتاجون في قضاياهم إلى سياسى بل يحتاجون إلى محام . . . ثم قد يكون القاضى مختلفاً معى في آرائى السياسية فيتأثر بهذا الخلاف في حكمه ، فما ذنب صاحب القضية . . .

إن من صالحه دائماً أن يختار محامياً مفرغاً تفرغاً كاملاً للمحاماة .. هذا ما كنت أعتقد .. إلى أن قابلت مرة الرئيس في لقاء خاص ، وأنت تعرف أتي تعودت أن ألقاه كثيراً كصديق ، ولكن في هذه المرة نشرت المقابلة في الصحف ضمن المقابلات الرسمية ، وكانت الصدمة التي تعرضت لها هي أتي فوجئت في اليوم التالي مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكبي .. زبائن جدد .. وأنواع جديدة من القضايا .. وفرح عبد العاطي وكيل المكب الذي عاش معي العمر كله وهو يعانى تقدير القدر عليه في الزبائن ، واستحملت أنا أسبوعاً وأسبوعين وأنا أقابل كل من يأتي إلى المكب وأقرأ وأبحث كل قضية .. ثم توقفت .. إنها ليست قضايا ، إنها عمليات تحتاج إلى وساطات ، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إلى كمحام ، إنما لجأوا إلى كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر في الصحف .. إن الذى يقابل الرئيس يستطيع بلاشك أن يقابل رئيس الوزراء ، ويستطيع أن يقابل الوزير ، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أى وكيل وزارة .. ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا .. و.. وكانت النتيجة هو أتي اعتذرت عن جميع القضايا التي جاءتني بهذا الفهم الجديد القيمي ، بل إنى أغلقت مكبي وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر ..

قال الوزير فهمي عباس ساخراً :

— لأن لك قرية تغنيك عن المكب .. ولكن لو لم يكن لك شيء في القرية أين كنت تذهب .. اعذرني يا أستاذي عن هذا السؤال ..

وقال أحمد دوين تأثر :

— تقصد أكل العيش .. إنى أستطيع أن أعيش بلا عمل لأنى أملك أرضاً في القرية ، ولذلك أستسلم لكل آرائى السياسية لأنى لست محتاجاً .. هذا

ما تقصده .. وهذا ما جئت لأطلب وساطتك فيه ..

ودق جرس التليفون بجانب الوزير ، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد

وقال الوزير في عجل :

— لا .. لا .. لا مواعيد ..

ثم التفت إلى أحمد قائلاً :

— في خدمتك يا أستاذ أحمد ..

وقال أحمد :

— أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تحبب أسمى ..

وقال الوزير مبتسماً :

— لقد عودتنا على المفاجآت ..

وقال أحمد :

— لقد اخترتك ولجأت إليك لأنى مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحلل

كل موقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب ..

وقال الوزير كأنه يتعجله :

— شكراً .. كلنا من تربيتك ..

وقال أحمد في هدوء وبين شفثته ابتسامة حزينة :

— جئت لأوسطك حتى تسعى لإقناعهم بوضعى فى السجن ..

وقال الوزير كأنه ينتفض :

— ماذا تقول .. السجن ؟ !

وقال أحمد في هدوء :

— نعم .. السجن .. إن الشيء الوحيد الذى أطلبه من الثورة بعد هذا

العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة ، هو إصدار قرار بوضعي في السجن ..  
ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون ، وقال :

- ماذا فعلت وجئت تعترف به حتى تدخل السجن ..

- لم أفعل شيئاً بعد ..

- ولكن بأى سبب تريد أن يدخلوك السجن ..

- تحت التحقيق ..

التحقيق في ماذا وأنت لم تفعل شيئاً ..

- التحقيق في احتمال أن أفعل شيئاً ..

- أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكفي لتوجيه أى اتهام ..

- ليس القانون .. ولكن أحد المقررين إليكم .. كل الناس تعرف أنى من

المقررين .. والمقربون لهم امتيازات كثيرة ، والامتياز الوحيد الذى أطلب به هو

إدخالى السجن ..

- ولكن لماذا ؟

لأن القرية لم تعد تكفى ..

- تكفى لماذا ؟

- لهرى من نفسى .. إن السجن وجدت لتحمى الناس وتحمى الدولة ..

وأنا أريدها لتحمى نفسى من نفسى ..

- لا أفهمك ..

- حتى تفهمنى يجب أن تقدر أولاً أنى تعبت .. إنى الآن فى الستين من

عمرى .. الواحد والستين .. ورغم ذلك ففكرى لا يزال فى شبابه لا يريد أن

يشيخ معى ولا يريد أن يستسلم لواقعى .. وأصبحت أحشاه وليس هناك من

وسيلة إلا أن أحبس نفسى فى زنزاة حتى لا يستطيع فكرى أن يتحكم فى تصرفاتى  
ولا حتى فى لسانى ..

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأسد رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع  
أن يسمع مزيداً من هذا الكلام ، ثم قال :

- صدقتى يا أحمد .. لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها ..

وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرحوه أن يحتمله :

- يكفى أنك اعترفت أنى أصبحت مشكلة .. وحتى تصل إلى تحديد خطوط

مشكلتى يجب أن تعرف أنى لا أقبل أبداً أن أحمل لقب « سابق » .. أفضل أن

أموت قبل أن يعلن أنى أصبحت من أصحاب السوابق .. وأنا ليس لى صفة اعترت بها

وأحرص عليها إلا صفتى ككاثر .. فكر ثورى .. وإيمان ثورى .. ولا أريد أن

أعيش حتى أصبح فى نظر وتقدير الناس ناثراً سابقاً .. واحد من ثوار زمان ..

واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية .

وبما أنى فى الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسى ومن ثورنى فإن أفضل مكان

وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الناثر هو السجن .. إن وجودى فى السجن

هو تأكيد لصفتى ككاثر وفى الوقت نفسه إعغافى من أداء مهنتى ككاثر ..

وقال الوزير ساخراً :

- كنا نعرف أيام زمان نوعاً من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل

الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه فى الصحف ويشتهر كأنه

أحد الثوار . وهو ليس بثائر ، إنما مجرد نصاب باسم الثورة ، وأخشى بعد هذا

العمر الثورى الطويل الذى عشته أن تحسب من بين هؤلاء .. تريد السجن

لتبدو بطلاً ..



وقال أحمد في هدوه :

- لا ألويمك على تصور هذا الاحتمال . . لقد تصورته أنا أيضاً . . خشيت أن تعتبروا سعبي إلى السجن نوعاً من البحث عن الشهرة والبطولة . . ولكن يجب أن تقدروا أنني لم أقم بأى عمل يمكن أن يبرر دخولي السجن . . إني أدخل السجن بناء على طلب شخصي . . أى يمكن أن يصدر القرار في صيغة « تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبساً مطلقاً بناء على طلبه الشخصي » ثم لا ينشر هذا القرار في الصحف ولا يدرى أحد أين اختفيت . . أرجوك . . افهمي . . يمكن أن تعتبري مريضاً في حاجة إلى دخول مستشفى . . والمستشفى الذى يصلح لى هو السجن . .

- أنت لست مريضاً . . والسجن ليس مستشفى . . وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائي لا يقره قانون . . فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصي . .

- هذا صحيح . . ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئاً . . وأنت تعرف كم كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى . .

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذى يعرفه ثم قال :

- أستاذ أحمد . . إن ما يحيرنى هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثورى . . لماذا . . إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أى فكر ثورى . . ولا أعتقد أنك ضد الثورة أو معارض لها بحيث تتصور أنها لن تحتل أفكارك . .

وابتم أحمد ابتسامة الأستاذ وقال :

- هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة . . وأنا وأنت أصبحنا من زمن نتخلف في الموقف . . أنا أقف في الشارع وأنت تقفون في الداخل . . والذين يقفون في الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة . . حرية بلا مسئولية تنفيذية . . إنها حرية الفكر . . والذين يقفون في الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال . . السلاسل والأغلال التى تفرضها المسئولية التنفيذية . . وكل من الطرفين على حق في موقفه . . الذى يقف في الشارع يمكن أن يطالب بمشروع شعبي يتكلف ألف مليون جنيه ، والذى يقف في الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن لأن الدولة لا تتحمل ألف مليون جنيه . . أى أن الثائر المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثورى على المستقبل ، أما الذى يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتفطية المستقبل ، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب ، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال . . ربنا يحلها . . و . .

وقاطعه سيادة الوزير فهمي عباس قائلاً :

- المهم أنك قلت إن كلاً من الطرفين على حق في موقفه . . أى يمكن التفاهم بينهما . . و . .  
وقال أحمد مقاطعاً :

- لا . . التفاهم هو انجاء الضعفاء المسلمين . . لا يمكن لأى ثورة أن تتقدم في مواجهة المستقبل إلا تحت ضغط . . وهو إما أن يكون ضغطاً من خارجها

أو ضغطاً من داخلها . . ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول في حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه . . وكى يدافع عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم . . على التطور . . على مواجهة كل مطالب المستقبل . . على تحقيق المبادئ الثورية . . فإذا احتنى هذا الضغط أو ضعف ، أصيب المسؤولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس . . والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم ، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تتصرف إلا في حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور . . ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط . . الثورة الشيوعية مثلاً . . إن مبادئ ماركس لم يطبق واحد على مائة منها حتى اليوم . . والمجتمع السوفيتي لا يزال يعاني من الانفصال الطبقي ، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات يبروقراطية . . لماذا . . لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجى عليها ، ثم قضت على قوة الضغط الداخلى أيضاً . . أى قضت على الفكر الشيوعى الذى يقف فى الشارع . . وفى أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعى كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة ، ثم بدأ المجتمع الشيوعى بعد ستالين يتقدم فى بطء لأن الحكومة سمحت بظهور بارقة من الضغط الداخلى . . لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التفاهم بين الفكر المنطلق والفكر التنفيذى المسئول أى التفاهم بين المقيدين بالواقع والمطلعين إلى المستقبل . . لا يمكن أن تستمر إلا تحت قوى ضاغطة . . كل منها يضغط على الأخرى . .

وقال الوزير وهو يتسم كأنه توصل إلى الحل الذى يرضى أحمد :  
- إذن فإنى أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن تترك لك حرية التعبير عن القوة الضاغطة . . إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك . .

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة :

- لا . . لا . . لا أستطيع . . قلت لك إني تعبت . . تعبت من نفسى ومنكم . . أريد أن أستريح . . أن أحال على المعاش . . ولا أطلب سواً ولا حتى خطاب شكر . . أريد أن أستريح فى السجن . . إني كمن يرسل كتابه الذى انتهى منه لوضعه فى غلاف محترم له . . والسجن هو الغلاف الذى أريد أن أغلف به حياتى . . هل فى هذا شئ يصعب على الدولة . .

وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر :

- إني لا أستطيع أن أتوسط لك فى مثل هذا الطلب الغريب . . إتهم سيتهمنى بالجنون لمجرد أنى أنقل إليهم فكرة مجنونة كفكرتك . . وهذا الأستاذ أحمد وقال وهو يتسم ابتسامة مسكينة ضعيفة :

- لقد فكرت فى الجنون أيضاً . . فكرت أن أدعى أنى أصبت بمرض فى عقل وفى أعصابى . . وأطلب من الطبيب أن يضعنى فى مستشفى المجاذيب . . واخترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطراً . . والانتهاه بالجنون هو نهاية مشرفة أيضاً لصاحب أى فكر ثورى . . لأن معناها أنه أجهد عقله فى سبيل وطنه إلى أن جن ، وقد يعتبر الناس أن الدولة هى التى وضعتنى مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المتهمين السياسيين تخلصاً من محاكمتى . .

وقال الوزير فى تأثر :

- أستاذى إني أشفق عليك من كل ما تفكر فيه . . من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف . .  
وقال أحمد :

- هل تعرف ما فكرت فيه أيضاً . . فكرت فى الانتحار . . إن الكاتب

الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئاً جديداً لقراءه .. وأنا .. ربما كانت هذه هي سر أزمي .. لم أعد أستطيع أن أقدم فكراً جديداً لوطني .. لم أعد أستطيع أن أستمر باتجاهي الثوري وأصبح من حتى أن انتحر .. على الأقل فإني أفضل لقب «مرحوم» على لقب «سابق» ..  
الثائر المرحوم أشرف من الثائر السابق ..

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق :

- تستطيع أن تفكر في شيء آخر .. تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسي والتفرغ لمشروع زراعي أو اقتصادي .. كثير من زملائنا كما تعلم أنهم وضعهم الثوري وتركوا كل مسئولية سياسية ونجحوا نجاحاً كبيراً في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات ..  
ونظر أحمد إلى الوزير كأنه يلومه وقال :

- تريدني أن أكون واحداً من هؤلاء .. إنهم جميعاً استغلوا الثورة في الاتجار .. لقد وجدت كتاباً أصدره واحد منهم في إحدى دول الخليج .. دول البترول .. وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة «عضو مجلس قيادة الثورة» رغم أنه لم يكن عضواً في مجلس القيادة ، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجاري ربح منه الثائر السابق أكثر من مليون جنيه استرليني .. هل هذا ما تريده مني ؟ .. هل يهون عليك أستاذك إلى هذا الحد .. هل يهون عليك الثورة لتنتهي إلى يد أمثال هؤلاء ؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهي الحديث :

- لا .. لا .. لا أقصد هذا النوع من الناس .. هناك مشروعات أخرى مشرفة .. تستطيع مثلاً أن تقيم في القرية مزرعة دجاج .. الدجاج الآن يمثل حاجة شعبية

«بعل أزمة حادة من أزماننا ، وهي أزمة المطالب الغذائية .. كل صاحب أرض هم الآن مزرعة فراخ .. وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة تعيش الآن على مشروعات الفراخ ..  
وقال أحمد ساخراً :

- إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس .. عقلي وعقلهم .. تبادل الفكر .. ولا أستطيع أن أتعامل بعقلي مع عقل فرخة .. وإن كانت الفراخ كما تقول أصبح لها قيمة شعبية ودور وطني ..

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهيم بالقيام حتى يلفت نظر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة :

- على كل حال يا أستاذي .. أنا أسف .. لن أستطيع أن أعرض مشروعك على أحد .. لا أستطيع .. أكرر أسفي .. وقام أحمد من على مقعده ومد يده بصافح الوزير مودعاً قائلاً :

- كنت أنتظر هذا .. وقد قلت لك في أول الحديث إنك ستفاجأ .. وعلى كل حال من حتى أن أختار .. إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار ..  
والوزير يودعه حتى الباب قائلاً :

- لا تنس مشروع الفراخ ..

وقال أحمد ضاحكاً ..

- هذا إذا قامت الفراخ بثورة ..

❖ الساعات الأخيرة قبل الغروب ❖

www.alkottob.com

كنت أقضى أياماً في جزيرة رودس . . سائحة تبحث عن الهدوء والجمال . .  
وكنت جالسة في حديقة فندق «جراندأوتيل» على حافة حمام السباحة أقرأ كتاباً  
بسم مجموعة قصص قصيرة لكتاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو  
وميكافيللي إلى الكاتب المعاصر مورافيا . . ووقف أمامي شاب وسيم رشيق  
كأنه رسم خطوط وعضلات جسده بنفسه وبذوق فنان ، وفيه سمرة أوربا  
التي تختلف قليلاً عن سمرةنا . . سمرة مصر . . وهي سمرة يتميز بها شباب  
جنوب اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط . . وقد حاولت أولاً أن  
أجاهل هذا الشاب ولكنه ظل واقفاً أمامي حتى اضطرت أن أرفع عيني إليه  
والتيقبت بابتسامة حلوة بين شفثيه شدت ابتسامتي إليه . . وقال وكأنه يعرفني  
من زمان :

- سيدتي . . منذ أيام وأنا أراك لا تفعلين شيئاً إلا القراءة في الكتب . .  
إنك تستطيعين القراءة في أي بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة ، إنها  
جزيرة تستطيع أن تعطى أكثر مما يعطى أي كتاب . .  
وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة إيطالية .  
وقلت وابتسامتي تنتسج بلا افتعال كأنني فرحة بهذا الجمال الذي يعرض نفسه عليّ :

– إنى لا أستطيع أن آخذ شيئاً من رودس قبل أن أنتهى مما يعطيه لى هذا الكتاب ..

قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يدى فى زهق كأنه ينظر إلى منافس خطير :

– هل يأخذ منك وقتاً طويلاً ؟

قلت :

– إنى أقرأ فى قصة قصيرة .

قال :

قد تأخذ منك ساعة ..

قلت :

– ربما أقل ..

قال وعيناه مركبتان على وجهى كأنه يحاول أن يكشف مصيره معى :

– هل أعود إليك بعد ساعة .. أقصد نصف ساعة ؟

قلت وقلبي يضحك :

– حاول ..

قال فى إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره :

– سأحاول ..

وابتعد عني وعيناي تجريان وراء قوامه المشوق المرسوم بخطوط فنان وتتعلقان بشعر رأسه .. إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضة الشبان هذه الأيام ولكنه يضعه فى قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه ، وهو ليس شعراً ناعماً لامعاً ولا شعراً خشناً غامقاً ، ولكنه شعر متموج فى لون الساعات الأولى من الغروب ، وأحسست إحساساً قوياً بأنى أريد أن أمد يدى وأغرز أصابعى بين خصلات شعره .. وطبعاً قاومت هذا الإحساس ورفعت كتابى أمام عيني أحاول أن أهرب منه وأعود

إلى القراءة ..

ومنذ بدأت أتعتمد على القراءة لملء الفراغ الواسع الذى أتعرض له فى كثير من

أيامى ، وأنا لا أقرأ إلا القصص .. القصص الطويلة والقصص القصيرة ..

ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت ، كما لا أحس بأنى

مقط أنتقل لأعيش فى الخيال ، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأنى أقرأ دراسة اجتماعية ..

إن القارئ يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية

الإنسانية من خلال القصص التى يكتبها كتاب كل شعب .. ولذلك أصبحت

هوايى أن أجمع القصص التى تكتب فى كل بلاد العالم .. قصص روسية

وقصص يابانية وقصص هندية و .. و .. بل أنى قرأت أيضاً قصصاً كتبها

كتاب من غانا ومالى وكوبا .. و .. وأصبحت أحس كأنه من السهل على أن

أكتشف شخصية أى إنسان من أى بلد فى العالم ، حتى هذا الشاب الذى وقف

أمامى .. ألبرتو .. إنى أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات

كتبها كاتب ألمانى بعنوان « قيمة الحب عشرة » وبطلها شاب احترف اصطياد

السانحات العجائز الإنجليزية والأمريكيات ويعطيهن كل ما يطلبن من متع نظير

أجر غال ، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيتاً كاملاً مخصصاً لاستقبال عجائز

النساء ، واتسعت شهرة هذا البيت فى مجال السياحة فى ألمانيا حتى أصبح يتردد

عليه النساء الصغيرات أيضاً ، وهو لا ييخل أبداً بقواه كرجل يبيع الجنس ، ولكنه

بدأ يحس أنه فى حاجة إلى بعض المقويات ، ثم لم تعد المقويات تكفى لتغطية

مطالب الزبائن فاستعان باثنتين من الشبان ليعملا معه داخل البيت ، ولكنه كان

دائماً هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجائز والشابات .. إلى أن أحب ..

أحب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

أحب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

لقد علم إليها أى رجل .. الوحدة .. الفراغ .. إنها أكثر ما يهدد تصرفات الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة .. وأنا أتغلب على وحدتى وفراغى بقراءة الغفص ..

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش فى داخله كأنى أحمى به نفسى من ألبرتو .. ولكنى لم أستطع .. إن ألبرتو أثار فى نفسى إحساساً بأنى مظلومة فى وحدتى ، برغم أنها ليست المرة الأولى التى أعيش فيها وحيدة وفى فندق وفى بلد أجنبي ، فمئذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسافر كثيراً مع زوجى إلى أوروبا ، وسافرت معه مرات إلى أمريكا ، ومرتين إلى روسيا ، وفى كل مرة كان ينتهى من عمله فى العاصمة التى نقصدها ، ثم يقنعنى بأنه فى حاجة إلى السفر وحيداً إلى عاصمة أخرى ، وغالباً ما تكون لندن أو باريس ، وتنفق على أن أنظره فى مدينة من المدن السياحية المعروفة .. وكتب أقبل هذه الفرقة بينى وبينه فى بساطة وفرح لأنه فى الغالب كانت ابنتى أمينة وابنى طارق معنا ، أو كانا يلحقان بى فى البلد التى نختارها وأقضى معهما أسبوعاً أو أسبوعين فى انطلاق عائلى حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف وتعود جميعاً إلى مصر .. ولكن أمينة وطارق كبار .. أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين ، وطارق يقم فى أمريكا .. ورغم ذلك فزوجى لا يزال يتركنى وحيدة فى كل مرة يسافر فيها إلى أن يعود إلى .. إنه فى حاجة إلى عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه فى الدعوات التى توجه إليه ، ولأنه لا يطمئن إلى أحد فى حفظ أوراقه إلا إلى ، وقد أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه .. ثم بعد أن تنتهى العملية يصبح وليس فى حاجة إلى فينكتر الأعدار ليتركنى ، وكان زمان يجسد فى الأولاد حجة فهو يريد أن يدخلهما مدرسة فى جنيف

وأحبها فعلاً بكل عقله وقلبه وقرر أن ينهى أعماله الخاصة بالساعات ويتفرغ للحب ، ولكنه عندما بدأ يعطى للحب .. عندما بدأ يمارس الحب .. فشل .. لم يستطع .. وكان يعود لممارس مهنته مع سائحة عجوز فينجح ، ثم يجيئى إلى حبيبته معتقداً أنه استرد ثقته فى قواه ولكنه يفشل .. واعتقد أن الحب يرفض أن يستجيب مع آله ، وهو قد حول نفسه وحده إلى آلة لا تستطع أن تعيش الإحساس الإنسانى .. الإحساس بالحب .. فاتحتر .. هذه هى القصة التى ذكرنى بها ألبرتو وحكمت بها عليه .. إنه هو أيضاً بصطاد السائحات العجائز .. إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب « جيجولو » وهى مهنة منتشرة فى كل فنادق العالم ، وفى فنادق مصر أيضاً .. وحتى أمس كان ألبرتو فى خدمة امرأة أمريكية ربما كانت فى السبعين من عمرها ، ولعلها سافرت هذا الصباح وتركت رودس فجاء يعرض نفسه على .. وأنا ..

هل أنا عجوز .. إبنى - بلا كذب - فى التاسعة والخمسين من عمري ، ولن أعترف بأنى وصلت الستين عندما أصل إليها ، ولكنى محتفظة بقوامى ونضرة جلدى المشدود فأبدو كأنى فى الأربعين من عمري ، وصدقونى أنى لم أجر عملية شد جلد وهى العملية التى أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقى فى مصر .. أبداً .. وربما كان احتفاظى بنضارتى يرجع إلى هدوئى الدائم ، ورضائى عن نفسى ، وبجاحى العائلى .. نجاح زوجى ونجاح أولادى وبناتى .. إن النجاح فى حد ذاته عملية تجميل تشد الجلد وتحفظ بنضارة للمحاث واتساق القوام ..

لا ، إن ألبرتو لم يأت إلى لأنى عجوز .. لقد جاء إلى لأنى وحيدة .. إنه يرانى منذ أسبوع فى هذا الفندق وأنا وحيدة .. ووحدة المرأة هى إغراء طبيعى

أو يريد أن يلتحقا بالدراسة الصيفية في أكسفورد أو كامبردج ، أو يريد هما أن يتمتا بمصايف أوروبا ، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حجة تقنعني إلا أنه يريد أن يكون بعيداً عني ، وكنت أستسلم لما يريد .. ماذا يمكن أن يكون غرضه من هذه الفرقة المتعمدة .. أن يتمتع نفسه كرجل .. يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذي يعطيه بالثمن .. لا يمكن أن يكون محمود مرتبطاً بأى علاقة جادة مع أى امرأة .. إلى أعرفه .. إنه يلعب أو يعطى نفسه إجازة زوجية ، وهو في حاجة إلى هذه الإجازة خصوصاً بعد أن وصلنا إلى هذه السن .. إنه الآن في الثانية والستين ولا يزال محتفظاً بكل رجولته .. إنى أعرف رغم إنى فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرجولة .. إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها .. نفس الصنف الذى ينتمى إليه ألبرتو .. امرأة تتبع نفسها . ورجل يبيع نفسه .. ولكنى لم أشعر أبداً بحاجتى إلى رجل من هذا النوع ولا من أى نوع آخر .. إنى عشت وحيدة في مصايف أوروبا وفى جزر البحر الأبيض .. في كابرى .. وسيلسيا .. وكريت .. وجزر كنارى في المحيط الأطلنطى .. أصبحت أنا التى تختار الملجأ الذى أعيش فيه إلى أن ينهى زوجى من لعبه .. وأنا التى اخترت جزيرة رودس لمجرد أنها قريبة من أثينا التى كنا فيها للعمل ..

وفجأة وجدت ألبرتو واقفاً أمامى يقول من خلال ابتسامته الرزينة :

– هل انتهت القصة ..

ورفعت عيني إليه وطارق جديد يلح على عقلى .. لماذا لا أجرب .. ماذا سأخسر .. إنها مجرد تسلية تريحنى من وحدتى وفراغى ومن قراءة القصص .. وقلت وأنا أتسم له ابتسامة كبيرة :

الواقع أنها لم تنته ..

وربما شجعته ابتسامتى فمد يده وأخذ الكتاب من بين يدى وقال :

سأورى لك قصة أمتع مما تقرئين .. ومن يدرى ربما استطعنا أنت وأنا أن نكتب قصة .. هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية ..

وقلت فى دهشة :

– كيف عرفت أنى أكتب بالعربية ..

قال وهو يشد مقعداً ويجلس بجانبى :

– سألت .. لقد أخذتلك أولاً على أنك إسبانية .. إن ملامحك فيها كثير

من ملامح الإسبانيات ولكنى عندما سألت عرفت أنك مصرية ..

وقلت ضاحكة :

– وماذا عرفت أيضاً ..

قال كأنه يطمئننى :

– لن أعرف أكثر مما تريدننى أن أعرف .. المهم ألا تنبى الآن هنا .. هل

ذهبت إلى ليندوس ..

قلت :

– سمعت عنها ولم أذهب لأنى لا أحب الذهاب فى أفواج سياحية ..

قال :

– ستكونين أنت وحدك فوجاً كاملاً .. إنك تساوين عشرين .. تعال ..

وببساطة تركت له يدى يشدنى منها ويبقى محتفظاً بها ونحن نسير إلى خارج

الفندق ويدعوتنى للركوب بجانبه فى سيارته .. إنها سيارة فيات صغيرة قديمة

ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأنى أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها ،



أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتني من كيانى الاجتماعى الذى يفرض على أن أركب السيارة البويك والمرسيدس الكبيرة الفخمة . . أصبحت حرة . . والطريق إلى « ليندوس » يعلو إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادى وكله مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حولى يكاد يطير بى . . لا . . ليس مجرد الجمال . . لقد عشت قبل ذلك فى القمم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال ، ولكن هذه هى المرة الأولى التى أحس فيها بأنى أعيش مغامرة مع رجل غريب . . إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتباهه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال . . ولكن . . لماذا أحبها مغامرة . . إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حسابى الخاص ، وألبرتو ليس إلا دليلاً سياحياً ترجماناً . . وأنا مطمئنة إليه . . مطمئنة لأنى سيدة كبيرة . . عجوز . . لا يمكن أن يطمع فيها أى شاب كألبرتو . .

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة . . إنه يجعلنى أضحك عندما يريد أن يضحكنى . . ويزيد معلوماتى عندما يريد أن يزودنى بمعلومات . . ويروى لى قصصاً مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التى أقرأها . . وقد التهزت فرصة سكت فيها وسألته :

— ألبرتو . . ماذا تعمل . . ما هو عملك ؟

ونظر إلى كأنه استسحف السؤال وتلعثم قليلاً ثم قال :

— أنا رجل أعمال . .

قلت :

— أى نوع من الأعمال ؟ . .

وأطال نظرة اللوم إلى ثم قال :

— كل الأعمال تؤدي إلى نتيجة واحدة . . كلها محاولات لتحقيق سعادة الإنسان . . إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه . . والجرسون فى بار يبيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن . . ورئيس الوزراء فى أى بلد يدعى أنه يبيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء . . وأنا أزاوئ أى عمل يحقق السعادة . . لا يهم نوع العمل . . المهم أن أكون سعيداً به وأن أسعد به غيرى . .

قلت :

— إنك تسعدنى فعلاً ، ولكن هل أنت سعيد بى ؟

قال :

— إنى الآن سعيد بالأمل فىك ولا يمكن أن يتحقق الأمل بمجرد نظرة أو مجرد لقاء . . إن الأمل يولد كالجنين ثم يأخذ فى النمو إلى أن يتحقق ويستكمل نفسه . . وأملنا أنت وأنا لم يولد إلا منذ لحظات ألا تسمعين صراخه . . واه . . واه . . واه . . وضحكت وعدت أسأله :

— هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التى كنت أراها معك . . ونظر إلى وبين شفقيه ابتسامة كأنه يشفق بها على وقال :

— أراهن أنك سيدة بلا تجارب . . إنك تجعلينى أحس كأنى أول رجل فى حياتك ، بعد زوجك طبعاً . .

قلت كأنى أتبهه :

— إنك لم تدخل حياتى بعد . .

قال :

— أقصد أنى أول رجل غريب تلبين دعوته . .

قلت :

- هذا صحيح ..

قال :

- وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفي كل شيء عنى رغم أنى معروف في كل أوروبا تقريباً .. وهذا أيضاً ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية .. جاكلين .. و. وقاطعتي :

- إنى لا أغار ولكنى فقط أحاول أن أعرفك ..

قال :

- حتى محاولة معرفتى يجعلك كأنك طفلة صغيرة مجتاز تجربة لأول مرة ، فإن معرفتى لا تهم في أى شيء ، المهم هو اللحظة التى نقضها معاً ، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا . ولكن .. لا يهم .. سأورى لك قصة جاكلين .. لقد عرفتها منذ عشر سنوات في فينيسيا وكنت لا أزال في اولى تجارى ، وكان لها فضل كبير على .. علمتى كل شيء .. ورفعتنى إلى الحياة التى كنت أحلم بها .. قدمتنى إلى أرقى المجتمعات .. وعشت معها في أكبر الفنادق التى أصبحت الآن زيوناً دائماً بها .. بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتى للإقامة عندهم كما يتنافسون على استئجار الفرق الموسيقية أو الفنانين المشهورين .. وقد أخذتنى جاكلين معها إلى أمريكا .. إنها تملك أسهم إحدى شركات البترول في ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيع ، رغم كل ما كانت تحيطنى به جاكلين .. لقد اشترت لى طائرة خاصة لأنتقل بها داخل أمريكا ، وكنت أطيّر بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأخسر وجاكلين تتحمل ، ورغم ذلك لم أعد أطيع .. وكانت كريمة فاتفقت معى على أن أعود إلى أوروبا وتأتى هى إلى كلما أردتنى .. لقد سافرت صباح اليوم .. ومنذ ثلاثة أيام ..

منذ رأيتك في الجزائر أوتيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكلين ..

وأقول لك بصراحة .. لو عادت جاكلين فأسأطر أن أعود إليها :

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التى يتكلم بها :

- إنها كبيرة .. أكبر منى بكثير .. لملك تحس بها كأم ..

قال في بساطة :

- لا .. أحس بها وأحبها كعمل .. إن الطبيب لا يهه سن المريض ..

وأعتبرينى طبيياً نفسانياً

ويزداد انبهارى بصراحة ألبرتو .. إنه لا يخفى شيئاً عن طبيعة عمله بل يتحدث كإخصائى فخور بتخصصه .. إنه لا يخدعنى .. ولا يحاول أن يصل إلى شيء لا أعرفه .. إنه يقدم لى نفسه ويتركنى أختار .. والسيارة القديمة الصغيرة تعلق وتهبط بنا بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم عجزت عن السير وتوقفت ، وصرخ ألبرتو :

- هذا ما كنت أخشاه ..

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يبعث فيه إلى أن عاد إلى التحرك .. وعدنا نقفز في طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت ، ونزل منها ألبرتو قائلاً :

- إنها غلظتى .. كنت أريد أن أشتري سيارة جديدة من روما وليس من هنا ..

ثم دار وفتح لى الباب قائلاً :

- سنضطر أن نسير كيلومتراً واحداً ونصل إلى قرية « مالونا » .. إن هناك

أحسن نبيذ .. هل تستطيعين السير كيلومتراً واحداً .. أستطيع أن أحملك

بين ذراعى لو أردت ..

وقفزت من السيارة في خفة كأني أحاول أن أثبت له شبابي ، وتركتنا السيارة ورانا دون أن يهتم ألبرتو حتى بإغلاق أبوابها ، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت :

- ألا يستحسن أن تغلق أبواب السيارة ؟

قال وهو يأخذ يدي في يده :

- لم نعد في حاجة إليها .. ليأخذها من يريده ..

وسرنا حوالى نصف ساعة .. وكل ما حولي جميل .. والجمال في داخلي ..

أحس كأني أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفها فارس أحلامها .. ولم أكن أحس بألبرتو بالذات .. ليس هو .. وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيسهم بعيني وأنا جالسة في مقاهي أوروبا .. ولكن ما أحس به هو ما يحيطني به ألبرتو .. هو الإحساس بالمغامرة .. بالشيء الجديد .. بالجمال الجديد .. جمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد .. وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلاً :

- استراحة لمدة عشر دقائق ..

ثم سقط على الأرض في ظل الشجرة وأسقطني معه .. ثم سكت عن الكلام .. وأخذ ينقل عينيه في أنحاء وجهي ، ثم مد ذراعه ووضعها فوق كتفي ، ثم قال في همس :

- أريد أن أحاول ..

وعيناي متعلقتان بوجهه الوسيم وشعره المتموج في لون الساعات الأولى من الغروب ولكني حائرة .. لا أدري ماذا يريد أن يحاول .. ولا أدري ماذا أريد أنا .. ومال بشفتيه فوق عني ، ثم تسلل بهما فوق وجتي ، ثم أحسست بهما بين

شفتي .. وتجمدت شفتاي .. منذ أكثر من عشر سنوات لم أتلق قبلة بين شفتي .. زوجي عبد اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغنى عن الحذاء القديم ، وأنا أيضاً .. شفتاي .. كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل .. ولذلك تجمدت شفتاي بين شفتي ألبرتو .. وهمس مبتسماً :

- إنك مازلت ساذجة .. أحس كأني يجب أن أعلمك كل شيء حتى

القبل ..

وشفتاي لا تزالان متطعتين إلى شفتيه كأنهما تستجدبانها ألا يتركهما .. وعاد إليهما .. وتركتهما له .. أطلقتها من سجنهما الطويل .. ولكني وأنا قبله أحاول أن أتذكر كيف كنت أقبل قبل أن أجتاز سن القبل .. وكنت أخشى أن أفعل شيئاً مفرأ أو شيئاً لا يعجبه .. ولكن ألبرتو كان يتصرف بين شفتي وتصرف الأستاذ .. إنه يعلتني القبل .. يلتق على الدرس الأول .. وتغلبت على نزعة كبرياء المرأة فأبعدت شفتي عنه قائلة :

- كفى يا ألبرتو .. دعنا نعد إلى السير ..

وقفزت واقفة ، وقفز معي وهو يتبسّم كأنه يعلم كل أحاسيسي ، وبدأنا من جديد ، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعزف لى الألحان بين أشجار الزيتون والبرتقال ..

إلى أن وصلنا إلى قرية « مالونا » ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل ، وجلسنا لتناول طعام الغداء والنيذ ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق « الديستونك » .. وبعد أن انتهينا وقررنا أن نعود لنستأجر سيارة ونعود إلى « رودس » فتحت حقيبتى وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدرخمات ومددت بها يدي من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة :

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسى إلى الفندق وتركنى ألبرتو  
على أن نلتقى فى التاسعة . إنه هو أيضاً الذى دفع أجر التاكسى وقد حاولت  
أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسماً :

- لا تكونى ساذجة . .

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة . . كنت كأنى أحاول أن  
أخلق نفسى من جديد . . لقد دخلت الحمام ولأول مرة أهتم بأشياء مضت سنوات  
طويلة لم أهتم بها . . إنى أستعرض كل تفاصيل جسدى فى المرآة ، وأتحسس صدرى  
لأطمئن إلى أنه لا يزال يحتفظ بشئ من تماسكه . . وساقى . . وذراعى . . وبطنى . .  
لا شك أنى لا تزال محتفظة باتساق قوامى . . وبذلت فى الإستحمام مجهوداً  
لم أتعود أن أبذله ، ولم أكن فى كل ذلك أفكر فى ألبرتو أو يخطر ببالى . . لم أكن  
أعد نفسى له . . ولكنى كنت أعد نفسى لنفسى . . كنت أعيش شخصية جديدة  
أريدها هكذا . . ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعرى ناعم وكنت  
قادرة دائماً على أن أعقصه كما أريد بلا كوافير . . وعندما بدأت أختار الثوب  
الذى سأبدو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير التى تعودتها . . لقد تعودت  
أن أختار ثوب المساء لأظهر به فى الدعوات الرسمية بصحبة زوجى ، أو فى  
السهرات الاجتماعية بصحبه أيضاً وكنت أنجح دائماً إلى الأزياء الحشمة العاقلة ،  
وكنت معروفة فى كل المجتمعات باتساق ذوقى فى اختيار ثوبى مع الاحتفاظ  
بهذه الحشمة العاقلة . . ولكنى الليلة لست حشمة ولا عاقلة ، إنى أفكر فيما  
يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر فى الثوب نفسه . . ذراعى . . عنقى . .  
وبراز صدرى وخطوط ظهرى . . كل ما أنخيل أنه جميل منى أحاول أن أبرزه . .  
ووقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التى أوّلها . . ولكن . . ماذا

- ألبرتو . . أرجوك ادفع عنى الحساب . .

وكنت أعتقد أن هذا ما يجب أن أفعله بعد أن اعترف لى ألبرتو بعمله . .

ونظر إلى ألبرتو فى دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال :

- ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة . .

ثم دفع الحساب من جيبه ، وأعتقد أنه كان سخيّاً فى دفع البقيش  
فقد أثار فى الدكان كثيراً من التهليل وصيحات المرح . . وأكثر من ذلك . .  
أخذنى إلى دكان فى القرية يبيع تحف السيراميك التى تشتهر بها رودس ،  
واشترى لى قطعاً غالية دفع ثمنها من جيبه . .

وركبنا السيارة التاكسى وأنا حائرة . . لا أدرى كيف أحدد أسلوب التعامل  
معه . . ترى كيف يتعامل زوجى عبد اللطيف مع النساء اللاتى يعطينه اللحظات  
الحلوة . .

وقال ألبرتو :

- ضاعت منا « لاندوس » اليوم . . فالليل هناك بارد وهم ينامون بمجرد أن  
تنام الشمس . . ولكننا سنذهب غداً أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة . .  
والتاكسى ينطلق بنا عائداً بين أشجار الزيتون والبريقال ، وألبرتو يضع ذراعه  
فوق كتفى وأملت رأسى واسترحت بها فوق كتفه . . ثم رفعت يدى ودستت  
أصابعى بين خصلات شعره . . حققت ما كنت أحلم به منذ رأيت . . شعره  
المتنوع فى لون الساعات الأولى من الغروب . . لم لا . . إنى أعيش فى حالة  
نسيان . . نسيان عمرى ، ونسيان زوجى وأولادى ، ونسيان مركزى . . إنى  
أعيش قصة ، ويبدو أن إدمانى قراءة القصص جعل منى امرأة مخمورة بقصة  
تؤلفها وتعيشها . .

أحمل معي لألبرتو .. يجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته في إسعادي .. هكذا تتطلب القصة .. وألبرتو ليس «جيجولو» رخيصاً يقبل أن تدفع له المرأة حساب السهرة .. إنه محترف غالى الثمن .. وكنت قد اشتريت من باريس علبة سجاثر ذهبية وولاعة سجاثر كارتيه هدية لأخي إسماعيل .. سأعطيها لألبرتو وأشتري لإسماعيل هدية أخرى ..

واستقبلني ألبرتو في هو الفندق كأنه بهر برشاقتي ولا أريد أن أقول جمالي .. على الأقل بهر بجمال ثوبي وجمال إعدادي لنفسى .. وجلستنا نتناول العشاء في صالة الفندق . وأخرجت علبة السجاثر والولاعة وقدمتهما له قائلة :

- حتى لا تنساني ..

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية .. قلبها بين يديه وقال بلا حماس :

- ألف شكر .. كنت في حاجة فعلاً إلى علبة سجاثر وأفضل دائماً

ولاعات كارتيه :

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا .. ثم بدأ يشير إهتمامي بحكاياته ونكاته ويقضى وقتاً طويلاً في اختيار أنواع النبيذ ، ويروي لي تاريخ كل نوع .. وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلني أشرب .. لم أسكر ولكني شربت .. وبين كؤوس النبيذ قال لي ألبرتو :

- غداً نذهب في رحلة بحرية بين الجزر .. وبعد غد نكون قد اشترينا السيارة ونذهب إلى ليندوس .. خبريني .. هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو .. وتوقف عقلي لحظة عند هذه الكلمة .. ماذا يقصد .. ولكني بسرعة تجاهلت كل ما يحظر على بالي مما يقصده ، وقلت :

- ألفا روميو تليق بك .. والمرسيدس تليق بي .. إن فرق السن يتحكم

أيضاً في أنواع السيارات ..

وقال كأنه غضب :

- لا تتكلمي عن السن مرة أخرى .. تعالي .. سأثبت لك أن لا فرق

بي وبينك ..

وقام من حول مائدة العشاء وقمت معه ، وفي هذه المرة لم يدفع الحساب ، قيد المبلغ في حسابي بالفندق ، ويبدو أن الجرسونات في هذا الفندق وهو أكبر فندق في المدينة تعودوا كلما رأوه مع امرأة من النزلاء أن يضيفوا الثمن على حسابها .. وقلت وأنا ألحق بخطواته السريعة :

- إلى أين ؟

قال :

- صبرين ..

قالها وكله ثقة في نفسه وكأنه تملكني وكأني استسلمت له .. ثم توقف برهة عند مكتب البواب وطلب مفتاحاً ، ونظر البواب إلى وايتسم ابتسامة لم أرتع لها ثم أعطاه المفتاح ، ثم أدخلني معه في المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع إنه نفس الطابق الذي أقيم فيه .. ثم سار بي في نفس الممر الذي يؤدي إلى حجرتي .. ووقف أمام حجرتي فعلاً .. الحجرة ٤٤٤ .. وفتح بابها بالمفتاح .. وقلت كأنني أصرخ :

- كيف أعطوك مفتاحي ؟

قال :

- لقد كنت معي ..

قلت :

- لم أحملك تطلب مفتاحي ، ولو سمعت لاعتزضت ..

قال في ثقة :

- لا أظن ..

ودخل الغرفة كأنها غرفته ، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زجاجة « ليكير » من عصير التناوع ، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدني ليجلسني إلى جانبه ، وقال وهو يحتويني بعينه الغامضتين وابتسامته الحلوة تكاد تلتقط شفتي :

- يا عزيزتي .. إن العمر إحساس .. وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة في الرابعة عشرة ، وأحس بنفسي كأني وحش في الأربعين قرر أن يفترسك .. وأنت .. أنت في حاجة إلى هذا الإحساس .. الإحساس بأنك امرأة .. إن القدرة على الإحساس لا تضعف أبداً ولا تتبدل .. وقد بدأت أحس فعلاً ..

وبين كئوس العصير المسكر يشند إحساسي .. إحساسي بأني امرأة وأن ألبرتو رجل .. وأنا قريان جداً من الفراش .. وألبرتو يتحكم في بمهارة صناعي .. يجيد الصنعة .. لا شيء يبتنا سوى الصنعة .. المهارة في الإخراج وفي الوصول .. واكتشفت أنه لا شيء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأي امرأة .. قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب ، ولكن ليست هناك أبداً سن تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس .. وقد كنت أعتقد أنني وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات ، ولكنني الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة .. أحس كأني أعيش في جسد تنبض كل خلجة منه بالحياة .. ليس في داخلي قطعة ماتت أو فقدت الإحساس .. وربما كان هذا هو سر ما كنت أعانيه

مع زوجي عبد اللطيف .. إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لي فتجاهل إحساسي كل هذه السنين .. إنه ما تعانيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن .. وقد حررتي ألبرتو من المعاناة ..

وتركني ألبرتو عارية فوق الفراش .. قائلاً :

- سأراك غداً ..

وفي لحظة خلعت من أصبعي خاتمي السوليتير الذي يحمل فصاً ماسياً زنته ثمانية قراريط . وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوي الآن ثلاثين ألفاً ، وأعطيته لألبرتو قائلة :

- بهه .. واشتر لنا سيارة ألفا روميو ..

وأخذته ألبرتو بعد أن قبل أصبعي الذي خلعته منه ..

إنه بمن غال دفعته للمفاجأة التي فوجئت بها .. مفاجأة أنني ما زلت أعيش

إحساسي كامراً ..

ومهما كان الثمن الذي دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجي عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصاً بعد أن تعدى الستين حتى يمارس إحساسه برحولته مع نساء أوروبا اللاتي يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو .. يقدمن متعة الإحساس.

\*\*\*

ونمت ليلتها .. لعلي لم أنم بل أغمى على فقد كان ألبرتو قد استنزف كل قواي من ساعة أن قابلته في الصباح حتى تركني على فراشي بعد منتصف الليل .. واستيقظت في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر .. لا .. لم أستيقظ ولكنني فزعت نائرة من فوق الفراش كأن ناراً مستتة ، وكل ما حدث أمس ينطلق في رأسي .. كيف استسلمت لكل هذا .. إن هذا الصنف من المحترفين أمثال

أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكنى لم أستسلم أبداً .. بل لم يكن يحظر على بالى التعرض لمثل هذه التجربة .. وزوجى إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملتها دون أن أحاول أبداً أن أعطى لنفسى الحق فى حياة خاصة بى انتقاماً منه أو رداً عليه .. ثم مركزى وقيمتى فى المجتمع المصرى والعربى والأوربى إن المركز والقيمة لا يصنعهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك .. وما أعرفه عن نفسى الآن يهدم مركزى وقيمتى .. وأولادى .. يا خبير .. كيف أواجه أولادى وأحفادى وفى صدرى خطيئة كبيرة أخفيها عنهم .. إن الإحساس بأنى أخفى عنهم شيئاً يضعفنى أمامهم .. يعلىنى أستسلم لأخطائهم ، لو وقعت ابنتى أمينة فى خطيئة ماذا أقول لها وأنها وقعت فى نفس الخطيئة .. والله .. ماذا يفعل بى الله .. إنه قد يغفر للرجل ، بل منحه الحق فى الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة . أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمنحها شيئاً تحمى به نفسها إلا إيمانها به واستسلامها لحكمته .. قد يصب غضبه على فى صحتى ، أو فى أولادى ، أو فى زوجى .. يارب كن غفوراً .. احمى من غضبك .. وقررت أن أقوم وأنظهر وأصلى .. ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة .. إنها موقع الخطيئة ..

وتعددت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس شيئاً كبيراً ولا غريباً ، وأنى يجب أن أتحرر من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث .. إن فى الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرتو وكل منهم يبيع بضاعته لسيدات كلهن فى سننى وأكبر منى وكلهن من عائلات كبيرة ثرية .. بل حتى المجتمع العربى .. كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال ألبرتو كلما خرجن من بلادهن .. بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هى

السوق الرائحة لصناعة ألبرتو .. بل ربما كان ألبرتو لم يخترنى ليلقى على شباكه إلا لأنه عرف أنى عربية ، وأقيم فى هذا الفندق فأنا ثرية .. ثراء بترولى .. وقد وقعت فعلاً ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول .. وبقيت فى غرفتى حتى المساء لم أطلب شيئاً آكله ولا حتى كوب ماء .. ثم برزت إلى بهو الفندق فى المساء وقد قررت أن أنسى أى علاقة بألبرتو ، ولا مجرد سلام ..

ووجدته أمامى كأنه كان فى انتظارى .. وقلت له فوراً :

- أسفة مسيو ألبرتو .. إنى متعبة وفى حاجة لأن أبى وحيدة ..

وقال فى هدوء وبتسامته الحلوة تنطلق إلى شفتى :

- هذا ما كنت أنتظره .. فإنى أعرف أنك مازلت مبتدئة ..

وابتعد عنى ..

وعينائى تجريان وراءه وإحساسى يأخذ فى التحرك .. إحساسى بأنى امرأة إنى أريده .. إن ما تركه فى ليلة أمس لا يمكن أن أتخلص منه بمجرد قرار .. إنى أحس بكل قطعة من جسدى فى لهفة إليه .. شفتائى .. صدرى .. ساقى .. لقد أصبحت .. أصبحت مريضة .. ولئن أقام مرضى وأنا وهو فى مكان واحد .. وبسرعة اتجهت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعداً فى الطائرة التى تنجى إلى أثينا صباح الغد .. وما كدت أبتعد عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامى يقول فى صوته المنعم الهادئ :

- هل تسمحين أن أصحبك إلى المطار .. هناك شىء يبقى دائماً ولا يكلف

شيئاً .. وهو الصداقة ..

وأجبت وأنا أهرب من إغرائه ومن ضعفى :

- نعم . . نعم . . أراك في المطار . .

وعدت أجزى إلى غرفتي دون أن أتناول طعام العشاء ، وخفت أن أموت لو نمت دون أن أكل فطلبت قطعة من الساندويتش وكوب ماء . .

ولم أتم ليلتها . . أتعذب في صراع بين ما يريد هذا الإحساس الذي أثاره في ألبتو ، وبين تصميمي على أن أعالج نفسي من هذا الإحساس . .

وفي الصباح لم ينتظري ألبتو في المطار ولكنه انتظري في بهو الفندق ، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائتي وتصفية حسابي ثم وضعني في سيارة يقودها . ليست السيارة القديمة وليست جديدة ، وقال :

- إذا التقينا مرة ثانية سركبين الألفا روميو . .

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعي بالعدول عن السفر . . لم يطلب شيئاً أبداً . . كأنه فعلاً طيب يجد أن العلاج الوحيد لحالتي هو أن يتركني أتخذ القرار

بنفسي . .

وقبل أن أتركه في المطار أعطاني بطاقة تحمل اسمه وعنوانه . قاتلا :

- إنه عنواني في روما ولكنهم من هناك يستطيعون أن يتصلوا بي في أي مكان أنا فيه . . إذا احتجت إليّ . .

ورفعت عيني إليه ولم أتكلم . . ولا حتى كلمة وداع . .

وجريت إلى الطائرة . .

وفي ألبتينا اتصلت بزوجي عبد اللطيف في لندن وطلبت منه أن يأتي إلي في اليوم نفسه . . ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين ، فقلت له إنني مريضة وسأعود غداً وحدى إلى القاهرة . .

وعدت . .

لعل أنسى وأشئ من إحساسي بأني امرأة . .

\* \* \*

بعد ستة شهور قرر زوجي عبد اللطيف أن يسافر إلى برلين في عملية جديدة ، وأبلغني الخبر كان المفروض أن أسافر معه ولكنني صرحت دون أن أتعهد الصراخ وكأنه فاجأني بشيطان مخيف :

- لا . . لن أسافر . .

وقال في دهشة :

- لماذا ؟

قلت :

- لأنني زهقت من السفر ولم أعد أحتمل

قال :

- ولكنه عمل . . والعمل في حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معي

فإن ما يمكن أن أصل إليه في شهر أصل إليه في يوم . . إن الزوجة تفتح دائماً

أبواب المجتمع الجاد أمام زوجها . . عندما تكونين معي ندعي إلى جلسات عائلية

وتتعرفين على زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لنجاح العملية . . وعندما

أكون وحدي أدعي في النوادي الليلية وفي المكاتب . . وكل واحد من الآخرين

يتبنى أن أكون وحدي حتى يستغل ضيافتي في السهر بعيداً عن زوجته ولكن هذا

الأسلوب يعطل العملية ويفتح مجالات كثيرة غير محترمة . . وأنت تعرفين كل ذلك

وأنا أعرف أنك تمننين لي النجاح . . ولن أنجح بغيرك . .

وكتت فعلاً أعرف كل ذلك . . ورغم أنني حاولت كثيراً أن أقنعه بإعفائي

من صحبته إلا أنه أصر واضطرت أن أقبل ولكنني قلت :



- في شرط واحد . . ألا تتركني وحدي . . غير مسموح لك بأجازة زوجية . .

وقال مستريحاً :

- موافق . . ولا دقيقة وحدك . .

وسافرنا . .

وتمّت العملية . .

وفي نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقتعني بأنه مضطر أن يسافر إلى لندن وحده .

وصرخت :

- خذني معك . .

قال :

- ليس هذا في صالح العملية . . إني سألتقي هناك بشخصيات عربية

والعرب لا يصحبون زوجاتهم . . العمليات معهم تتم في النوادي الليلية والكباريات

كما تعلمين .

وكنت أعلم ، ولكني أعلم أيضاً أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء

الشخصيات العربية ولكن الارتقاء في حياته الخاصة ، وقد أصر على السفر وحده .

وقلت له إني سأعود إلى القاهرة غداً أو بعد غد . .

وسافر زوجي . .

وكنت وحيدة في غرفتي بالفندق ، ووجدت نفسي أبحث عن البطاقة

التي تحمل اسم ألبرتو ، وكنت أحتفظ بها كنوع من التحدي لنفسي . . نوع

من إقناع نفسي بأنني لا أهرب ولكنني أقاوم . . وقلبت البطاقة في يدي وابتسمت

ابتسامة ساخرة . . أسخر من نفسي . .

وطلبت روما بالتليفون ، وردَّ على صوت نسائي ناعم ، وسألت عن ألبرتو ،

وقالت :

- إنه في اسبانيا . . مايوركا . . احتفظي بالخط سأحول لك المكالمة . .

وسمعت صوت ألبرتو . .

وقلت في هدوء :

- ألبرتو قابلني في سان موريتز . . غداً . .

❖ یا أنت . . دعنی لغروری ❖

www.alkottob.com

أنت ..

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور .. والواقع أني لم أنقطع عنك وحدك ولكني انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان ، ربما لأنني فقدت ثقتي بنفسي إلى حد أني لم أعد أستطيع أن أواجه أحداً حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات أو التحدث في التليفون ..

وأنت تعلم كم كنت مغرورة بنفسي خصوصاً عندما أكون خارج لبنان .. كنت أقم من نفسي أستاذة على كل مجتمع أجد نفسي فيه ، وأعطي لنفسي الحق في توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضاري .. وأنا - أستاذة علم التقدم الحضاري - لم أكن أقدر مستوى أى طالب في أى بلد عربى بأكثر من صفر .. وأنت وحدك كنت أمنحك درجتين من عشر درجات ربما لأنني التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أستكمل بعد كل عناصر الغرور .. الجمال .. والذكاء ، والثراء المكتسب بالعمل لاثراء الصدفة الذى تحققه أبار البترول ، ثم قوة الجذب في كل المجتمعات العالمية التى حققت لى نجاحاً لا تحلم به أى فتاة أخرى .. كل هذا خلق لى الشخصية التى كنت أعتز بها .. شخصية الأستاذة .. شخصية العبقريّة .. الشخصية التى كانت تمنحني

الحق في أن أوزع نصائحي على كل من أقابله ، وأتصور كل يد تمتد إلى كأنها تستغيث بي لأنقاذها أو لأسد حاجتها ..

وقد ضاع كل شيء ..

ضاع غروري ..

أصبحت كلما التقيت بأحد يخجل إلى أنه ينظر إلى نظرة إشفاق لا نظرة الإعجاب التي تعودتها .. وكلما مددت يدي لمجرد المصافحة أحس بأنه يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه .. فإذا تحدثت كان حديثه كله دروساً ونصائح كأنه هو الذي أصبح أستاذاً وأنا التلميذة الفاشلة الغبية التي لا تساوي أكثر من صفر ..

وقاومت ..

قاومت نفسي حتى أظل محتفظة بشخصيتي المغرورة ..

ولكن ..

لا لأمل .. لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلا أن أنزل بها .. انعزلت عن كل الناس الغرباء وقد أصبح كل من ليس لبنانياً غريباً عني لا يعيش إحساسى ولا يتكلم لغتي ولا يفهمنى .. حتى أنت .. وكانت خطاباتك تصلنى فأقذف بها بعيداً وأنا أحاول أن أفتع نفسي بأنى أتعالي عليك . وعندما نتحدث في التليفون أنكر نفسي عنك كأنى أرفضك ، لعل بهذا التعالي والرفض أستطيع أن أحس بأنى مازلت محتفظة بشخصيتي المغرورة ، وإن كان الواقع هو أنى كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأنى أعلم أنها لا تحمل إلا مجموعة من النصائح التافهة والاقتراحات الفارغة التي تشيع بها إحساسك بأستاذيتك وترضى بها شهوة الشماتة ..

الشماتة ..

إنى أعيش فى إحساس بأن العالم كله شامت فىنا .. كل فرد من بنى البشر يتلذذ بما يحدث لنا .. يتلذذ بدمائنا التي تغرق الشوارع ، وكياننا الذي ينهدم ، وصراخنا الذي يشق قلوبنا .. وقد يذرف العالم دموعاً شفقة علينا ، ويلف كرافت أسود حداداً على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكرافت فرحة فى القلب .. فرحة الشماتة .. فرحة سوداء .. وربما كانت شماتة الإنتقام من سنوات الغرور الذى عشنا نصبه على العالم .. شماتة التخلص من السيطرة اللبنانية التي لم تكن تعتمد على شيء إلا على الذكاء الغرورى . شماتة إنتصار الشيء على اللاشيء .. وقد كنا لا شيء ، ورغم ذلك كنا نسيطر على كل العالم العربى إلى أن انتصر علينا شيء .. شيء مجهول .. وربما لأنه مجهول فقد انتصر .. فالمجهول هو الله ..

ولعل الشماتة التي أحسست بها يوماً كأنها سكين تذبحنى هي شماتة هذه المرأة التي تدعى ايفيت .. أنت تعرفها بل أنت الذى قدمتها إلى دون أن تدري .. فابقيت مصرية مسيحية يسرى فى عروقها دم أجنبى لا أدرى أهو دم أرنى أم جربىكى أم فرنسى ، المهم أنها قدمت إلى نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية .. وأنت الذى عودتني على أن أحس بمسئوليتي عن كل فتاة مصرية تصادفتي .. أحبها لمجرد أنها مصرية ، وأعطيتها لمجرد أنها مصرية .. ربما لأنك يوماً ما كنت مسئولاً عني .. مسئولاً عن تكوين عقليتي وفكرى .. كان عقلك المصرى هو الذى هذب عقلى اللبناني .. ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل فى كل ما هو مصرى .. وكانت « ايفيت » تبدو مسكينة ، غلبانة ، رغم أنها جميلة .. وعرفت أنها من عائلة كانت غنية فى مصر وكان أبوها يمتلك مصنعاً للرخام ، ثم فرضت عليه الحراسة ،

وضاعت كل أمواله، ورغم ذلك بقي في مصر وبقيت «إيفيت» معه، تحاول أن تعطي حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وأولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاولت أن تكتسب صداقتي عندما جاءت إلى بيروت بصحبة بعض صديقاتي المصريات . . .  
\* ولا تدري ماذا فعلت لإيفيت . . . إني منذ اليوم الأول أقمت من نفسي أستاذة عليها يحكم غرورى بنفسى، وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية . . . وحتى تشرفني في هذه المجتمعات كنت أشتري لها الفساتين، وأعطيتها من عندي الجوارب وأدوات المكياج . وأرسلها إلى حلاق الخاص ليساوى شعرها ويرسل لي بفاتورة الحساب . . . وكانت هي تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أن تحفظ لي بغرورى . . . وضعت نفسها كسكرتيرة لي . . . دائماً تتأخر عني بخطوة إلى الوراء ونحن ندخل أى مجتمع . . . وقد تدهش لإحساسى بقيمة هذه المظاهر رغم أنى فتاة مازلت في الثانية والعشرين من عمري ولا يهمنى أن أتظاهر بسكرتيرة أو بدلدولة تسير خلفي . . . ولكن هكذا أنا . . . أو ربما هكذا لبنان . . .  
الغرور الحضارى . . . أو ربما كانت هذه هي عقدة اللاشيء . . . فإن اللاشيء يظهر بأنه شيء . . . ونحن لا شيء . . .

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحاً في مجتمع بيروت . . . ولأنها مسيحية فقد تحافظها الشبان المسلمون . . . فهذه هي أيضاً عقدةنا في لبنان . . . الشاب المسلم يمه أن يستولى على فتاة مسيحية، والشاب المسيحي يمه أن يستولى على فتاة مسلمة . . . مجرد شهوة طائفية . . .

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لي كل يوم تقريراً عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أى شاب . . . كأنها تستأذني، أو كأنها تقنعني بأنها لا يمكنها أبداً أن تستغني عني . . . وكانت دائماً تأخذ بنصائحي . . . كنت أطلب منها أن تتعدى

دعوة، فتعتذر، أو أنصحها بأن تقاطع شاباً من الشبان فتقاطعته . . . وكان كل ذلك يجري في إطار من الصداقة الحلوة وإن كان فيه ما يرضى غرورى وبه أيضاً ما يدفعني إلى الاستمرار في تحمل مسئوليتها . . .

إلى أن تعرفت إيفيت بشاب من أثرياء الصدقة - أقصد أثرياء البترول - واستمرت في هذه الصداقة مع موافقتي إلى أن عرض عليها أن يأخذها معه إلى شواطئ الريفييرا ونصحها أن تقبل بعد أن قضيت ليالى أشرح لها كيف يمكن أن تحفظ به . . . إنها لن تحفظ به إلا إذا احتفظت بشيء لم يأخذها منها . . . أنا أعرف هذا . . . أنا أستاذة التقدم الحضارى . . . أنا المغرورة . . .

وسافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لي . . . إلى أن بدأت الأحداث في لبنان . . . حدث كل هذا الذي حدث . . . وبدأت نوبة الضياع وفقدان الثقة في نفسى تزحف على صدري، وفكرت أن أسافر إلى أثينا في اليونان لأرتاح . . . وكنت أعلم أن إيفيت هناك . . . لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأني تعودت أن أرتاح هناك . . . أى أنى لم أكن في حاجة إلى إيفت . . . لا يمكن أن أحتاج إليها أبداً . . . ولكن لأنها هناك فقد شرقتها بأن أرسلت لها برفيقة بموعده وصولي . . . ووصلت أثينا، ولم أجد إيفيت في الانتظارى، ولكنني وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمى ويطوف بها بين الناس . . . إن إيفيت لم تأت لاستقبالي ولكنها أرسلت لي سيارتها . . . ما شاء الله . . . والله عال يا ست إيفيت . . . ورغم ذلك كتبت السيارة وأنا أقول للسائق في لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غرورى :

- أو تيل هيلتون . . .

وقال السائق في برود :

- السيدة تنتظرك في البيت . . .

الأسلوب الذي تعودت أن أحادثها به في بيروت :

- المهم .. كيف حالك مع صديقك .. احكى لي بالتفصيل ..  
وقالت وهي لا تزال واقفة أمامي كأنها أستاذتي :

- ليس هذا مهماً .. المهم هو أنت .. إننا سنقيم في أثينا مدة طويلة .. و ..  
وقاطعنا في حدة :

- لن أقيم هنا إلا بضعة أيام ..  
قالت في دهشة :

- ثم إلى أين ؟  
قلت :

- العودة إلى بيروت طبعاً ..  
قالت كأنها تصرخ :

- هل أنت مجنونة .. بيروت انتهت .. صديقي .. دبري أمرك من  
اليوم واتركي لبنان ..  
فقلت وأنا أنتفض أمامها :

- أنت المجنونة .. لم ينته شيء .. وأنا لست هنا كهاجرة .. ماذا  
تتصورين .. هل أصبحنا كالفلسطينيين كبت علينا الهجرة من بلادنا ..  
إن فلسطين أخذها اليهود أما لبنان فلا تزال لنا حتى لو عشنا فيها يقتل بعضنا  
بعضاً .. واسمعي .. كوني معي كما تعودت أن تكوني .. لا شيء تغير ..  
ونظرت إلي وبين شفيتها ابتسامة ساخرة تنفض شماتها :

- أعتقد أن كل شيء تغير ..  
وخطوت نحو الباب كأنني أجرى منها قائلة :

يا سلام سلم .. جناب السيدة إيفيت تنتظري في بيتها .. ولا أدري لماذا  
سكت وقبلت .. ربما تغلبت على عقلية الدبلوماسية اللبنانية .. عقلية إدارة  
الأعمال .. أن تأخذ كل زبون وفقاً لشخصيته ..  
واستقبلني إيفيت وفي عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة ..  
خيل لي إنها نفس النظرة التي استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهي  
مسكينة فقيرة مشردة ..  
وقبلتني إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة واقدة على سرير في المستشفى ..  
أو ربما كانت قبله أشبه بالبقيش تحسن به على فتاة شحاذة .. وقالت وهي  
تبسم لي ابتسامة ضعيفة خيل لي أنها محاولة فاشلة للمدحاة شباتها في :

- كنت أنتظرك من مدة .. وقد خصصت لك غرفة في البيت .. قد لا  
تكون على قدر غرفتك في بيروت ولكنها على الأقل غرفة في بيت ..  
قلت وأنا أنظر إليها في دهشة :

- لقد حجزت في الهيلتون ..  
قالت كأنها أصبحت مشولة عني :

- لماذا الهيلتون .. كوني واقعية .. وأقیمی معي هنا .. وقد دبرت لك  
كل شيء ..  
قلت وقد بدأت أواجهها في سخط وتحد :

- أفضل الهيلتون ..  
قالت وهي تنظر إلي في تعجب :

- لا تكوني عنيدة ..  
وابتسمت كأنني أخفف عن نفسي ألم الجرح وقلت محاولة أن أحادثها بنفس

- سأذهب إلى الفندق .. اتصل بي هناك ..

قالت وهي تجرى ورائي :

- انتظري ..

ومدت إلي يدها بكمية من النقود اليونانية ، وهي تقول :

- كنت قد دبرت كل شيء على أن تقيمى معي .. بل إنى اشترت لك ثوبين وحذاءين وأنا أعرف مقاسك .. ولكن ما دمت عنيذة وتريدين الإقامة في فندق فقد تكوينين محتاجة ..

وأمسكت النقود بين أصابعى كأني أنتحس مجموعة من الديدان السامة ، ثم ألقيت بها في وجهها بعنف وأنا أصرخ :

- قلت لك أن لا شيء تغير ..

ونزلت أجرى على السلم وأنا أغل بالثورة في داخلي ..

إن الناس تظن أننا وصلنا إلى حد الإفلاس .. إنهم لا يعلمون أن سر ثراء بيروت أنها لا تحتفظ بأموالها في داخلها .. إن ما في بيروت هي أموال العرب أو أموال الأجانب وكل أموال اللبنانيين خارج بيروت .. لا يحتفظ لبناني في بيروت إلا ما يكفي حياته اليومية .. ولكن ثروته .. كثره .. دائماً خارج بيروت .. ولذلك ، رغم كل هذا الدمار ، فنحن أقوياء .. أغنياء .. أقوى من شياة الناس فينا ..

واعترضت لإيفيت عندما حاولت أن تلقاني في المساء .. قلت إنى متعبة ..

وفي اليوم التالي سافرت إلى جزيرة كورفو .. قضيت أياماً .. وحيدة .. أمتص

حبرتي وعذابي .. ثم عدت إلى بيروت ..

العودة دائماً إليها .. إلى بيروت ..

يا أنت ..

إنى لا أكب لك لأنى في انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك ، ولكن لأنى فقط تعودت أن أرتاح وأنا أكتب لك ، وأحس وأنا أطلعك على أسرارى كأني التى يسا في بشر لا قرار لها .. ولكن .. هل يمكن أن يكون في لبنان كله ما يسمى سرراً .. لا أظن .. إن المجتمع اللبناني عندما قرر التعامل مع الواقع مهما كان مضمون هذا الواقع ، أراح نفسه من نقل الأسرار .. ولكن الأسرار لها طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائماً أن يكون لى سر .. ولأنى لا أجد لى سرّاً في لبنان فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نفسى بأنى أبوح بسر لرجل غريب يعيش بعيداً عنى ..

وحكايتي مع طوفى منذ بدأت لم تكن سرّاً في لبنان حتى لو تظاهرت أمامك بأنها سر خطير - أطلعك عليه ..

أنا مسلمة .. وهو مسيحي .. ماروني ..

وعائلتي تقيم كما تعلم - أو كانت تقيم - في حى الأشرافية .. حى الأغلبية المسيحية .. ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم في شارعنا والباقي عائلات مسيحية معظمها مارون .. ولم يكن لذلك أى أثر في مجتمع حى الأشرافية .. أو على الأقل بين العائلات الكثيرة العنية في الأشرافية .. كانت أعز صديقاتى هي عابدة وهي مسيحية من الروم الأرثوذكس ونسرين وهي مارونية وفاتيما وهي بروتستانت .. و .. كنا دائماً معاً وسهرات البيوت تجمعنا كلنا .. نرقص معاً .. ونضحك معاً .. وقد تتنافس مسلمة ومسيحية على رجل واحد ..

ولم أعرف طوفى وأنا صغيرة ، ولم يكن من أبناء الجيران ، ولكنى إلتقيت به منذ عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحى .. وفى خلال

لنشر الدعوة .. نشر الإسلام .. من يريد مسلمة فليسلم .. والإسلام في لبنان لم يعد في حاجة إلى دعوة ، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبناني مسلمة ، والمسيحيون يدخلون في الإسلام أفواجا على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات .. ثم إنى أستطيع تقرباً إلى الله وتكفيراً عن أنايتي أن أجعل من أولادى وأولاد طوئي مسلمين .. أفراداً في طائفة الإسلام .. إنى واثقة أنى أستطيع ..

ولم يكن كل ذلك يعنى أننا سنتزوج اليوم أو غدا .. فطوئي لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلا أنه لا يزال في حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله .. ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين .. ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بينى وبين طوئي .. إلى أن بدأت الأحداث ..

وقد بدأت وكان لا شئ يمكن أن يحدث .. مجرد تعبير عن الرأى بطلقات الرصاص .. وفي كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سينتهى غداً .. إن من طبيعة الشعب اللبناني التفاؤل ، وكان التفاؤل كل طائفة يجعلها تصور أنها ستنتصر غداً .. ولكن لا شئ ينتهى .. وشوارع الأشرفية تزدحم بالشبان المسلمين ، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكنى عندما كنت ألهمهم في الطريق كان يخجل إلى أنهم غرباء .. رجال آخرون غير رجال لبنان .. هذه النظرة التى يتطلعون بها إلى لم أصادفها أبداً من قبل .. وهذه الشفاه المقلوبة التى تكاد تطلق بصفة على وجهى لا يمكن أن تكون شفاهاً لبنانية .. وبدأ إحساس جديد يسيطر على كلما خرجت إلى

أسابيع أحس كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد .. ولم تمض شهور إلا وكنت قد قررت أنى لن أتزوج إلا طوئي .. كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلا الزواج .. وليس هذا جرماً في المجتمع اللبناني .. مسلمة تتزوج مسيحياً .. حتى لو تزوجت السنة بالمرون .. وابنة زعيم لبنانى مسلم متزوجة من مسيحي سويسرى .. وابنة زعيم إسلامى آخر متزوجة من مسيحي فرنسى .. وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية .. وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحية معروفة ، وصديق آخر مسيحي ماروني تزوج من مسلمة ، وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبناني بحبها المسيحي وأصبح يستقبلها على أنها مخطيئة رغم أنها لم يعلننا خطبتهما ولا قررا الزواج .. ليس غريباً في المجتمع اللبناني أن يتزوج المسلمون والمسيحيون .. ولم يكن غريباً أن أقرر الزواج من طوئي .. ولكن التقاليد في لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج .. ثم يتركان للثنتين حرية التصرف .. فإذا أعلن المسيحي إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلاً صاحبياً كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحي وضمه إلى حظيرة الإسلام .. أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتيهما فإتهما يسافران إلى قبرص ويتزوجان هناك زواجاً مدنياً ، ويعودان زوجين لا يلبث المجتمع كله بما فيه عائلتاها أن يعترف بزواجهما ..

وكان فكرى يتجه إلى أن أتزوج طوئي زواجاً مدنياً لا لأنه رفض اعتنا الإسلام حتى يتزوجنى ، ولا لأنى رفضت اعتناق المسيحية لأتزوجه .. لا كان تفكيرى قائماً على اقتناع .. قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام - في اقتناعى - حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كـ



الشارع .. إحساس الخوف .. إننا لم نتعود الخوف في بيروت ..  
والأحداث تزداد بشاعة .. القتل يسقطون في حيننا .. حتى الأشرفية ..  
ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أنصوّر أنها معركة بين المسيحيين  
والمسلمين .. إني مازلت أتزاور وأتحدث في التليفون طول النهار واللليل مع  
صديقاتي المسيحيات .. وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلاً نبكي عليه كلنا  
وعندما يسقط مسيحي فربما يشتد البكاء أكثر لمجرد أنه يمثل أغلبية الحي ..  
ثم طوفى .. إنه لا يزال حبيبي وسيبقى حبيبي .. بل إن أمي بدأت تتعلق به  
وتكف عن رفضها له ، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحي ..  
مسيحي في بيتنا فلا يمكن أن يعتدى علينا المسيحيون .. ولكننا لم نكن نستطيع  
أن نستمر في خداع أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع جيراننا المسيحيين ..  
والمارون بالذات .. وصمم والدى على أن تترك الأشرفية .. أن نهاجر إلى حي  
آخر نحمى فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين .. وربما كان ما يدفع والدى  
أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخى ياسر .. إن أبى نفسه هادئ عاقل  
يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث .. وأنا وأختى وأمى لا خوف علينا ..  
لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء .. ولكن أخى ياسر ، رغم عدم اتئانه إلى  
أى تنظيم من التنظيمات المتقاتلة إلا أنه شاب .. وهو جرى .. يهوى أن يعرف ويعرب  
كل شيء بنفسه .. ومن يدري .. لعله في خطوة يضع ..  
واستسلمت للهجرة بعيداً عن الأشرفية وبعيداً عن حبيبي طوفى من أجل  
أخى ياسر ..  
وكانت هذه هي الأيام التي سافرت فيها إلى اليونان لأستريح كما رويت لك ..  
وقد عدت بعد أسبوعين .. ولم أصدق أذنى بما سمعته .. لا يمكن أن يحدث

كل هذا .. ويحدث في لبنان .. إنهم لا يكتفون بالقتل .. إنهم يشوهون  
قتلاهم .. يمزقونهم قطعاً .. وهم يعتدون على البيوت .. يسرقون ويدمرون ..  
كلهم .. كلهم .. ليسوا مسيحيين ولا مسلمين .. كلهم .. كلهم  
وصدقتي أن الإحساس الذي كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين ..  
ولا حتى سنة ولا شيعة ولا دروزا ، ولا مارون ، ولا روم أرثوذكس ، ولا كاثوليك ،  
ولا بروتستانت .. ولا .. ولا .. إنهم ناس غرباء لا نعرفهم .. جيوش جاءت  
من الخارج واحتلوا مناطق محددة بتحاربون فيها ، بدليل أن خارج هذه المناطق  
كل شيء هادئ .. إن أبى يمارس عمله .. وأخى يطير من بيروت إلى الكويت  
ليباشر عملياته هناك ثم يعود في اليوم التالي .. وأمى لا تزال مهتمة بالشحط  
في أم نعيمه حتى يجيد تقديم اللبنه والكبه .. وأختى تنتق ثوبها الذي سترور به  
صديقتها .. أنا وحدى التي ستجن .. لقد اعتدى الغرباء على بيتنا في الأشرفية  
وكنا قد تركنا فيه أئمن ما يملكه بيت .. تركنا الكثير لأننا كنا ننصوّر أننا لن  
نغيب إلا أياماً .. السجاجيد العجمي ، وقطع الأوبالين ، وقطع من مجوهراتنا ،  
وكل قطع ذكريات صباي وشبابي بما فيها السللة المرصعة بالفيروز التي كانت  
أول ما أهداه لي طوفى .. وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء .. استسلموا  
لفقدان بيتنا .. أبى يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته .. وأخى يبصق  
على الأرض ويؤكد أنه سيشتري لنا أكثر مما ضاع منا ، وأمى بكت أياماً ثم  
استطاعت أن تتناسى .. أنا وحدى المجنونة .. أعيش كأنه لن يكون  
لنا أبداً بيت يعد بيت الأشرفية .. إن طوفى يستطيع أن يعيد لي بيتي .. إنه  
هناك في الأشرفية .. ويستطيع أن يعيد لي البيت ..  
ومنذ وصلت وأنا أبحث عن طوفى ولا أستطيع أن أجده ..

لم يعد أمامي إلا أن أذهب بنفسى إلى الأشرقية .. إلى بيتنا .. إنهم يعرفوننى هناك ولن يعتدوا على .. ثم إنى فتاة .. من يعتدى على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرياء الذين يتقاتلون .. ولم أقل إلا لأمى ..

وصرخت أمى .. يا مجنونة .. إنهم سيقتلونك .. ولكنى مصممة ..

سأذهب إلى الأشرقية .. إلى بيتنا .. إن طوفى هناك وسأكون فى حمايته .. وخوفاً من أن تلجأ أمى إلى أبى ليحول بينى وبين الأشرقية ، جريت من أمامها إلى الشارع ، وإذا بها تجرى ورائى وتلتحق بى ، ثم تمسك ييدى وتسير بجانبى وتقول وهى تقاوم دموعها :

- سأذهب معك .. ربنا يستر ..

وركبنا سيارة أجرة .. وأمى لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التى تحفظها .. ووقفت السيارة عند منطقة رفض السائق أن يتعدها .. ونزلنا إلى الشارع . وأمى قد توقفت عن ترديد القرآن ، ولعلت عينها لمعاناً غريباً كأنها مقبلة على معركة تتحدى بها القدر . وبدأت تخطو بجانبى كأنها أقوى منى .. متصوبة القامة تدق بقدميها على الأرض ..

إننا نتجاز عرض الشارع الذى يفصل بين المنطقتين المتقاتلتين .. اجتزنا أكثر من نصف الشارع ..

وفجأة ..

انطلقت رصاصة ..

ونظرت حولى فى دهشة كأنى أتعجب ثم صرخت .. إنها أمى .. تترنح ..

وتسقط .. وسقطت فوقها .. ماتت .. قتلوا أمى .. وفوق رأسى رجلان .. لا أستطيع أن أميز وجههما .. ربما كانا من أبناء الأشرقية ، ولكن فى هذه اللحظة كنت أراهما من خلال عمامة كثيفة تعميئى .. وسمعت صوت أحدهما يسألنى ساخراً :

- هل هى أمك ؟

وتركت جسد أمى ووقفت أمامهما صامتة .. نائمة .. وكل خلجة منى قد تثلت .. وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك :

- خساره .. كان المفروض أن تكوفى أنت ..

وقال الرجل الثانى :

- اتركها .. سنأخذها معنا ..

وقال الأول :

- انتظر حتى نعطيها ذكرى أمها ..

وانحنى على جثمان أمى ، وأخرج سكيناً قطع به أذناً من أذنها . ثم اعتدل ووضع أذن أمى فى يدي وهو يصيح مقهقها :

- هدية من أمك .. حتى لا تنسى ..

وأطبقت يدي على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسرى بين أصابعى . دم أمى .. وفجأة ظهر رجل ثالث يجرى نحونا وهو يصيح ..

مستحيل ..

إن العمامة تتزاح من أمام عيني وأستطيع أن أراه ..

إنه طوفى .. حبيبي طوفى ..

وفوق كتفه سلاح ..

إنه واحد منهم ..

وصرخ :

- سميرة ..

ولف ذراعه حول كفتي وأخذ يصرخ في وجه الرجلين .. كلاماً لا يهمني أن  
أسمعه أو أفهمه ..

ثم صرخت .. وصرخت .. وصرخت .. وجذبت نفسي من تحت ذراع  
طوني وجريت عائدة إلى الناحية التي جثت منها .. وطوني يجري ورائي وهو يصرخ :

- سميرة .. يا مجنونة .. انتظري .. سأقول لك .. و ..

ولحق بي .. أحسست بيده وقد أمسكت بكفتي ..

وفجأة أيضاً ..

انطلقت رصاصة ..

وسقط طوني .. وسقطت بجانبه .. توقفت أنفاسه .. لقد قتل .. كأني ..

ولكني لا أحس شيئاً .. لم يعد في ما أحس به .. راقدة بجانب جثة حبيبي الذي

قتل أمي .. والطلقات تشتد بين ناحيتي الطريق وكلها تمر فوق رأسي .. كم

مضى .. ساعة .. ساعتان .. لا أدري .. وتوقف إطلاق النار .. ورأيت

رجلاً يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طوني .. وإنسان آخر اقرب وحملني

إلى نهاية الشارع .. ثم وضعني بين زملائه .. إنهم يسألونني ويطمئنون إلى أنني

منهم .. وعندما تعجبوا لأنني جازقت بعبور هذا الشارع بصحبة أمي ، قلت :

- كنا عائدين إلى بيتنا في الأشرقية ..

ونظروا إلى كأنهم يشفقون على مجنونة .. وبلغ أحدهم أذن أمي التي كنت

لا أزال مطبقة عليها بأصابعي وصرخ :

- الكلاب ..

ثم انحني فوق جثة طوني وقطع إحدى أذنيه وألقاها بعيداً ثم أخذ يمزق في بقية

جسده ..

وانحنيت والتقطت أذن طوني ..

وضعتها مع أذن أمي في يد واحدة ..

\* \* \*

يا أنت ..

لا تحاول أن تكتب لي كأنك تعتقد أنني أسألك رأبك .. رأبك لا يساوي

شيئاً .. أنا لبنانية وكل لبناني ليس في حاجة إلى رأى أحد .. وقد كتبت

لك لمجرد أن أستريح ثم ألتقي بما أكتبه في سلة المهملات .. آسفة .. لا أقصد

أنك سلة مهملاتي ..

وعلى كل حال فلن أعطيك عنواني لئلا تكتب لي فقد تركت بيروت ..

أبي صمم على أن يقذف بي بعيداً عن بيروت .. واني أعيش هنا كما تعودت

أن أعيش .. مغرورة .. أستاذة علم التقدم الحضاري .. وفوق صدرى

أعلق رقاباً صغيراً من الذهب المرصع بالماس ، وفي داخله أحفظ بأذن أمي

وأذن طوني .. إن القالب صنعه لي الجواهري الفرنسي المعروف كارتيه .. إنه

تحفة فنية تثير حسد كل البنات .. ولا تدرى كم كلفني .. لا يهم .. إننا

دائماً نستطيع أن ندفع .. لم يتغير شيء .. وعندما أعود إلى بيروت سأدعوك

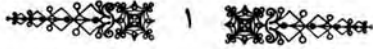
لتلمس بنفسك أنه لم يتغير شيء ..

وسأعود ..

ولن أنسى

❁ العذراء والشعر الأبيض ❁

www.alkottob.com



إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه :

- أنت لست أبي .. كن صريحاً مع نفسك وخذني كما أنا .. وأنا لست

.. لك

إنها صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يرفه إلى مصيره كل ليلة قبل

أن ينام ..

قبل أن ينام معها ..

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويتسم

ابتنامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة .. تحمل السعادة بنفسه والخجل

من نفسه ، والسخط على نفسه ..

وتعود الصرخة تدوى في خياله :

- أنت لست أبي ..

وقد حاول كثيراً أن يقنع نفسه وأن يحس بأنه أبوها .. إنها تحمل اسمه ..

بشينة محمد عبد الله .. وهو الذي أعطاها هذا الاسم .. هو محمد عبد الله ..

إذن فهي ابنته .. وقد قضى من عمره أكثر من ثمانية عشر عاماً وهو يحاول أن

يقنع نفسه وأن يحصر إحساسه بأنها ابنته ..

كثيراً ولا يدقق في الحساب . . ولكنه رفض . . إنه يرفض التنازل عن اعترازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة التي يملكها . . ولكن دولت تلح وهي في حاجة إلى هذه الغرفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه فيها دون أن يكشف سرها أحد . فالعمارة كبيرة في منطقة تجارية ومن يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها في طريقها لأن تشتري بعض المشتريات أو في طريقها إلى الدكتور أو الخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة ، أما الغرفة التي يقم فيها في الجزيرة فهي قضية ، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلا ويصب عليها نظرات اللعنة ، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكتوا نظير الهدايا التي تحملها إليهم كل مرة ، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها ابنة عمه إلا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنهم يسلحون عنها ثوبها ليروا من تحته ما يراه محمد . . وقد اقتنع محمد بهذا المنطق ورضى أن ينتقل إلى الغرفة الجديدة على أن يظل يدفع الثانية الجنيهات التي تعود أن يدفعها وتدفع هي الباقى . .

وضحكت دولت قائلة . .  
 - لا . . النصف بالنصف . . كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفاً . .  
 ولكنها كانت تدفع كثيراً واستسلمت بلذة وغرور إلى ما تدفعه . . نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له ، والساعة التي يتباهى بها أمام أصدقائه ، والقلم الذي يكتب به ، بل إنها تحملت مسؤولية حياته الخاصة كأنها أصبحت زوجته ، رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هي نفسها يمكن أن تفكر في أن تزوجه . . فهي زوجة رجل محترم ناجح يوفر لها اجتماعاً ومادياً كل ما تحلم به أى امرأة . وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذي لا يشمل كل شيء ولكنه يغطي جانباً من النقص

ولكن . .  
 واتسعت ابسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقلب إلى قهقهة مرة ، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله . . الفيلم الذي يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله ، دون أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له . .  
 كان لا يزال في بداية شبابه . . في السادسة والعشرين من عمره . . وكان قد انقضى على زواجه من ( دولت ) أربع سنوات . . إن دولت تكبره سنًا بثلاث سنوات وقد أحياها وهي زوجة رجل آخر ، وربما كان أقوى ما في هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها . . النشوة التي ترضى غرور كل رجل يصل إلى زوجة رجل آخر . . ولكن دولت لم تتركه طويلاً يتمتع بهذه النشوة . فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعي أن يتزوجها . وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من جبه لدولت . . جانب الأعتاد عليها ، فمنذ أن التقى بها وهو يعتمد عليها ، وهي من الشخصيات التي تعبر عن الحب بالعباءة . . كانت تعطيه كثيراً . . وهو لم يكن قد بدأ في بناء نفسه بعد ، كان قد تخرج في نفس العام من كلية التجارة ، وكان يقم وهو طالب في غرفة من بنسبون في أطراف الجزيرة ، وكان يعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة في طنطا . . ليس غنياً ولكنه أيضاً ليس محتاجاً في حدود المستوى المتواضع الذي يعيش فيه . . ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من غرفته في الجزيرة إلى غرفة في بنسبون بشارع متفرع من شارع قصر النيل . . وقد حاول أن يرفض . . إن إيجارها خمسة عشر جنيهاً لا يستطيع أن يدفعها . . وحاولت دولت أن تقنعه بأنها ستتحمل عنه دفع الإيجار . . إنها غنية ورثت عن أبيها ، وزوجها يعطيها

الذى يشعر به كل من الطرفين .. شئ ينقصها يعطيه لها ، وشئ ينقصه تعطيه له ..  
إلى أن فوجئ بأنها طلقت .. ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أو حديث عنه  
بينهما .. مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصاً وأنه لم يكن قد مضى على  
زواجها أكثر من أربعة أعوام ، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقاؤهما ،  
وخصوصاً أنه تأكد من أنها هي التي طالبت بالطلاق .. وكل ما قاله له أن  
أبلغته بطلاقها :

- إنى لا أستطيع أن أعيش لرجلين ..

وكان من الطبيعي أن يفكر في مصيره معها .. هل يتزوجها ؟ وقبل أن  
يقرر كانت هي قد بدأت تشير بأسلوبها المادئ الناعم إلى الزواج .. هل  
كانت تنتظر أن يتخرج في الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج ..  
لا يدرى .. بل لا يدرى ماذا نجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه  
ما يغريها بحبه ، فهو لا يستطيع أن يقرها الحياة التي كان يقرها لها زوجها  
الأول .. لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية .. إنها تزوجه وهي تعلم أنها  
ستعطيه أكثر مما تأخذ .. لا يهم .. هذا ما تريده ..

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام ، وتركها هي تتحمل مهمة  
اتخاذ كل الإجراءات .. هي التي قدمته لأهلها ، وهي التي اختارت بينهما ،  
وهي التي قامت بتأنيته وهي التي اختارت المأذون وهي التي تولت دعوة أقاربها  
واكتفى هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته .. كل هذا لم يأخذ شيئاً من فكره ،  
فقد كان قد بدأ يفكر في بناء نفسه .. في أن يعمل .. وكان يكره أن يكون  
موظفاً في الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات  
وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البلع .. وحتى بعد أن أصبحا

زوجين فعلاً لم يحس أن هناك شيئاً جديداً يجمعهما ، فهي ليست غريبة  
عنه ، وليس فيها شئ جديد ، وما تقدمه له بعد الزواج هو نفسه ما كانت  
تقدمه له قبل الزواج .. الاهتمام بكل شئ ومسئولية كل شئ ، كل ما أضافته  
هو أنها بدأت تفتح أمامه أبواباً اجتماعية جديدة كان في حاجة إليها وساعدته  
كثيراً في بناء نفسه ..

ومنذ الليل الأولى من الزواج أحس بأن هناك شيئاً تريده وتسعى إليه  
دون أن يبدو ما هو ، إلى أن انقضى أكثر من شهر عندما قالت له يوماً :  
- كل ما ينقصنا اليوم يا محمد هو أن نخلف .. أن أكون أمًا وأن تكون أباً ..  
نفسى في بنت يا محمد ..

ولم يهتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أباً ، بل يكره أن  
يكون أباً لبنت أو ولد .. إنه لا يزال في مقتبل شبابه .. كل ما يريده هو نفسه ..  
ومرت الشهور .. وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيراً على الأطباء وتتبع  
إجراءات غريبة عليه في علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء  
لتحمل وتلد ، ثم فاجأته يوماً بأن طالبت بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر  
بأنه يستطيع أن ينجب ، وصرخ في وجهها .

- لا يهينى إذا كنت أستطيع أولاً أستطيع إننى لم أتزوج لأكون أباً ..  
تزوجت لأكون معك أنت تكفينى وتغنينى عن دوشة العيال .. دوشتك تكفينى ..  
ولكنها تلح عليه أن يذهب إلى طبيب ، وإلحاحها يدفعه إلى التساؤل ..  
هل تزوجه فقط لتنجب منه وهل طلقت زوجها الأول لأنها فقط لم تنجب منه  
رغم أنها عاشت معه أربع سنوات .. ولكنها كانت تستطيع أن تترك نفسها  
للإنجاب قبل الطلاق والزواج ، فقد كانت تعطيه كل شئ ، وكانت تستطيع

أن تنسب خلفتهما إلى زوجها الأول أو تتبع أى أسلوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب . . وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إجراءات منع الحمل ، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود حرام ، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هي . . هي امرأة ناقصة . . امرأة لا تنجب . . امرأة عاقرة . . ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطي عقدها إلا أن تتظاهر بتعاطي وسائل منع الحمل . . أو تهم زوجها الأول بأنه هو الناقص . . ثم تلج على زوجها الثاني بأن يذهب إلى طبيب . .

وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل الإحاحا . .

وكان يمتنى أن يثبت عليه الطبيب أنه عاقر لا ينجب ، فهو فعلا لا يمتنى ولا يحب أن يكون أباً . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله في حاجة إلى مولود آخر . وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتب له أى نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذى في حاجة إلى العلاج ، لعلها تهدأ . .

وقد فرحت دولت فعلاً عندما عاد إليها وفي يده زجاجة دواء . وأصبح هذا الدواء أهم وأغلى ما فى البيت بالنسبة لها ، وتتاوله له فى اهتمام مبالغ فيه كأنها تنقذ به حياته وحياتها . . ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تدارى عقدة فى داخلها . . عقدة المرأة العاقر . . فهى تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب ولكنها لا تريد أن تعترف بنقصها ولا تريد أن تبحث عن حياة تغنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات ، وكانت تتعمد أن تذهب إلى الطبيب سراً دون أن تخبر حتى زوجها ، وقد عرض عليها أحد الأطباء أن يجرى لها عملية جراحية ولكنها رفضت حتى لا تفضح أمرها ، وكانت تغطي كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز

زوجها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة فى خيالها حتى بدأت تفكر فى أن تطلق زوجها فعلاً بحجة عجزه . . وقبل أن تبدأ فى الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد . . إنه زميل لابن عمها فى كلية التجارة وأصبح صديقاً لأخيها ، وقد شعرت منذ رآته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه . وقد كانت تستطيع أن تقام هذه الأحاسيس . . إنه لا يزال فى نضارة شبابه وهو يبدو كأنه رينى لا يزال بخيره وبكل قوته لم تستنزفه بعد حياة المدينة . . من يدرى ربما كانت تستطيع أن تنجب منه . . هذه العقدة هى التى دفعها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه . . ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله . وأعطته كل شيء كانت حريصة على أن تفرض عليه وعلى نفسها إجراءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف حتى أمام نفسها أنها لا تحمل ، أو لأنها لا تريد أن تشعره بعجزها عن الحمل ، أو ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل . . وكانت حريصة ألا تجرب هذا الأمل إلا فى الحلال . .

هذه المشكلة التى تعيشها دولت بكل فكرها وأعصابها وبكل وجودها ، لم يكن محمد يعيشها أبداً رغم أنها كانت تذكرها بها بحرصها على تقديم الدواء المخادع له . . كان كل فكره وإحساسه ونشاطه يتحصر فى بناء عمله . . وقد بدأ ينجح بسرعة وبدأت أرباحه ترتفع إلى أن قارب أن يكون فى مستوى ثراء زوجته ، وكان قد مر عامان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للدخول فى صفقة جديدة ، وفوجئ بأن دولت تصر على أن تسافر معه . . يا حبيبتى إني أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعيتى أتوه هناك وحدى إلى أن أكتشفها لك ثم أسافر معاً فى المرة القادمة . . ولكنها تصر . . لماذا . . هل تغار عليه . . هل تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية . . ولماذا تصر على تهريب كل هذه المبالغ



من الجنبات الإسترلينية .. إنه لم يعرف إلا وهو جالس بجانبها في الطائرة التي حملتهما إلى لندن .. إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسها على طبيب هناك لعلها تحمل ، وتلع عليه أن بعدها هو أيضاً بأن يعرض نفسه على طبيب .. لا بد أن هناك شيئاً جديداً .. علماً جديداً .. دواء جديداً .. شيئاً لم يصل إليه أطباء مصر .. فلنجرّب .. وثار عليها .. لم يخضر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكلف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر في محاولتها ، وأقسم في ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن ندمه لأنه استسلم لها وصحبها معه .. ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذره ..

وفي لندن اكتشف أنها كانت قد حددت موعداً مع الطبيب الإخصائي ، وذهبت إليه وحدها ورتكته يتفرغ لعمله ..

ومرت أيام فاجأته بعدها بأنها قررت أن تقبل إجراء عملية جراحية ينصحها بها الطبيب - ووافقها دون أن يهتم حتى يتقصى تفاصيل العملية كل ما عرفه أنها عملية تتطلب أن تبقى في المستشفى أكثر من أسبوع ، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين .. وبقى معها إلى أن خرجت من غرفة العمليات ثم سافر في نفس اليوم عائداً إلى القاهرة .. ولم تعترض .. كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أباً فأعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمّاً .. إلى هذا الحد كانت تعطيه .. وعادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل .. إن الأطباء أكدوا لها أنها حتى ستكون أمّاً .. وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما في الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل .. إحساس ثقيل .. لم يكن إحساس المتعة التي تعودها معها ، ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية .. إنه مسئول الآن على أن يجعل منها أمّاً .. أن يقوم بعملية حمل .. وأحس فعلاً كأنه على

وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التي أجرتها في لندن .. كأنه طبيب . حتى أن شفتها لم يعد لهما نفس طعم القبلات .. وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان .. إنه مكلف الآن بإجراء عملية جراحية .. يجب أن تكف عن هذه الابتسامه التي كان يحبها حتى تساعده على التحرك كأنه طبيب .. وأن تمنع عينها حتى لا ترعجها رؤية المشرط ..

وقد أثر كل ذلك في إحساسه الطبيعي بالجنس ، وأحس أنه يضغظ على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس .. وقد أفلح في أن يقوم بالعملية وأن يؤدي واجبه ، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبداً أن يعود إلى متعته التي تعودها معها وهما في فراش .. في كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية .. أداء الواجب .. فقط أداء الواجب ..

ومر عام كامل دون أن يتغير شيء في دولت .. لم تحمل .. وبدأت تفكر في أن تعود إلى الأطباء في لندن ولكنه صرخ رافضاً .. احمدى الله على ما كتبه لك .. دعي حيك لي يغنيك عن حرماتك .. كان يقول هذا الكلام وعقله يأخذه إلى مشروع الطلاق .. ربما طالبته بالطلاق كما طالبت زوجها الأول حتى تغطي عقدها أمام نفسها وأمام الناس .. ولكن لماذا لا يطلقها هو .. ولكن لا .. لا يستطيع .. إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته .. إنها سر نجاحه .. وسر كل هذه الحياة الفخمة التي يعيشها .. وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وتعود أيضاً على نقصها وعجزها عن أن تكون أمّاً إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملاً بغيرها ..

والذي حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذى كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت .. لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها

وتفضل الناس ويقول إن الزوج هو السبب . . وبدأت تعاني من ثقل الإحساس بأن مالا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه ، وزاد ثقل هذا الإحساس حتى وصل بها إلى حالة اليأس . . اليأس من أن تستمر في محاولة أن تحمل وتنجب ، وقررت أنه لم يعد أمامها إلا وسيلة واحدة حتى تعرضها وتعرض زوجها عن عجزها وهي أن تتبنى . .

وفكرت طويلاً في مشروع التبنى قبل أن تعرضه على محمد ، وقررت بينها وبين نفسها أن تتبنى بنتاً . . إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد . . وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربيتها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربي الولد . . وبدأت فعلاً تبحث عن الملاجئ ودور رعاية الأحداث التي تعطى حق التبنى . . وفي القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث ، تضم الأطفال الذين يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم في جرائم صغيرة ليس لهم ذنب فيها . . وليس في القاهرة إلا ملجأ واحد في المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال في أيامه الأولى من الحياة . . ولم نجد في دور رعاية الأحداث طفلاً يشد إحساسها ، واقتناعها . . كانت تقف أمام كل طفلة وتردد طويلاً ثم تتعد دون أن تستطيع أن تتخذ قراراً . . ثم ذهبت إلى الملجأ في المطرية وما كادت عيناها تلتقي ببشينة حتى قررت أن تكون ابنتها . . إنها طفلة في الرابعة من عمرها كل ما في وجهها يتسم . . عيناها تبسمان ، ووجنتاها تبسمان ، وشفتاها ، حتى أصابع يديها . . ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة وفيها ذكاء . . ولون بشرتها أقرب إلى البياض كلونها ، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضيغ فيه الأسود مع القرمزي مع الأصفر كلون شعرها . . إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابنتها فعلاً ، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهي طفلة وفي ملجأ لقطاع

فيها كثير من الرقة الأرستقراطية ، ومن يدري ربما أنجبتها في خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعتها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هرباً من الفضيحة . . وسألت في الملجأ أسئلة كثيرة عن بشينة . . أين وجدوها ؟ . . وهل يذكرون اللقافة التي كانت تلتفت بها . . ولم يكن وجدوها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس ، لقد وجدوها قريباً من سور السفارة الأمريكية في جاردن سيتي ، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين ، وكان من تحتها أن الذي عمر عليها رجل محترم استدعى عسكري البوليس وأرشده إلى بشينة وهي لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور ، وحملها العسكري إلى قسم البوليس ، وسلمها البوليس إلى الملجأ . . والحمد لله ، فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد التشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشوها بينهم وهو ما يحدث كثيراً . . ودولت تسمع القصة وتجري بعينها بحثاً عن بشينة وتضمها من بعيد في فرحة . .

وهرعت إلى محمد لتبلغه قرارها . . إنها ستتبنى طفلة ، وقد وجدت لها في الملجأ . . ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة ، ثم قلب شفثيه قرعاً وامتعاضاً ، ووافق . . إنه لا يريد ابنة ولا ابناً ، وكل ما يريد هو أن تهدأ زوجته وتريحه من عقدها . . وذهب محمد معها إلى الملجأ ليتخذ إجراءات التبنى ، ولم يتعمد هناك أن ينظر إلى بشينة وبدأ في توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك تبرع لإحدى الجمعيات الخيرية ، أو كأنه يوقع عقداً في صفقة لا يهمه أن يفسرها ، ولكنه عندما رأى بشينة ابتسم كأنها نقلت إليه ابتسامات تقاطيع وجهها الطفل . . ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها . . وكان يمكن أن يكون التبنى جزئياً أي أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه ،

ولكن دولت أصرت على أن يكون التبنى كاملاً . . أى أن تكون ابنته وتحمل اسمه . . ولم يهتم محمد أيامها . . لم يكن يهتم أن تكون ربيته أو ابنته . . إنها شيء سيوجد في البيت كعلاج لعدوة النقص التي تعاني منها زوجته هي التي اختارت لها اسم بثينة ، إنه الاسم الذي كان يمكن أن تسمى به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم أمها . .  
وانتهى توقيع الأوراق . .  
وأسرع محمد خارجاً ، وترك زوجته تصحب بثينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها . . ولم ير عيني بثينة وهما متعلقتان به تتعمانه في تعلق عجيب . .



إنه يذكر الأيام الأولى التي أصبحت فيها بثينة شيئاً في البيت . . لم يكن يحس بهذا الشيء ، ولم يكن يعتمد أن يعطيها شيئاً من الحنان ولا حتى من الاهتمام ، بل إنه لم يعود نفسه تقبيلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتفي كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة . وكان أحياناً يلحح في لحظات أنها فعلاً طفلة جميلة . . عيناها ، شفاتها ، لون بشرتها ، شعرها . . وأحياناً كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطفولة . . إنه لم يلحظ أبداً تتبعها له كلما كان في البيت . . إنها تسير وراه في كل تحركاته ، ويجلس فيجدها جالسة أمامه ، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة في انتظاره ، لم يكن شيء يبعدها عنه إلا دولت لتأخذها وتؤدي لها ما تتطلبه طفولتها . . ولم يلحظ أيضاً أنها كانت تكرر كثيراً كلمة « بابا » كأنها الكلمة الضائعة التي كانت تبحث عنها . . بابا . . بابا . . وكانت في البداية تنطقها في حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساسها كأنها تزغرد بها . . كأنها الكلمة التي تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها . . لم يكن يلحظ أو يحس بأى شيء تجاه بثينة أو « بوسى » وهو إسم التديل الذي اختارته لها دولت ، كل ما كان يحس به نحوها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجه كباقى التحف التي تملأ البيت ، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شغلت زوجته عنه وأراحته من عقدها . .

وقد كانت العلاقة بينه وبين زوجته دولت تأخذ مع السنين في التباعد ..  
تباعد في إحساسه بها كامرأة .. بدأ يشعر بفارق السن بينهما .. إنها أكبر منه  
بثلاث سنوات .. وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها في الفراش أنه يؤدي واجباً  
مفروضاً عليه .. واجباً أصبح ثقيلاً ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب ..  
وبدا بينهما ما يمكن أن ينتهي إلى ما يسمى الانفصال الجسدي .. ولم تكن  
دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد  
أغتها عما كانت تريده من محمد .. أو ربما كان التحليل النفسي يصل إلى  
حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلا بغريزة وإحساس الأمومة  
التي لم تستطع أن تصل إليها بالإيجاب .. وربما كان هذا هو سر عطائها  
الكثير له .. كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة .. وقد وجدت في بثينة  
ما أشبع فيها غريزة الأمومة فلم تعد في حاجة إلى محمد .. بل إن فرحتها ببثينة  
دفعها بعد عام واحد إلى أن تفكر في تبنى طفل ثان .. ولد .. حتى يكون عندها  
ولد وبنت ، وصرخ محمد في وجهها :

- لا يمكن .. إن بتنا غريبة تحمل اسمي أرحم من أن يحمله ولد ..  
ولد لا أدري كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه .. إن الوراثة  
تشمل الشخصية والأخلاق . فإذا كان أبوه لصاً أو نصاباً أو صلوكاً فيمكن أن  
يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصلعة ، ويفضحني عندما يكبر ويغرب  
بيني .. لا .. لا يمكن ..

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم :

- ليست الوراثة التي تحدد الشخصية والأخلاق .. إنها البيئة .. تقاليد  
البيئة واحتياجات البيئة .. إتهم بقولون أن لا أحد يسرق إلا إذا كان في حاجة

إلى السرقة .. ونحن في بيتنا .. في بيتنا لا يمكن أن نبشأ لص أو صلوك ..  
وعاد يصرخ في وجهها :

- اسمي .. إني لن أعطى اسمي ولن يدخل بيتي طفل آخر .. فاهمة ..  
ويكفيها بوسي ..

ولم تلح عليه كثيراً فقد كانت بثينة تكفيها فعلاً وتقنها عن كل ما كانت  
تشر به من نقص ، بل إنها أيضاً تقنها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدي  
الذي بدأ يدب بينها وبين زوجها ..

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج .. ربما أكثر من نصف العام  
يقضيه في الخارج وهو ما كان يفرضه عليه عمله ومشروعاته الواسعة . وأيضاً لأنه كان  
يجد في الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تعوضه عن إحساسه بالانفصال الجسدي  
بينه وبين زوجته .. مجرد نساء عابرات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها  
تأثير له قيمة في تغيير استمرار حياته مع دولت .. وربما كانت هذه الغيبة  
الطويلة في الخارج هي السبب في أنه لم يعود أو لم يكتسب إحساس الأب  
نحو بثينة .. وهناك فرق بين الأمومة والأبوة ، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكسساب ..  
أي أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه ، أما الأب فإنه في حاجة إلى وقت يمر  
بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة .. وهو في حاجة  
إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة .. وكان يسافر إلى الخارج وينساها ..  
وكان لا شيء يذكرها إلا أن يراها بعينيته .. وكان يعود من الخارج حاملاً هدية  
إلى دولت وينسى أن يحمل شيئاً لبثينة .. وتصرخ دولت في وجهه وتجري لتشتري  
شيئاً أو تخرج من دولابها شيئاً لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها  
من الخارج .. ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسيها ، كانت فرحتها

بعودته تغطي كل شيء ، وتعود تبعه وتلتصق به في كل تحركاته وتفتعل الحجج  
تردد : بابا .. بابا .. بابا ..

وبثينة تكبر ..

ومحمد يكبر ..

وبدا إحساس محمد بثينة يتطور تطوراً عجيبياً .. إنه كلما عاد من الخارج  
والتي بها أحس كأنه يراها لأول مرة . جسدها ينمو في روعة .. عنقها ،  
ثديها ، قوامها ، ردفها ، ساقها .. جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره  
كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسمه هدية له .. ونظرتها تهادى في عينيها .. ويلتقي  
بهاتين العينين فيحس فيها نداء عجيبياً .. إنها تنظر إليه كأنها معجبة به ..  
كأنها تمناه .. أو هكذا يحيل إليه .. ثم أنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيراً ..  
وأصبحت ملاحظتها له داخل البيت ملاحظة عاقلة كأنها أكبر من سنها .. فقد  
توجد في البيت وهي واثقة أنه هو الذي سيبحث عنها ..

ولم يعد ينساها عندما يسافر إلى الخارج ، بل بدأ يحس أن يختصر في  
رحلته ليعود إلى البيت .. لم يكن يصارع نفسه بأنه يعود لأن بثينة أوحشته ..  
إن البيت هو الذي أوحشته .. البيت ودولت وبثينة .. ربما وصل إلى السن التي  
يستسلم فيها الرجل إلى وحشة البيت .. هكذا كان يقول لنفسه .. ولم يعد ينسى  
هديتها .. الواقع أن هديتها أصبحت تأخذ من اهتمامه أكثر مما تأخذ هدية  
دولت ..

وبثينة وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها ..

وهو في الأربعين ..

وبدا يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها .. لاشك أنها أحاسيس الأبوة ..

بدأ بعد وقت طويل يصبح أباً .. لا .. إنه يخدع نفسه .. إنه لا يزال يحس بأنها  
فتاة جميلة .. ويجد حرجاً كبيراً إذا سقطت عيناه على ساقها ، أو إذا ركز نظرتهم  
على شفتيها . وحدث أن دخل الفرقة مرة فوجدتها شبه عارية مع دولت قفزز  
بسرعة كأنه ارتكب فضيحة ، كأنه اعتدى عليها . لا يمكن أن يكون هذا هو  
إحساس أب .. لا يمكن أن يحس أب بسيقان ابنته أو بجسدها كله كما يحس  
بجسد فتاة غريبة .. لا .. قد تكون بثينة ابنة دولت ولكنها ليست ابنته ..

وبثينة في السابعة عشرة ..

وهو في الثالثة والأربعين ..

إنه يجد فيها نواحي جديدة .. إنها تقرأ كثيراً وتستطيع أن تجلس إليه ساعات  
طويلة تحكي له عما قرأته .. صحيح أن معظم قراءاتها في القصص ، والتاريخ ،  
والفن ، وأكثر المجالات التي تجذبها هي المجالات التي تنشر أخبار الفنانين  
والفنانات ، وهو لم يكن يهتم يوماً بالأدب ولا بالفن ، ولكنه يحس وهي تروي له  
كأنه ينتقل إلى عالم جديد مثير ممل ، بل إنه كان أحياناً يروي لها بعض مشاكل  
عالمه .. عالم رجال الأعمال .. فتبدي له آراء تدعشه كأن لها ذكاء بنات الأعمال .  
ودون أن يتعمد بدأ نظام حياته يتغير .. بدأ يقضي ليالي كثيرة في البيت جالساً  
في غرفة مكتبه المخصصة له ومعها دولت وبثينة ، والراديو والتليفزيون ، وزجاجة  
الويسكي الذي تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط ، وكانت السهرة تنحصر  
عادة في مناقشة تثيرها بثينة ، أو في قصة تروها ، أو في رقصة تقوم وتعرضها عليهما  
لتظلهما على آخر تطورات الرقص .. وهو سعيد .. مرح .. يضحك ويناقش ..  
وأحياناً يحتد .. ودائماً يتعمد الحذر من أن يركز عينيه على ساق بثينة ،  
أو على صدرها . أو على عنقها .. لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب

وبعاني صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها .. وفي مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لتنام فيلحق بها محمد فوراً .. (خديبي معاكى) .. لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه .. يخاف هذه الأحاسيس التي تعصف به ..

وهي .. بثينة .. إنها تعتمد أن تبقى بجانبه كلما كان في البيت .. وتعتمد أن تلتصق به كلما صحبها هي ودولت إلى دعوة أو إلى سهرة في الخارج .. وتضع ذراعها في ذراعه كأنها تتباهى به وتنسبه إلى نفسها .. وفي كل مناسبة تقول كلاماً كأنها تحرضه على نفسها :

- تعرف صاحبتى ميرفت .. ستجن عليك .. تقول إنك أجمل وأرشق رجل وإنها ستحاول أن تخطفك من ماما دولت ..

- إنها صغيرة مجنونة ..

- ليست صغيرة ولا مجنونة إنها في سنى وفي عقلى ..

وأحياناً تمد يدها وتلعب في شعره الأبيض وتصبح ضاحكة :

- شعرك يا بابا .. يهوسنى ..

إنه شعر عجوز .. سأصبغه أسود حتى أسترد شبابى ..

- إياك .. أنتحر لو صبغته ..

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكاً :

« انتى حانسكرى والا أقوم أصبغ شعرى إسود » ..

وقد كان دائماً واثقاً بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء .. ولكن مجاربه كلها كانت مع نساء من نفس جيله لم يجرب البنات المراهقات .. ربما وصل إلى السن التي يقال إن الرجل فيها يصبح مراهقاً عجوزاً .. سن الأربعين ..

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات .. وربما كان صحيحاً أن البنات في سن المراهقة يضعفن أكثر أمام الشعر الأبيض .. أمام سن الأربعين وما بعده .. إن أول حب في حياة البنت هو حب الأب وعادة ينقلها هذا الحب إلى تجربتها الأولى مع رجل في سن أبيها ..

وحدث أن دعى إلى حفلة ساهرة في فندق هيلتون مع زوجته وابنته .. أى بثينة .. وليلتها شرب كثيراً من كؤوس الويسكى ، ثم قام فجأة وشد بثينة من يدها وجذبها إلى حلبة الرقص ليراقصها .. كانت رقصة هادئة .. سلوفوكس .. وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً .. ولكن بعد بضع خطوات

راقصة تركز إحساسه كله على صدرها الذي يلاصق صدره ، وأصابعه المحلقة على ظهرها ، ساقيه اللتصقتين بساقها .. ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكى التي شرها أن يقاوم . وكف عن الكلام وعن الضحك .. وضعفها إليه بكل ذراعه ..

ولصق شفتيه فوق عنقها .. وتحركت فيه كل عناصر رجولته .. وهي .. إنها مستسلمة .. إنها تضغط نفسها هي الأخرى إليه وتزداد التصاقاً به .. وتعتمد أن تضع ساقها بحيث تطلق بينها سابقه .. وكلاهما مختي في زحام الراقصين ..

وسكنت الموسيقى ..

وأفاق ..

أفاق من كل شيء ..

أفاق حتى من كؤوس الويسكى التي كانت تملأ رأسه ..

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعداً عن حلبة الرقص وهي تجرى خلفه . وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأساً ثقيلة وأخذ يشرب

فيها دون أن ينظر إلى بثينة . ثم قام مستأذناً وخرج بزوجه وابنته بثينة .. وركب  
سيارته عائداً إلى بيته ، ودولت تسأله :

- هل أنت متعب ؟

- لا ..

- إنك لست طبيعياً ..

- ربما أتعبت من الويسكى ..

ولم يحاول أن ينظر إلى بثينة حتى عندما هم أن يدخل إلى غرفة نومه ،  
ولكن بثينة جرت وراءه صاححة :

- تصبح على خير يا بابا ..

ثم انحنت وقبلته فوق خده ..

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها ..

وذهب إلى مكتبه في الصباح وقد تعمد ألا يلتقي ببثينة أو يقبلها كما تعود قبل  
خروجه واكتفى بأن قبل زوجته وفي المساء أعلن أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن  
يخرج جلس في غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى بثينة وجاءته ورفع عينيه إليها بعد  
أن يجاهد طول هذه الفترة ، ورأها كأنها ازدادت نضارة وابتسامتها أكثر حيوية وشباباً ،  
وتخيل إليه أنها هائمة في إحساس جديد ، وقال وهو يحاول جهده أن يبدو هادئاً :

- أنا آسف لما حدث ليلة أمس ..

وقالت في براءة :

- ماذا حدث ؟

- أقصد عندما نسيت نفسي وأنا أراقصك ..

- إنك لم تنس نفسك ..

لم أكن طبيعياً .. كنت قد شربت أكثر مما يجب ..

- كنت طبيعياً جداً ..

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقصها ..  
واقتربت منه أكثر وقالت :

- صدقتي .. لقد كنت طبيعياً وأنا أيضاً كنت طبيعية ..

ثم انحنت تقبل خده وجرت من أمامه ..

وتركته حائراً ..

ماذا تقصد .. هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعياً بين أب وابنته ..

أم تقصد أنه طبيعي بين رجل وامرأة .. أم لم تحس فعلاً بما جرى ..

وفي اليوم التالي قال إنه مسافر إلى الإسكندرية ، وقالت بثينة بسرعة وفرحة :

- خذني معك ..

وصرخ في حدة :

- لا .. إني ذاهب في عمل ..

ومالت بثينة على دولت ترجوها :

- والنبي ياماما .. دعيه يأخذني معه .. إني لم أر الإسكندرية منذ الصيف ..

أريد أن أطمئن على الكاينة وبيتنا هناك . وأقابل صديقتي تحية .. وغداً  
أجازه ..

وقالت دولت في إلحاح :

- محمد .. دع بوسى تسافر معك .. إن من حقها أن تقضى يوماً بعيداً عن البيت ..

ثم ضحكت دولت قائلة :

- أتعهد لك بأنها ستترك لك حريتك .. بوسى .. احلني أنك لن تضايقيه بطلبانك ..

وقالت بثينة في دلال :

- أنا باضايقتك يا بابا ١٢

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له ، وضعف أمام الإغراء . وأخذها معه .. وفي طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامتا وأن يكتفي بالنظر أمامه ، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام .. تروى له قصصاً قرأتها وقصصاً سمعتها ، وأخبار الفنانات والفنانين ، وأخبار صديقاتها في الجامعة والنادى ، ثم تدير رايدو السيارة وتهتز على الأنغام وتغنى .. وهو يحاول أن يقاوم .. ولكن مقاومته تخف .. وتخف أكثر إلى أن نسي ما جرى وبدأ يملاً عينيه منها ويفضح لضحكاتها ويفنى معها ..

ووصل الإسكندرية في المساء .. ووقف في فندق فلسطين يسجل اسمه واسمها .. محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله .. وقال لموظف الفندق : نريد حجرتين من فضلك ..

وصرخت وهي بجانبه :

- يا خبير يا بابا .. إني أخاف موت إذا نمت في حجرة وحدى .. من أجل خاطري يا بابا لا تتركني وحدى ..

ولم يستطع أن يجادلها طويلاً أمام موظف الفندق ..

وجمعتهما غرفة واحدة ..

وعندما بدأت تخلع ثيابها وتلبس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينه ، ثم قال بحدة :

- بلل ثيابك في الحمام ..

وقالت في دهشة :

- لماذا ؟

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلاً :

- أنا سأدخل الحمام ..

وبدل ثيابه بعيداً عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذى تحمله على نعمات راقصة ، وعندما خرج من الحمام وجدها في قميص النوم .. وقد تعود أن يراها في ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أبداً عارية كما يراها في هذا القميص ..

وقالت وهي تهتز راقصة على نعمات الراديو :

- طلبت لك الويسكى ..

وهو حائر أين يضع عينيه منها .. وجاء الويسكى ، وأخذ يشرب كأنه يهرب بنفسه داخل الكوب ، أو كأنه يلقي بنفسه في بحر الويسكى لينتحر .. ثم شدته من يده قائلة :

- قم راقصنى ..

- لا تكوفنى مجنونة ..

- من أجل خاطرى .. لا تحرمنى قبل أن أنام ..

وقام يراقصها بجانب الفراش .. وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده ..



وقالت ضاحكة :

- لا .. كما راقصتني آخر مرة ..

وألت بنفسها فوق صدره .. وأحس بثديها .. وساقها .. وظهرها العاري ..  
وضمها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه .. وتحركت كل حيوية  
رجولته .. ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير ، وقال وأنفاسه تهدج :  
- إذا كنت مجنونة فلن أجن معك ..

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير .. يحاول أن يشعل سيجارة ..  
وقامت من رقدتها واقتربت منه وفي عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر  
حكماً نهائياً وقالت في صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل خداع  
ومن كل خجل :

- اسمع .. أنت لست أبى .. خذني كما أنا .. وأنا لست ابنتك ..  
ونظر إليها بعينين ثابرتين خطيرتين كأنه قرر أن ينتهي من كل شيء ..  
ينتهي من هذه المقاومة التي أنهكته خلال سنوات .. وينتهي من هذا الصياع  
بين ابنة وعشيقة في جسد واحد ، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر ..  
وشدها إليه وقبض على شفتيها بشفتيه ، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم ، ثم قام  
وحملها عارية وألقى بها وألقى بنفسه معها ..  
وحدث كل شيء ..



قالت له إنها هي أيضاً حاولت العمر كله أن تحس به كأب ولكن كان  
هناك دائماً إحساس يغلب إحساسها بأبوتها .. ربما منذ اليوم الأول الذي وعته فيه وهي  
لا تستطيع أن تعبه كأب .. كان إنساناً بملأ خيالها وأحلامها ولا يمثل واقعها ..  
إنها تستطيع أن تتخيله بطلاً للقصاص التي تقرأها والأفلام التي تشاهدها وتحلم به  
كمستقبل وهي .. كأن يحبها ويحفظها على حصان ، ولكنها لم تكن تحس به  
كواقع .. والإحساس بالأب هو الإحساس بالواقع .. وهو لم يكن أبداً واقعاً ،  
كان خيالاً وحلماً .. وكلما تقدم بها العمر اقترب بها خيالها وأحلامها من الحب ..  
أصبحت تريده .. تشتيه .. وتتمنى أن تتباهى به أمام صديقاتها كرجل لا كأيها ..  
إنها تعلم أنه ليس أباًها ولم يكن يجدى الإخفاء عنها فقد خرجت من الملجأ  
وهي في الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الذكريات ، ولأنها تعلم فقد كان  
يخيل إليها أن الناس كلها تعلم ، وأنها تعيش في كذبة مستمرة ، ويخيل إليها أن كل  
من يقرأ اسمها منسوباً إليه يصيح .. كذابة .. وهي تمنى أن تحيل هذه الكذبة  
إلى حقيقة .. والحقيقة الوحيدة التي تستطيع أن تصل إليها هي أن تكون حبيبتة  
لا ابنته .. وكانت تعلم أن لا أمل .. كانت تحاول أن تياس .. بل إنها حاولت  
أن تحب حياً يشغلها عنه .. تحب شاباً من الجامعة أو من النادي يحملها إلى  
المستوى الطبيعي للحياة .. ولكنها لا تستطيع أن تياس .. وعندما تقدم بها العمر  
أكثر بدأت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم .. هو الآخر لا يحس بها كإبنة  
بل كفتاة يريددها .. وكانت تحس بكل ما يعانبه وتكتشف كل الكذبات التي

يضحك بها على نفسه .. فبدأت تشجعه .. إنها تعترف له بأنها كانت تشجعه ..  
تحاول أن تسهل له الطريق إليها .. إلى أن التقيا كما تخمينا أن يلتقيا ..  
ولم يكن كلامها يكتفى ليخلصه مما يعانيه من حيرة في الحكم على نفسه ..  
هل هي من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن إثمته المجتمع عليها ، وسجل في  
أوراق رسمية أنها ابنته .. وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقي بها وحدهما ..  
إنه ينتقل معها إلى الحب كله .. إنه يجها برغم فارق السن .. يجها جياً أوسع  
بكثير من مجرد الاحتياج الجنسي .. أصبح يحب شخصيتها وعقليتها .. بل  
أصبح يتمثل المستقبل كله معها .. ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة  
والتأنيب ، والخوف .. والإحساس بالجرمة وبالكذب .. إنها ابنته كيف أباح  
لنفسه كل هذا مع ابنته ..  
ولكن دولت ..

لا يدري .. إنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش بلا دولت .. كلتاهما لا تعنيه  
عن الأخرى .. كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى .. كل منهما لها منه  
أحاسيس حب مختلف عن أحاسيسه بالأخرى ..  
وبعد ما حدث في الإسكندرية كف عن المقاومة ، واستسلم لوجه لبينة  
مع كل المعاناة التي يعيش فيها وكانا يحرصان أمام دولت في البيت على تأكيد  
أن لا شيء جد عليهما . وربما أصبحتا يتابعان أحدهما عن الآخر أكثر وهما  
في البيت ، ويقال هو من سهرات المساء التي كانت تجتمع مع الأئتين في  
غرفة مكتبه ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى لبينة أمامه وهو محروم من الانطلاق  
معها وإليها .. وكان يلتقي ببينة لقاءهما الخاص في شقته التي استأجرها منذ  
سنوات وخصصها لحياته الخاصة .. ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما

واقنان أن أحداً لا يلحظ عليهما شيئاً أو بدأ يشك في أمرهما ..  
ولكن محمداً بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت .. لقد عاش  
معها العمر كله ويستطيع أن يلتقط أى لحظة جديدة .. إنها لحظة في نظره عجيبة  
تصبحها ابتسامة .. كأنها اكتشفت السر .. ورغم ذلك فهي لا تقول شيئاً  
وتبالغ أكثر مما عودته في تدليله وفي تدليل بثينة ..  
ربما لم نكتشف شيئاً ..

إلى أن كان يوم .. وكان في لقاءه الخاص مع بثينة عندما قالت له ضاحكة  
ضحكتها الحلوة ؟

- هل أقول أو لا أقول ؟

- تقولين ماذا ؟

- أخبرني أولاً .. هل أقول أو لا أقول ؟

- قولي ..

- إذا أنت الذي تأمرني بأن أقول .. لست أنا التي قررت القول ..

- يا ستي قولي .. تكلمي ..

- عدني أولاً أن تقبلني بعد أن سمعني .. أو الأفضل أن تقبلني الآن

فلمست واثقة من وقع الخبر عليك .

وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعها كأنه يتوى أن يهبها وينخلها

حتى يسقط منها السر .. وصاح

- تكلمي ..

- إني حامل ..

واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى ألم كأنه طعنة وقال :

- ولكنك كنت حريصة دائماً ..

- لا لم أكن حريصة .. كنت أتعهد أن أحمل منك ..

- لماذا يا مجنونة ؟

- لأعطيك ما أخذته منك .. لقد أخذت منك ابنتك التي كانت أنا

فأردت أن أعطيك ابنة أخرى .. أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئاً لم تعطك

إياه امرأة أخرى .. أن أجعل منك شيئاً لم تكنه وهو أن تكون أباً ..

وصرخ :

- من قال لك أني أريد أن أكون أباً .. ستذهبين فوراً إلى طبيب لإسقاطك ..

- لا يمكن ..

- كيف .. ماذا تعنين ؟

- إني الآن في الشهر السادس .. وطبيعتي تساعدني على إخفاء حملي ..

ولا يمكن الآن إجراء أى عملية .. إني متأكدة سألت الطبيب ..

- ستة أشهر .. كاذبة .. لا يمكن أن تعيشي معنا ستة أشهر وأنت حامل

وأنا لا أدري .. ثم دولت ؟

- إنك لا تدري ماذا كنت أفعل حتى أخفي كل شيء عن ماما دولت ..

وماذا تتصورين أن يكون مصير هذا الطفل ؟

- مصيره هو نفس المصير الذي عشته .. أتركه للملجأ .. ثم نذهب مع

ماما دولت ونبتناه ..

- كيف يكون ابني وأتركه للملجأ ..

- كل من في الملاجئ لهم آباء .. وهم غالباً أغنياء .. لأن حياة

الفقراء لا تتسع لأولاد الحرام .. أمي لاشك كانت من عائلة كبيرة واللا للا خشيت

الفضيحة وكذلك أمي .. لو كانا فقيرين لتزوجا حتى لو كان أبى متزوجاً

عشر زوجات أو لقتلوني بدلاً من أن يضعوني في ملجأ ..

وقال في سخط :

- إنك لا تسنين أصلك ..

- أصلي هو الذي أوصلني إلى أجمل وأحلى ما في الدنيا .. إليك ..

ونظر إليها كأنه يعتذر عن إسفاهه وقال :

- بوسي .. أرجوك .. دعينا نفكر في هدوء .. لنبدأ أولاً باستشارة طبيب

أعرفه ..

- لا أمل ..

- سأخذك ونذهب إلى لندن ونحاول إجراء العملية هناك ..

- لا يمكن ..

- لماذا ؟

- لأنني أريده .. أريد ابناً منك وأريدك أباً لابني .. أتمنى أن تكون بنتاً ..

ماذا نسماها يا محمد ..

وصرخ بأعلى صوته :

- لا تستهزئي بي إلى هذا الحد .. قدرتي أني لم أخرج من ملجأ ولا أريد

لابني أن يخرج من ملجأ .. إني منذ وجدتك وأنا أعيش في فضيحة مستمرة

لا أريد أن أجني على طفل لا ذنب له بفضيحة أكبر ..

ونظرت إليه في هدوء وقالت :

- محمد .. هل تحبني .. قل لي بصراحة .. إذا لم تكن تحبني فسأخرج

من هنا وأنا ويطني ولن ترى أى مشكلة في حياتك ولن تراني ..

ونظر إليها طويلاً ، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم بالبكاء ، وهمس :  
 - أحبك .. لن تكون لك مشكلة وحلك أبداً .. فقط أتركيني أفكر ..  
 وتركته وعادت إلى البيت .. وحاول هو أن يجد حلاً .. ليس هناك حل إلا أن  
 يتزوجها . ولكنه لا يستطيع ليس من حقه .. إن عقد التني يجعل لها كل أوضاع  
 الابنة ولا يستطيع قانوناً أن يتزوجها .. ياليتها اكتفى أن يكفلها كما عرضوا عليه  
 في الملبأ .. ولكن دولت أصرت على أن تتبناها .. دولت .. كيف يتزوجها  
 والناس كلها تعلم أنها ابنته وابنة دولت حتى لو أجاز القانون زواجهما .. وماذا  
 يكون رأى دولت ؟ أن رأى دولت هو الأهم .. وقام في عصبية مجنونة وذهب إلى  
 البيت ودخل وهو بصرخ .. دولت .. دولت .. ودولت تهرع إليه في هلع ،  
 وبثينة تخرج إليه من غرفتها فيصرخ فيها :  
 - دعينا وحدنا ..

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويغلق وراءهما الباب ويلقى بنفسه على مقعد ويتكلم  
 بين أنفاسه المتهدجة :  
 - سأرؤى لك كل شيء .. وأرجوك أن تحتملى .. إني أحبك ولولا حيك  
 لما اضطرت أن أقول لك كل شيء .. ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلا لما كانت  
 هناك مشكلة .. اسمعى ..  
 وابتسمت دولت في هدوء وحنان وقالت :  
 - انتظر ثانية واحدة ..

ثم قامت في عجلة وخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوباً من  
 شراب البرتقال :  
 - لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب .. واجلس مستريحاً .. أرح

ظهرك على مسند المقعد ..

وشرب العصير وأراح ظهره وهداً فعلاً . وبدأ يروي القصة كلها .. من  
 يوم أن تبينا بئينة إلى أن حملت منه .. وكانت دولت هادئة طول القصة لم  
 تنفعل ولم تقاطعه . وكان هو الذى يقطع الكلام وينظر إليها في دهشة ويقول :  
 - هل كنت تتصورين أن يحدث هذا ؟ ..

وترد عليه بهدوء :

- أكمل الحكاية .. وبعدها ستعرف ما كنت أتصوره ..

وأتم الحكاية .. وصل إلى أن اعترف لها بأن بثينة حامل منه .. ويرغم ذلك  
 لم تفاجأ ، ولم تصرخ ، ولم تثر ، ولكنها .. بدأت تتكلم في هدوء ..

- إني أعرف كل شيء .. وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسى تجذبك إلى  
 قضاء السهرة في البيت .. كنت أعرف أنى أصبحت بالنسبة لك مجرد إحساس  
 بالوفاء والعشرة والمشاركة في البناء والاطمئنان ، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرجل  
 في عز رجولته .. ولذلك فرحت بأن بوسى أصبحت هى الإغراء الذى يزيد  
 من ارتباطك بالبيت ، وبى .. وكنت أحس بمدى المعاناة التى تبذلها حتى توقف  
 هذا الإغراء عند حد معين .. ولكنك لم تستطع أن تستمرقى المقاومة التى تسبب  
 لك هذه المعاناة .. وعاشرتها .. وأستطيع أن أحدد لك متى بدأت .. إنها  
 ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية .. كنت أعلم أنك ستتحدى  
 معها ولكنى لم أكن أقدر أنك ستتحدى إلى هذا الحد .. كنت أعتقد أنها ستبقى  
 عذراء .. ولكنى عرفت أنها لم تعد .. إن المسكينة تحاول دائماً أن تخفى عنى  
 ولكنها لا تدرى أنى صنعت كل قطعة منها بيدي حتى أصبح من السهل على  
 أن أكتشف كل ما يلزم بها .. وقد قاسيت أيامها .. إن ابنتى لم تعد عذراء ،

وزوجى هو المسئول . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل . إنها تحبك لو كنت قد قاومت حبها فربما أثرت فيها إحساسها بأنها ميثساء وليست ابنتى . وتصورت أنى أضطهدها أو أغار منها فتهرب منى . وأنت أيضاً تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولت أن أحرمك منها ، فربما زاد إحساسك بأنى لم أعد امرأة بالنسبة لك وأنى أحرمك من حقلك فى متعة رجولتك فتثور على وتهجرنى . . كان كل ما يشغل بالى دائماً هو أن أحتفظ بك وبها . . وماذا بيم ، إنى أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسى ، فما الفرق ؟ - بل إنى أحياناً كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية . . إن جدى كان متزوجاً من أربع نساء يجمعهن الأربع فى بيت واحد . . لأفترض أنى أعيش فى أيام جدى . . ثم حملت منك . . إنى لم أكتشف فى الشهور الأولى . . ولم تحاول طبعاً أن تستعين بى . . وليس صحيحاً أنها احتفظت بالحمل متعمدة كما أخبرتكم . . ولكنها اعتمدت على صديقاتها فى إسقاطه . . ولم يكن لديها الجراة لتذهب إلى طبيب . . وقد اكتشفت حالتها بعد مدة . . وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس . . إنها ساذجة فى هذه المواضيع النسائية برغم ذكائها المعروف عنها . .

وقاطعها وهو يستمع إليها فى دهشة :

- المهم . . ما رأيك . . ماذا تعمل ؟ .

وابتسمت كأنها واثقة بأنها أعدت كل شئ :

- أقول لك الحق . . إنها ابنتى . . برغم كل شئ - إنى أحس بها ابنة لى . .

ولا أريد لابنتى أن تنجب فى الحرام . . ويجب أن تتزوجها . . إنك لن تستطيع أن تتزوجها فى مصر لأن قانون التبنى يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيداً

عن مصر . . ناسفر نحن الثلاثة إلى باريس أوأى عاصمة أخرى وتتزوجها هناك . .

وقاطعها :

- هل ستتزوجها أنا وأنت . .

وقالت مبتسمة :

- آسفة . . أقصد طبعاً أن تتزوجها أنت وبقى الزواج سراً . . ثم تضع مولودها هناك . . وبقى فى الخارج ستة شهور أوأكثر وتعود وأنا أحمل الطفل على أنى تبنيه من أحد الملاجئ هناك ، وكل الناس هنا يعلمون أنى أريد أن أتبنى طفلاً آخر بعد أن كبرت بوسى . . ومنذ شهور وأنا أذيع بين كل الأصدقاء أنى أريد أن أتبنى مولوداً جديداً بل إن أم عطيه الفسالة عرضت على من أيام تبنى طفلة أنجبها شقيقتها . . المهم سنعود وأنا أحمل طفلك على أنى تبنيه ولن يغير ذلك شيئاً فى واقعه فأمه الحقيقية ستبقى معه وأبوه معه ويحمل اسمه . . أما بالنسبة لى فلاشئ تغير أيضاً ، فقد كنت أتبنى من الملاجئ ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لى ملجأ خاص . . وهو بوسى نفسها . . بوسى أصبحت ملجأى الخاص . . وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبى فإنى أتصور أنى أنا التى كلفتك بإنجابهم لى . . إنها مجرد عملية تلقيح صناعى بشكل خاص . . بما أن التلقيح لا يصلح لى فقد جربناه فى بوسى ونجح . . ومن يدرى . . ربما بعد سنة أو سنتين تنفق على إجراء تلقيح آخر وأتلقى من ملجأى الخاص . . من بطن بوسى . . طفلاً آخر . . اعمل حسابك . . إنى أريده ولداً . .

وكان يستمع إليها فى دهشة . . دهشة لا يدرى كيف يفسرها . . ولا كيف

يحكم عليها .. وكيف يحكم على دولت .. إنه لم يكن ينتظر منها كل هذا ..  
وقال في وجوم :

- إنك نسيت أن تقدرى أنى أحبها .. أنت تحيينها كابتة ولكنى أحبها  
كأمرأة .. إنى أحبها فعلاً ...  
قالت من خلال ابتسامتها الهادئة :

- ما هو الحب .. إنه العطاء .. وقد أعطتك مالا أستطيع أن أعطيه لك ..  
أعطتك منة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسدياً منذ سنين .. وها هى تعطيك  
الخلف الذى عجزت أن أعطيه لك .. ولهذا لا أغار منها ، بل أحس كأنها  
تكمل ما ينقصنى .. لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وانجيت لك لما دخلت  
بوسى بيتى ولما تركتها تعطيك شيئاً ..

- إذا كان الحب عطاء .. فماذا أعطيها أنا .. ماذا أعطى بوسى ..  
- تعطيها كل ما لا تستطيع أن تعطيه لى .. وأنت لا تستطيع أن تمارس  
الجنس معى ولا أن تنجب منى ..

- مستحيل .. هذا لا يكفى .. إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد  
عملية حسابية يقوم بها العقل وحده .. إن الحب عاطفة .. إحساس .. والعاطفة  
تعطى أكثر مما يعطى العقل ، أو أن العقل يصبح فى خدمة العاطفة ..

- إنك تجبى أنا أيضاً يا محمد .. وهم يقولون أن ليس من حق الإنسان  
أن يحب اثنين ولكن هذا كلام فارغ .. فإن من حق الإنسان أن يستكمل  
ما تحتاج إليه طبيعته .. ويأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى .. ويجب  
أن تعطيها ولكن ليس على حساب ما تعطيه لى ..

- إنك إنسانة مجردة من العاطفة .. ليس لك قلب ولكن لك عقلان ،

عقل فى رأسك وعقل فى صدرك .. وأستطيع أن أكشف الآن أنك منذ اليوم  
الأول الذى التقينا فيه وأنت تأخذينى بعقلك .. أخذتني على أمل أن تحمل  
وتنجى لأنك لم تنجى من زوجك الأول ولو كنت قد أنجيت منه لا التقينا أبداً ..  
ثم بعد أن جريت معى ولم تنجى أيضاً بدأ عقلك الذى ينظم ويحدد احتياجاتك  
يقنعك بأن تأخذينى كابتة بالتبني .. إن عواطفك نحوى هى نفس عواطفك  
نحو بوسى .. عواطف التبنى التى تكنى بالإحساس بالملكىة .. لذلك لم تغار أبداً  
على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة .. كأتى أم ،  
لا تغار على ابنا من عشيقاته ومغامراته لأنه سيبقى دائماً ابناً .. ولم تغار من بوسى  
وإلى الآن لا تغارين منها حتى بعد أن حملت منى ، كل ما يهيك هو الحرص  
على ملكيتك لى ولها ..

وردت محتدة :

- إنك تظلمنى .. إنى أحبك إلى حد أنى أضحي بما يسعدنى لأحتفظ لك  
بما يسعدك .. ماذا كنت تريدنى أن أفعل وأنا أحس بعجزى ونقصى ..

- كنت أريد أن يكون حبك أقوى من عجزك .. ألا تقبلى أى وضع يمس  
حبك .. كنت أريدك أن تغارى دائماً وأن تتورى على .. أن تحفظى باحترام  
حبك كاملاً حتى لو ضحيت بى .. كنت تستطيعين أن تقبلى منى من حب بوسى ،  
وتقبلى بوسى من حبها لى منذ بدأت تلاحظين ضعف كل منا نحو الآخر ..  
ولكنك لم تحاولى .. لأنك ضامة ملكيتك لنا نحن الاثنين ..

- ماذا كنت تنتظر منى ؟

- لا أدرى .. إن كل ما يهمنى الآن هو مستقبل بوسى .. إن الحب عطاء  
كما تقولين ، والعطاء الذى تحتاج إليه بوسى الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة

وَأَنْ يَكُونَ مَوْلُودَهَا لَهَا وَتَبَاهِي بِهِ أَمَامَ النَّاسِ . . لَا أُرِيدُ أَنْ أَظْلِمَهَا وَأُظْلَمَ ابْنِي  
مَعَهَا . . كَيْفَ . . كَيْفَ . . لَا أَدْرِي . .  
وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَوَدَّتْ يَدَهَا تَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ وَتَمَسَّحَ بِأَصَابِعِهَا عَلَى شَعْرِهِ  
الْأَبْيَضِ ۞ وَقَالَتْ فِي حَنَانٍ :  
دَعْنِي أَفَكِّرْ لَكَ . . اطمئن . . كل شيء له حل . .

❖ إِنَّهُ يَرَى بِأُذُنِهِ ❖

إن محمود شخصية معروفة مشهورة . . إنه مشهور شهرة التابعى بائع الفول ،  
أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية ، أو بنترومولى بائع قطع الأثاث ، أو فلقلة  
بائعة الطعمية ، أو الشوربجي بائع الملابس الداخلية ، أو شهرة زكى السمالك . .  
شهرة البائع المتخصص الفنان الذى يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحتفظ  
به ، ويستطيع أن يجعل من كل زبون طعماً يرميه فى السوق ليصطاد به عشرة  
زبائن آخرين . .

ومحمود متخصص فى بيع الكأس . .

إنه بارمان . . أو ساق ، بلغة قاموس مختار الصحاح . .  
وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته ، ولم تدفعه إليه هوايته  
للكأس ، فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر « بارمان » فى مصر ، لا يشرب  
الخمير إنما فقط يذوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها ،  
أو كلما أرد أن يختبر تركيباً جديداً من تراكيب كسؤوس الكوكيتيل  
التي تضم خليطاً من أنواع الخمير . . ومنذ أن كان فى بلده كفر نعيمه مركز  
طلخا وهو يتخيل لمستقبله مختلف الصور . . يتخيل نفسه ضابط بوليس ،  
أو طبيباً ، أو مدرساً ، أو زعيماً سياسياً ، ولم يخطر على باله أبداً أن يتصور نفسه



ساقياً يقدم الخمر، ولم تكن كل دنيا خياله تتسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفاً في حانة .  
 وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى البندر ليصل  
 إلى المدرسة الثانوية . . ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ  
 كان طفلاً . . ضابطاً . . طبيباً . . مدرساً . . زعيماً . . إلى أن وجد نفسه  
 يعيش المشكلة العادية التي تمر بملايين العائلات . . مات الوالد ولم يترك شيئاً  
 سوى أم وخمسة أخوة ومعاش قيمته خمسمائة وثمانون قرشاً في الشهر . تتسلم  
 منه العائلة خمسمائة قرش فقط والباقي يذهب إلى الدولة ممثلة في شخص الصراف . .  
 وأصبح مضطراً أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه ، وكان له قريب لأمه  
 يعمل جرسونا في فندق كبير من فنادق القاهرة ، فذهب إليه لا ليعمل معه في نفس  
 الفندق إنما ليبحث له عن أي عمل في القاهرة التي كانت تمثل له ولكل أهل  
 قريته غابة في الجنة يكفى أن تمد يدك لأي شجرة منها لتقطف ما تشاء . .  
 وهو يريد أن يقطع عملاً يكفل له أن يستمر في الحياة إلى أن يصبح ضابطاً  
 أو طبيباً أو مدرساً أو زعيماً . . وكل ما كان يتنامى في هذا العمل ألا يستغرق كل  
 يومه حتى يترك له الفرصة ليستمري دراسته الثانوية . .

ولكن قريبه أخذته معه في نفس العمل . . ووجد نفسه سفيراً صغيراً . .  
 أو مساعد سفيرى . . ووجد نفسه يندمج بسرعة في هذا العالم الجديد . . ولعله  
 اكتشف نفسه أو اكتشف مواهبه . . وأخذ يفهم كل شيء بسرعة عجيبة ،  
 ويحفظ أسماء المأكولات والأدوات بسرعة أكبر ، ثم بدأ يفهم الزبائن . .  
 إن أهم شيء في المهنة هو أن تفهم الزبون ، فكل زبون له عقلية خاصة ومزاج  
 خاص ونعم خاص من نعمات الأوقار العصبية ، ولا يكفى أن تقدم للزبون ما يطلبه ،  
 بل المهم هو الأسلوب الذي تقدم به . . هذا زبون تتطلب معاملته ابتساماً وكلمة

علاوة وقد تروى له قصة حياتك وأنت تقدم له طعام العشاء . . وهذا زبون تتطلب  
 معاملته نوعاً من التعالي عليه بما يشبه الاحتقار لأنه تعود ألا يكون مهذباً إلا بالتعالي  
 عليه فإذا دلته أو ضعفت أمامه حاول أن يركبك وينش لحمك . . و . . و . .  
 المهم أن تفهم الزبون وعلى قدر فهمك تستطيع أن تكسب سمعة بين الزبائن  
 وتستطيع أيضاً أن تحصل على الحد الأقصى من البقيش . . فالبقيش لا يعطى  
 فقط كمجرد مكافأة على عمل بل قد يعطى أيضاً كرشوة ، أو قد يعطى كنوع  
 من النظاره إذا كان الزبون في حالة يريد أن يعلن فيها أمام فتاة تصحبه أنه  
 حليفه هارون الرشيد ، وأبخس وأحقر أنواع البقيش هو الذى يدفعه الزبون  
 إحذاراً وبحكم النص عليه في فاتورة الحساب . .

واستطاع محمود أن يكسب نجاحاً كمساعد سفيرى أو كسفيرى صغير . .  
 نجاحاً بين رؤسائه ونجاحاً بين الزبائن . . ولكنه وجد نفسه مشدوداً دائماً إلى  
 عالم البار الذى يتولى زعامته الرئيس مهداوى محمدى . . الرجل التوى الذى  
 عصبى عليه وهو يقود البار أكثر من ثلاثين سنة . . منذ أيام الإنجليز . . كان  
 محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عالم خارج مصر . . كأنه بمجرد  
 أن يخطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح في أوربا . . لا لأن  
 معلم زبائن البار من الأجانب فهم نفس الزبائن في كل مكان من الفندق ،  
 ولكن لأن كل ما في البار يتنقل إلى عالم أجنبى . . الزجاجات الملونة . . الأسماء  
 المعجبة . . أسلوب الخدمة . . كل شيء ليس فيه شيء من مصر ولا من الشرق . .  
 إنه صورة كاملة من المجتمع الأوروبى . . حتى التمثال الفرعونى . الكبير الذى  
 سمعه مهداوى في جانب من صالة البار ، واللوحات التى رسم عليها التنخيل  
 والحمام والصحراء المعلقة على الحائط ، كل ذلك ليس له أى أثر في نقل

جو البار إلى عالم الشرق ، إنها تبدو كتحف معلقة في بيت أجنبي . .

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوروبا . . يريد أن يتخطو فوق عتبة البار ليصل إلى هذا العالم الآخر . . واستطاع بذكائه الربيعي الذي يخفيه وراء قناع من السذاجة البريئة ويقدمه في كل كأس من خفة الدم المهدبة . . استطاع أن يلفت نظر « المتر » مهدهوى وأن يثير اهتمامه فأخذته معه مساعداً له في البار . لم يكن مساعداً إنما كان مجرد سفرجى يغسل الكؤوس وينقل الزجاجات ويطبخ الأوامر . . ولكنه كان دائماً يحصر كل اهتمامه في اكتشاف أسرار « المتر » مهدهوى . . اكتشاف سر المهنة . . وعرف أسرار الويسكى . . وأسرار الكونياك . . والشمبانيا . . والفودكا . . والجنين . . ثم اكتشاف أسرار علم الكوكتيل . . اكتشاف سر « بلودي ماري » أي ماري الدامية ، وهو كوكتيل مكون من الفودكا وعصير الطماطم والشطة والفلفل والليمون . . وسر « الأمريكانو » وهو كوكتيل آخر يجمع بين عصير الكمباري والمارتيني والصدودا . . و . . و . . وعشرات من أنواع الكوكتيل . . إنه علم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس ، والأبحاث . .

ومهدوى يعتمد أكثر وأكثر على محمود ، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار ، إلى أن تعب مهدهوى وذهب إلى رحمة الله وتولى إلى العهد - أي محمود - مملكة البار في الفندق الكبير ، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجرد أن يملأ الكأس ويقدمها ، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس . . إن البارمان كسائق التاكسي الذي يركب معه كل ساعة زبون لا يعرفه ، وسائق التاكسي ينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة ، فيجب أن يعرف الحالة التي هو فيها والحالة التي يريد أن ينقله إليها . .

وأكثر من ذلك . . لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم في صغره ليحققه كاستقبال له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانا . . كان يحلم أن يكون ضابطاً للبوليس ، أو طبيباً ، أو زعيماً وقد وجد أن كل ذلك يجب أن يمر في شخصية البارمان وأن يمارس فعلاً اختصاصات الضابط والطبيب والزعيم . .

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكي الذي جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب ، بدأ يغني أغاني بذيئة بصوت عال ، ثم قام ووقف أمام محمود وقال في تحد :  
- لن أدفع . . إن خمرك كلها مغشوشة . .  
وكان من حق محمود أن يدعو فوراً رجال الأمن المتفرقين في الفندق ويقبض على الرجل ولكنه بذلك سيئ إلى بقية الزبائن ويفسد جو البار ، والأفضل أن يتم من نفسه ضابطاً للبوليس ويتصرف ، فابتسم ابتسامته الجذابة التي تخفي خبيته وعال في مرح :

- لا يهم . . خذ كأساً أخيرة على حسابي . . انها ليست على حسابي ولكن أعاط في ثمنها أصحاب الفندق . . لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئاً . .  
وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحاً :  
- يسقط أصحاب الفندق . .  
وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس :  
- هل معك سيارة . .  
وقال الرجل ضاحكاً ضحكة مخمور :  
- نعم . . إنها قريبة . . تركتها في شارع برودواي . . ألسنا الآن في نيويورك . .  
وقال محمود :

- انتظر . . سنخرج سوياً . . سأصحبك بسيارتي إلى نيويورك . . إنها قريبة من هنا . .

وقال الرجل :

- هيا يا صديقي . . ولكن على شرط أن نسر على مدير الفندق لصنع حسابنا معه . . إني أدفع بالكلمات . .

وضحك محمود قائلاً :

- وأنا أدفع بالشلايت . .

ووضع محمود ذراعاً في ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاخكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجى وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدما ويقضا على الرجل قبل أن يقاوم ، ويقامعه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر .

وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البليس التي كان يحلم بها في صغره . .

ثم بدأ محمود يحس نفسه كطبيب مسئول ، فهو ينقل الزبون بفعل الخمر من حالة إلى حالة . . سواء حالته الصحية أو حالته النفسية . . فيجب أن يتحمل مسئولية الطبيب سواء كان طبيب الأمراض الجسدية أو الطبيب النفساني . . وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذي يقدمه في الكأس . .

وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي ، ومع ذلك يصر على طلب كأس أخرى . . والمهم دائماً هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول . . ومعظم الزبائن لا يستطيعون خصوصاً بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه ، إنما يصبح الأمر كله في يد محمود ، ولذلك فهو يعتمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول

هالداً زبون لا يتحمل أكثر من كأسين ، وزبون يستطيع أن يتلع عشر كؤوس دون أن يهتز . . وبناء على هذه الدراسة قد تختلف الكأس الثالثة التي يقدمها محمود من الكأس الأولى . . قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكى ولا تحمل الكأس الثالثة سوى قيراط واحد ، ويغطي هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا التي يزيدها على الويسكى دون أن يشعر الزبون بأى شيء . . ولم يكن محمود يعبر نفسه بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكى من أفواه الزبائن ولكنه طبيب حريص على حالة مرضاه الصحية . . مرضى الخمر . . وكان يحس بقدرته

أكبر على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكتيل ، بل إنه أصبح من هواة إعداد الكوكتيل . . إنه يحس بنفسه كأنه صيدل يعد الدواء المركب لكل مريض . . كوكتيل «جين فيس» أى «الابنة الصغيرة» المكون من خمر الجين مصافاً إليه الليبون والسكر والصودا . . والكوكتيل الفرنسي المترفع الغالى الذي لا يقدم إلا في المناسبات العزيرة . . كوكتيل «روبال مالبيشير» المكون من الكوبياك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع شمينانيا من النوع القوى

الغازح وتزين الكأس من حوله بقطع من فاكهة الموسم . . . . . وصل محمود بعد أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يبتكر أنواعاً جديدة من الكوكتيل تنسب له ويعتمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أطبا كوكتيل نفرتيتى الذى يعتمد فى تركيبه على الجين والكواترو والكمبارى وعصير الأناناس ، وأصبح نفرتيتى مشروباً عالمياً مسجلاً فى كل بارات العالم ومنسوباً إلى اسم محمود . .

وقد اضطر محمود أن يعتمد على نفرتيتى عندما وجد نفسه يوماً مضطراً لأن يقول بين زبائن البار مسئولية القاضى أو الزعيم الذى يصدر أحكامه تحقيقاً للعدالة . .

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين ، وهو رجل في حوالى الأربعين من عمره يبدو وسيماً ولكنه يعتبر نفسه أكثر وسامة من حقيقته ، ويهتم بشاربه الرقيق الملتصق فوق شفثيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حدائه . . . وقد يكون ذكياً ولكنه أيضاً يعتبر نفسه أكثر ذكاءً من حقيقته ، ويلقى كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد . . . كان إنساناً مغروراً بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطيد عجائز السائحات . فهو دائماً في البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى في اليوم التالى مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية . . .

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية ، وقد عرف عنه الكثير . . . عرف أنه متزوج ويسكن في حى شبرا ، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات ، وأحياناً يعمل كسمسار أو كوسيط في عمليات تجارية تافهة ، وأنه يعتمد اعتماداً كاملاً في اكتساب دخله على اصطيد السائحات العجائز واستنزافهن . . . إنه محترف بيع المتعة للعجائز . . .

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمنى الخمر . ربما اختار البار كمجال للعمل ، يسهل عليه فيه التأثير على صيده . . . وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها في مدة طويلة وبأسلوب معين يتيح له أن يترك المرأة التى معه تشرب في نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استنزافها . . .

ورغم ذلك فإن محمود كعادته مع كل الزبائن تعتمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر ، فقدم له ذات مرة ما يوازي كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التى تعود عليها ، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله . . .

وفى ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها . . . جمالها

هادئ . . . شعرها ينساب برفق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من يصفقه ، والألوان فوق وجهها كلها ألوان نائمة في حلم سعيد لا يوقظها منه لون دخيل كأنه وجه مغسول من كل الألوان المزيفة . . . وقد خطت إلى داخل البار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حولها في حيرة وارتباك ، ومحمود يتطلع إليها لعله إلى أى زبون جديد ، إلى أن اقتربت منه وقالت في صوت خجول يتكسر بين شفثيتها :

— من فضلك . . . هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز . . .

ونظر إليها محمود في دهشة . . . إنها ليست من النوع الذى يمكن أن يسأل عن مصطفى عبد العزيز . . . كان يمكن أن تسأل عن أى زبون إلا هذا الزبون . . . وأحباب وهو يقيسها بين عينيه ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز . . . ربما كانت أخته . . . لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهى تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله . . . أجاب :

— نعم . . . أعرفه . . .

قالت وهى أكثر تردداً وحياء :

— هل يأتى هنا . . .

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقبل الإجابة على أى سؤال خاص بأحد من زبائنه . . . إنه يحترم دائماً سر المهنة . . . ولكنه أجابها كأنه يضع نفسه في خدمتها :

— إنه دائماً هنا . . .

وعادت الفتاة تتلفت حولها في حيرة . . . وفى هذه اللحظة دخل مصطفى عبد العزيز ولحمة محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكاً عندما وجد الفتاة في البار وإستدار كأنه يحاول الهرب ، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها

المبارج ووجرت إليه ..

وعاد مصطفى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وسمعه محمود وهو يقول لها :

- لا شك أنك جنتت .. منذ متى تعودت دخول الباربات ..

وقالت الفتاة بصوتها كأنه تأهب للبيكاء :

- "جئت أبحث عنك .. يجب أن انتهى إلى حل .."

وقال لها :

- لا يمكن أن نجد الحل هنا في البار .. إني في انتظار بعض الأصدقاء

الآن لتتحدث في عمل .. اذهبي الآن .. وتلتي غدا ..

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما .. لقد عود أذنيه على الاستماع من بعيد

ويستطيع أن يوجهها في أى اتجاه لسمع ما يريد .. كأنهما عيناه .. إنه يرى

بأذنيه .. ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة

ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضاً حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحداث

الزبائن .. ومن خلال أذنيه رأى الكثير .. رأى صفقات تعقد ، ورأى حوادث

حب ، ورأى سرقات .. ورأى .. ورأى .. وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه

الفتاة .. والرجل يكذب عليها .. إنه ليس هنا للقاء أصدقائه .. إنه هنا

ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء .. وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب

كأساً تدفعه إلى الصدق .. لا تكذب على هذه الفتاة المسكينة .. لا تكذب ..

ورفع من كمية الويسكى التي تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليها نقطتين

من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول :

- لم أعد أحتمل الغد .. لقد أعددت كل شيء ..

وشرب مصطفى الكأس وقال ساخراً :

- ماذا أعددت .. أعددت فضيحة أم جريمة ..

وبكت وتساقط دموع صامتة على وجنتي الفتاة وقالت :

- ارحمى يا مصطفى واسمع لى ..

وتقدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلاً :

- أستاذ مصطفى .. اسمح لى أن أقدم لك نقرتي .. إني أحتفل اليوم

بملاذها .. فى مثل هذا اليوم ولدتها وجعلت منها أجمل كوكبيل فى العالم ..

كل الزبائن يجب أن يحتفلوا بنقرتي ..

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكى تهز لسانه :

- عجيبة .. لم أرك أبداً كريماً إلى هذا الحد ..

وتجاهله محمود والتفت إلى الفتاة قائلاً :

- والآنسة أيضاً .. يجب أن تحبى معنا نقرتي ..

ونظرت إليه الفتاة فى ارتباك كأنها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة

صاحبة قائلاً :

- اشربى .. لقد أصبحت أنت أيضاً من زبائن البار ..

وعاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أرادها .. الصبيل الذى قرر

أن يكتشف دواء للكذب ..

وشرب مصطفى ..

ثم مد يده وغضب الفتاة على أن تشرب .. لم تكن هذه هى عادة مصطفى

ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفاً مفضوحاً .. ولكنه تأثير نقرتي .. وقالت

الفتاة وهى تبتلع الكأس :

- إسمنى .. لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى تجمع من المال ما يكفينى ..

لقد جمعته أنا . . أخذته من البيت وحثت به إليك . .

وقال مصطفي وقد التوى لسانه :

- إن كل ما في بيتكم لا يكنى خطوة واحدة نحو المأذون . . ولو كان مأذون كلاب . .

ثم شد حقيبتها وفتحها والتقط ما فيها ثم صرخ ضاحكاً ضحكة سكري قائلاً :

- خمسون جنياً . . ها . . ها . . ها . . هل تعرفين كم أخرج في الليلة الواحدة من أى سائحة . . مائة . . مائتين . . أكثر . .

وقامت الفتاة وقد بدأ لسانها هي الأخرى يرتج :

- لا أعلم يا مصطفي . . ماذا تقصد . . هذا كل ما وجدته في البيت . .  
وقال السكران :

- البيت الذي ليس فيه إلا خمسون جنياً . . خرابة . . وأنا لن أتزوج ولو كان في بيتك ألف . . كفاني زواج . . الولية في بيت شبرا مطلمة ديني . .

وصرخت الفتاة :

- هل أنت متزوج . . متزوج يا مصطفي . . خدعتني . . ماذا أفعل الآن . .  
وقام مصطفي مترنحاً من فوق مقعد البار ، ووضع الخمسين جنياً في جيبه

وقال مترنحاً :

- عودي إلى بيتك إلى أن تجدى شيئاً آخر ثم تعود وتفكر . .  
وانطلقت الفتاة وهي تصرخ :

- خدعتني . . يا مجرم . . يا لص . .

ثم رفعت كفها وصفعتها بكل قواها . .

وابتسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفحة ، ثم قفز نحو الفتاة والرجل

وأمسك بهما في رفق وقادهما إلى خارج البار ، وقال هامساً لمصطفي :

- كن هادئاً . . رجال الأمن وراءنا . .

واحتقن وجه مصطفي بالذعر وانقاد إلى محمود وسعه الفتاة ، وفي زاوية بعيدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة . . وكانت العدالة التي أرادها عن

طريق نفرتيني هي أن تكشف الفتاة حقيقة مصطفي . . وقد اكتشفتها . .

هكذا كان محمود . البارمان المشهور . . ساق الخمر . . عيناه في أذنيه . . إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف . . المقدم

رفعت عبد اللطيف . . وهو زبون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة ، أى الزبائن الذين لم يظهروا إلا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه

بالنسبة للثورة . وهو زبون لبار طالما ظل محتفظاً بمنصبه ، فإذا ترك المنصب ترك البار . .

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتقى كل ليلة داخل البار مع صديق لم يكن أبداً من زبائن البار . . وعرف أن هذا الصديق هو أيضاً ضابط . .

ومع الوقت سمع اسمه . . سعيد المر . . وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار ناحية الركن البعيد . . وكان حديثهما غالباً أقرب إلى الممس حتى كان محمود

يضطر أن يبذل مجهوداً كبيراً ليلتقطه بأذنيه ، وبدأ يعتمد أن يرفع من نسبة الكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرفعها صوتيهما فيسهل سماعهما . .

ولم يبدأ اهتمامه بتوجيه أذنيه إليهما لمجرد أنهما من رجال الجيش ، ولكن لأنه سمع منهما بالصدفة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار .

كان المقدم رفعت يقول :

- لازم تخلص .. وتخلص بسرعة ..

وأجاب الرائد سعيد المر :

- السرعة ليست في صالحنا .. كل الدواهي سببها التسرع ..

وفي ليلة أخرى قال المقدم رفعت :

- الراجل بتاعنا افتتح .. لم يبق إلا تحديد الموعد ..

وسمع الرائد سعيد يقول :

- الجماعة بتوع سوريا مستعدين .. كنت معهم منذ ساعات ..

وبدا محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر .. ربما انقلاب .. ربما عملية

اغتيال .. وليس غريباً أن تتم لقاءات المتآمرين في بار .. بالعكس .. إن حوادث

خطيرة وهامة ترسم داخل البارات .. فهنا - في البار - يأمن المتآمر من عدم

إثارة الشبهة .. لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعاً خطيراً يمكن أن يعقد في بار ،

ولا حتى رجال البوليس .. فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا

أسرار البارات .. ومحمود ليس من رجال المخابرات .. ولا يدري إذا كان

بين زبائنه مخابرات ، أم لا .. وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تنهوا

إلى هذه المؤامرة أم لا .. وأذناه لا تكفان عن تتبع المقدم رفعت عبداللطيف والرائد

سعيد المر وتلتصقان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدري كيف يتصرف فيها .. إلى أن

سمع الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف :

- غدا سننشر في الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشفناه ..

من باب التغطية .. وسيستمر النشر .. وقد تم العملية يوم الرابع أو الخامس

من الشهر القادم ..

وأجاب المقدم رفعت :

- التحركات كلها حددت .. وعلى بركة الله ..

والدعاء تغلى في عروق محمود .. إنه لا يدري ماذا يفعل بكل هذا الذي

يسمعه .. بل إنه يراه .. إنه يرى ما يسمعه .. يرى بأذنيه .. يرى مصر تنقلب

أمام عينيه .. ربما كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذي يسمعه .. ماله

ومال البلاوى .. وأعد لنفسه كأساً من عصير التنازع المركز حتى يهدئ أعصابه ..

يجب أن يقتنع نفسه بأن كل هذا لا يهيم ، وليس من اختصاصه أن يهيم ..

إنه ليس مخابرات .. وهو يسمع أن البلد كلها غارقة في بحر من المخابرات ..

ويكفي الاتكال على المخابرات ..

ولكنه في صباح اليوم التالي فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس

الإسرائيلي .. إن الخطة تأكدت .. كل ما سمعه يحدث .. لم يبق إلا أيام

وتتم العملية .. ماذا يفعل .. كيف يتصرف .. إنه لا يريد أن يقوم انقلاب

في مصر .. إن مصيبة جديدة لن تحل المصيبة القائمة .. والبلاوى لا تحلها

البلاوى .. وفترة الفلاح الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه ..

ورغم ذلك كله لا يدري ماذا يفعل ..

إلى أن دخل إلى صالة البار بهجت شكرى .. إنه ليس من زبائن البار ولكنه

يتردد عليه في فترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق في إحدى المناسبات ..

وهو يعلم أنه يحتل مركزاً هاماً في مكتب الرئاسة .. ربما كان مدير مكتب ..

أو سكرتيراً خاصاً .. أو مستشاراً .. المهم أنه في أحد أركان الرئاسة العليا ..

ومس محمود في أذنه وهو يقدم له الكأس :

- أرجو أن تسمح لي بلقاء .. إنه موضوع هام ..

ورد بهجت ضاحكاً :

- إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود .. فماذا تريد أكثر ..  
 وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد :  
 - إنه موضوع لا يتعلق بى .. يتعلق بالبلد .. بالمصير .. وأفضل أن أراك  
 في مكتبك ..  
 ونظر إليه بهجت شكرى نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيراً فعلا ،  
 ثم قال وهو يحفظ ابتسامته :  
 - هل يهون عليك البار تتركه بعد نصف ساعة ..  
 وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه :  
 - ألا يمكن أن أتركه غداً صباحاً ..  
 وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر :  
 - إذا كان الموضوع متعلقاً بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد .. سأكون  
 في انتظارك في مكنتى بعد نصف ساعة وسأترك تعليقات بإدخالك فوراً ..  
 أمثالك ما محمود لا يؤجل لهم طلب ..  
 ثم قام بهجت شكرى وانصرف بسرعة خارجاً من البار ..  
 ووقف محمود متحمداً كأنه أصيب بالشلل .. ويقول لنفسه إنه مجنون ..  
 ألقي نفسه في مصيبه .. ماله ومال المصائب .. إنه ليس مسؤولاً عن إنقاذ البلد  
 من المصائب .. إنه لن يذهب إلى بهجت شكرى .. ولكنه لا يستطيع .. قد يرسل  
 وراءه البوليس للقبض عليه .. سيذهب ولكنه لن يقول شيئاً .. سيدعى أنه  
 كان يريد له حتى يتوسط له في شراء سيارة نصر ، أو استجار شقة .. ولكنه قد  
 يكشف كذبه .. واستسلم محمود .. استسلم لقدره .. وذهب إلى مكتب  
 بهجت شكرى الذى يقع بين مكاتب الرئاسات ..

واستقبله حارس من جنود الجيش .. صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط  
 الجيش .. وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب ..  
 لعلها غرفة انتظار .. وتركة الضابط وحيداً وخرج وأغلق الباب وراءه ..  
 وبضت أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيداً ، وأعصابه تنمزق ، وأنفاسه  
 تضيق وأوهام كثيرة تملأ رأسه .. وفجأة فتح الباب ودخل بهجت شكرى ..  
 دخل مرحباً مبتسماً وهلل في مرح :  
 - آسف .. تأخرت عليك .. ألم يقدموا لك شيئاً .. هل تريد كأساً من  
 الويسكى .. إنك الآن الزبون وأنا البارمان .. اطلب ما شئت .. وإن كنت  
 لن أستطيع أن أخدحك قدر خدماتك لنا ..  
 وقال محمود وهو يتلع توتر أعصابه ويحاول أن يتجاوب مع ابتسامة بهجت :  
 - ألف شكر .. أريد أن أقول ما عندى وأعود إلى البار .. تأخرت كثيراً ..  
 وقال بهجت في تواضع :  
 - آسف يا متر محمود لأنى أخرت عودتك .. احك لى ..  
 وبدأ محمود يحكى ، وربما كان قد قرر أن يكون حربصاً فى كل كلمة  
 يقوط .. ألا يقول كل شيء .. وألا يتهم أحداً .. ولكنه ما كاد ينطق حتى  
 غلبه حماسه ، وسيطرت عليه فكرة محاولة إنقاذ مصر من انقلاب آخر ، وانطلق  
 برورى كل شيء .. يصف كل ما رآه بأذنيه ..  
 وظل شكرى يستمع إليه صامئاً دون أن يرفع إليه عينيه .. ثم بدأ يسأله أسئلة  
 كثيرة قصيرة :  
 - منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام ..  
 ويحبب محمود فى حماس :



طويلة هؤلاء الناس .. إنهم يذبحون كل من يعلم شيئاً عن دنياهم حتى لو كان يحاول إنقاذ هذه الدنيا .. آخر خدمة الغز علقه .. وهو الآن في انتظار العلقه ..

صاح .. انتهى ..

ومحاة فتح الباب ..

ودخل بهجت شكرى .. وقفز محمود كأنما لسعته النار عندما رأى اثنين يدخلان معه .. المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر .. وارتعش .. لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه فسقط على مقعده كأنه انتهى ..

وقال بهجت شكرى فى هدوء :

- أرجوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك .. لا تخف .. إنه فقط أسلوب

المواجهة فى التحقيق ..

وقال محمود ولسانه يتلغم مع تمزق أنفاسه :

- أنا لم أتهم أحدا .. إنى فقط قلت كلاماً سمعته .. لم أقصد شيئاً ..

لم أقصد شيئاً ..

وعاد بهجت يكرر أمامه بعض ما قاله .. وهو يهز رأسه أحياناً .. وأحياناً

يعود ويقسم أنه لا يتهم أحدا .. وعيناه زائغتان .. تنتقلان فى فزع بين المقدم

رفعت والرائد سعيد ..

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود :

- ألا تذكر الرجل الأمريكى الذى كان يدخل البار كل مساء ..

وقال محمود وهو يطوى نفسه فى مقعده :

- أى أمريكى .. إنهم كثيرون

وقال سعيد المر ..

- منذ أكثر من شهرين ..

ويسأل بهجت :

- ألم تر أحداً ينضم إليهما فى هذه الأحاديث .. ؟

ويرد محمود :

- لا .. ولكن الرائد سعيد المر كان دائماً يبقى قليلاً ثم ينصرف فى خطوات

سريعة كأنه على موعد آخر .. وتتوالى أسئلة بهجت شكرى وترتفع درجة حماس

محمود فى إجاباته .. إلى أن استأذن بهجت :

- عن إذنك يا محمود .. سأعود إليك ..

وتركه وحيداً والباب مغلق عليه ..

وبضت نصف ساعة .. وبدأ محمود يتململ .. ونصف ساعة أخرى وبدأ

ينهار .. لعلهم سيتركونه هنا إلى الأبد .. لعله مسجون .. لعلهم نسوه .. وحاول أن

يفتح الباب فاكشف أنه مغلق بمفتاح أو تراساً .. ودق بيده على الباب .. وفتحه .

ضابط من ضباط الجيش .. لقد وضعوا عليه حارساً .. وقال الضابط فى رفق :

- هل تريد شيئاً ..

وقال محمود فى رعشة :

- أريد أن أخرج من هنا ..

وقال الضابط فى رفق :

- بعد قليل بإذن الله .. السيد بهجت مشغول قليلاً ..

ثم عاد وأغلق عليه الباب ..

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحاً .. ووصل محمود إلى حد الانهيار ..

إنه جالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع .. إنه يعلم

الحرى .. هكذا بلا محاكمة ، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن . كلمه  
سواء هناك ..

وفجأة ظهر محمود داخل البار ..

لقد عاد ..

وهو يقبل على الزجاجات والكؤوس فى لفة كأنه فنان يعود إلى فرشاته وألوانه  
بعد غيبة طويلة ..

واستقبله الزبائن بالتهليل ، ولكنه يتلقى تهليلهم بانتسامة باردة كأنه لا يسمعهم ..  
إنه لا يسمع فعلا ..

إنه يضع فى كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه  
كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء ..

لم يعد يرى بأذنيه ..

وبدأ يعود زبائنه على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات  
الشفاه .

وجاء بهجت شكرى ذات ليلة إلى البار وأخذ يبجلق فى محمود طويلا ثم  
أشار إليه ليتقدم نحوه وبدأ يتكلم .. قال له :

— أعترف أننا ظلمناك يا محمود .. ولكن الرئاسات أحيانا تضطر إلى  
الظلم .. وقد كانت المعلومات التى قدمتها لنا صحيحة .. وكان يجب أن نكافئك

على شهامتك ووطنيتك ، ولكن الخطة التى وضعناها كانت تفرض أن نظلمك وأن  
نقذف بك فى عملية انتحارية كأبطال الحروب .. فلو أننا تحركنا للقضاء

على المتآمرين فربما وقعت مصيبة فى الجيش لأنهم كلهم من الشخصيات الهامة  
التي كانت مسيطرة .. وفى الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا

— اسمه بيتر برسون .. لاشك أنك تعرف اسمه ..

وقال محمود :

— نعم أعرفه ..

وعاد سعيد المر يقول :

متى سافر بيتر هذا؟

وقال محمود :

— أول أمس على ما أعتقد ..

وقال سعيد المر :

— ألم تلتق معه فى حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضى ..

وقال محمود :

— إنه زبون صديق كبقية الزبائن ..

والفتت سعيد المر إلى بهجت قائلاً :

— كما قلت لك .. إنه تخطيط أمريكى .. والهدف واضح .. إثارة

الانقسام فى الجيش ..

وهز بهجت رأسه موافقاً ، ثم خرج الثلاثة من الغرفة ..

وفى الصباح وجد محمود نفسه فى السجن الحرى ..

ومضت أربع سنوات ومحمود مختلف عن البار ، وكل الزبائن يعتقدون

أنه سافر للعمل فى الخارج .. وتعدد القصص والحكايات .. إنه فى باريس ..

إنه فى أسبانيا .. إنه فى أستاليا .. لقد تزوج من أمريكية .. لقد أصبح مليونيراً

وافتح باراً فى هونولولو .. ولم يخطر على بال أحد من الزبائن أنه ملق فى السجن

مؤامرتهم لأننا لا نصدق ما اكتشفناه . . لذلك تركناهم يواجهونك ثم قبضنا عليك حتى تؤكد أننا لا نصدقك . . وقد نجحت الخطة . . فإنهم اضطروا أن يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا في وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافي حتى نصفي المتآمرين واحداً بعد الآخر في هدوء دون أن نعرض للجيش لأى ضجة أو انقسام . . أتدري أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف . . إنهما حيث كنت . . في السجن الحرى . .

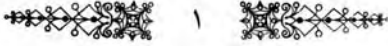
وانتظر بهجت شكرى أن يتكلم محمود . .

ولكنه لم يتكلم . .

لم يلاحظ بهجت شكرى أن محمود يسد أذنيه . . لم يعد يسمع شيئاً . .

لم يعد يرى بأذنيه . . لقد اكتشف طريق السلامة . . ألا يسمع حتى لا يرى . .

❖ الصيد في بحر الأسرار ❖



عزيزى الأستاذ . .

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسى . . وفى صيغة أكثر تواضعاً ، أنا موظف فى إحدى السفارات العربية . . ولا يهم أن أحدد لك الدولة التى تنتمى إليها هذه السفارة ، ولا فى أى عاصمة من عواصم العالم تقع ، فأنا لا أكتب لك لأدفعك إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية ، كما أنى لا أكتب لأشهر ببلدى أو بأحد من الناس . . إنما أكتب لأنى تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالباً عندكم فى مصر ، وكنت أقدر أنك فيما نكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين ما يمكن أن يقال همساً وفى داخل المجتمعات المغلقة وما يمكن أن يقال علناً وينشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أولاً تقصده . . أى ربما كنت مهتماً وربما كنت ساذجاً . . المهم ، أنى أكتب لك لأعرض عليك صورة من صور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك . . لا لأستعين بك على موقف معين ولا حتى لأستعين برأيك ، إنما أكتب لمجرد الكتابة . . أريد أن أسلى نفسى فى أوقات الفراغ ، أو على الأصح - أريد أن أخفف عن نفسى بعض ما أحمله من هذا الواقع ، أو لعلى أكتب لأجرب نفسى ككاتب قصة . .

اسمعى يا سيدى . .

إن منصبى الرسمى فى السلك الدبلوماسى هو منصب وزير مفوض . .

في خلال عامين اثنين ارتقيت من سكرتير ثان إلى وزير مفوض . . ويمكن أن  
تقدر ذلك على أنه اعتراف بثقافتى وكفاءتى ، فإنى أعتبر واحداً من قسم الطبقة  
المثقفة الضيقة التى يضمها مجتمع بلدى . . كما أنى لا شك أمتاز بمستوى عال  
من الكفاءة ، وأنا لست واحداً من أفراد الطبقة الحاكمة . . وهى طبقة أترك  
لك الخيال فى أن تتصورها فى شكل عائلة حاكمة ، أو فى شكل مجلس قيادة  
ثورة . . ورغم أن أبى مجرد تاجر عادى يعيش حياته فى دكان صغير داخل السوق ،  
إلا أنى منذ صباى استطعت أن أثبت وجودى بين أبناء الطبقة التى تحكم ،  
ثم استطعت أن أستمرد فى تعليم نفسى حتى تخرجت فى كلية الآداب ، قسم  
الفلسفة ، جامعة القاهرة . . فأنا أعتبر نفسى الفيلسوف الوحيد فى بلدى . . ورغم  
ذلك وحتى أكون واقعياً فإنى لا أعتبر أن ثقافتى أو كفاءتى كانت السبب الرئيسى  
فى هذه القفزات السريعة التى قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسى . .  
السبب فى تقديرى هو الخدمات التى أؤديها . . وحتى أكون أكثر صراحة معك  
فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية . .

إن مهمتى الرئيسية داخل السفارة بجانب المهام الرسمية الأخرى هى ما يسمى  
« العلاقات العامة » ولكنى تخصصت فى جانب خاص من هذه العلاقات ،  
وهى العلاقات النسائية . . علاقات مع نوع معين من النساء . .

هل فوجئت ؟

هل دهشت ؟

يا صديقى إن العلاقات النسائية تمثل جانباً هاماً رئيسياً من نشاط أى سفارة  
من سفارات العالم ، وهى - ولا شك أنك تعلم - علاقات تستغل إما لتجنيد  
بعض النساء للتجنس لحساب الدولة ، وإما لتوفير المتعة لبعض الشخصيات

الكبيرة من أهل البلد الذين يزورن السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية فى الخارج . .  
تتط من باب إكرام الضيف . . ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب  
المخابرات الملحقة بالسفارة ، وإما أن تتولاها السفارة نفسها عندما لا يكون بها  
مكتب مخابرات ، كسفارتنا . .

هل تذكر الضجة التى قامت فى القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس  
سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيلتون ، وطلب أن تلحق به بعد سفره ، ورفضت  
الحكومة المصرية السماح لها بالسفر . . هذه القصة منذ بدايتها كانت لا يمكن  
أن تتم إلا تحت إشراف الجهاز الدبلوماسى الذى يتبع الرئيس سوكارنو ، والخطأ  
الذى وقع فيه هذا الجهاز هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس ، وهو نفس السبب  
الذى جعل الحكومة المصرية ترفض السماح للفنائة بالسفر ، مداراة وتغطية  
للفضيحة حتى لا تصبح قصة دولية ، وإلا فلا أعتقد أن أى دبلوماسية كانت تضحى  
بصدقة زعيم عالمى كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة فى فندق ، وأن  
سوكارنو كان مشهوراً عالمياً بأنه زير نساء . . وأكثر من ذلك . . ألا تذكر  
القصص الكثيرة التى عرفت ونشرت عنك من عن النساء اللاتى كن يقدمن إلى  
بعض الشخصيات العربية الزائرة ، وقيل إنه كان من بينهن بعض الفنانات المشهورات  
وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية تلتقط مواقف خاصة جارية لهذه الشخصيات  
وهم فى حالات شاذة مع هاتيك النساء . . إن ما أعرفه أن هذه العمليات لم تكن  
مقصورة على الشخصيات العربية فحسب ، هناك شخصيات غير عربية  
أيضاً . . شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق . . المهم . . إن ما يشغل فكرى  
كلما تذكرت هذه القصص هو أن أتساءل : أين ذهبت الصور الفوتوغرافية  
التي التقطت . . إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة ابتزاز لملايين من

العملات الصعبة .. ولكنى أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أعدمت فإنه يحتفظ بها في أعماق بئر الأسرار حرصاً على العلاقات الدبلوماسية .. المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التي تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية ، فإن أى شخصية لها قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح في حماية السفارة .. ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضاً الحماية الاجتماعية والحماية من النزوات الخاصة ، أى أن من حق السفارة أن تتدخل في اختيار الزائر لمجال ممارسة حياته الخاصة ، فإن الحياة الخاصة هي الباب السهل الذى تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية ..

أريد أن أقول لك إن تخصصى في العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء ، ليس عملاً مشيناً ولا ينطبق عليه اللقب الذى تستعملونه في مصر وهو لقب « قواد » .. لا .. لا .. ابصقها من فمك .. فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التى تتطلب حماية الشخصيات الهامة في بلدك رغم أن دوافع تصرفات هذه الشخصيات التى تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا الوطنية ..

وسدقتى عندما أقول لك إنى لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يخطر ببالي ولكنى وجدت نفسى فيه .. وعندما عينت في السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سناً ، ولا أبالغ إذا قلت إنى كنت الصورة الأكثر وسامة وانطلاقاً بينهم ، فإن حياتى الطويلة في مصر ورحلاتى إلى الخارج جعلت منى شاباً يتميز بقبول اجتماعى أكثر من أى شاب في بلدى .. أنا لست مغروراً ، وأنت لا تعرفين ولن أفصح لك عن اسمى أو شخصيتى حتى أتباهى أمامك بالغرور .. ولكن هذا هو الواقع .. وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التى تضم السفارة

بالحياة الجنسية المفصوحة التى تعيشها هذه العاصمة .. وهى حياة مخصصة ليعيشها السياح والأجانب .. إن أحد العناصر الرئيسية في عملية التنشيط والدعاية السياحية التى تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس .. ولذلك فإنى أنصح وزارة السياحة في مصر أن تقاوم الدعوة التى نسمع عنها والتي تدعو إلى إغلاق ملاهى شارع الهرم ، كما أنصح بوليس الآداب المصرى ألا يفرض تدخله في هذا المجال و أن يتبع اللوائح الخاصة بنوادى القمار .. فالقمار في مصر وفي كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلا للأجانب ، أى للسياح ، فلماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار ، وكلاهما حرام ، وكلاهما رجس من عمل الشيطان .. أعرف أنك تلوى شفتيك امتعاضاً وأنت تقرأ هذا الكلام ، ولكنى أعتبرك كاتباً واقعياً وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية .. إلى منتهى الواقعية .. على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التى يعرضون بها الجنس في هذا البلد .. في الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذى يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البدئية .. وعندما دخلت نادياً ليلياً أى « كباريه » وجدتهم يضعون النساء خلف نافذة زجاجية كأنها « قترينة » فكان لبيع الأحذية تقع في جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل ويتلقى الحذاء الذى يعجبه أفصد المرأة التى تعجبه ليأخذها ويجلس معه على مائدته ، وفي الحمامات الساخنة المخصصة للتدليك نفس الشيء .. نساء خلف قترينة زجاجية تنتقى من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك .. محلات تجارية تعرض بضاعتها في قترينات زجاجية كما تعرض الأحذية واللحوم في دكاكين بلادنا .. وعلى قدر ما فوجئت إلا أنى اكتشفت فيما بعد أن هذه الوسيلة من وسائل العرض تتكرر في أكثر من بلد سياحى ، بل إنى رأيت الوسيلة نفسها تتكرر في ميناء هامبورج بألمانيا

الغريبة.. وصدقني أنها وسيلة قرزنتي. ولم أترك نفسي أبداً تنجذب إليها.. كنت أحس أني لو أخذت واحدة من هاتيك النساء فكأنني وقفت معها أمام الناس داخل القترينة.. ولكني كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتي اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعني إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء، وهذا الصنف قادني إلى صنف أرقى لا يعرض في القترينات.. وكنت قادراً على أن أجمع بيني وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرقى من الجنس، بل إنني أعطيت نفسي حق الظهور معهن بعيداً عن مجال عملهن في دعوة إلى الغداء أو في رحلة خارج العاصمة..

المهم..

لم يكن قد انقضى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور على وصولي إلى السفارة.. لم أكن قد عرفت بعد كل ما يعيشه المجتمع الدبلوماسي.. وكان قد زارتنا شخصية رئيسية من الطبقة الحاكمة، وكان السفير يقيم حفل عشاء خاصاً لهذه الشخصية في داره.. وكنت أنا وحدي في الغارة عندما وصلت بريقة هامة يجب أن أحملها فوراً إلى السفير في بيته.. وذهبت إلى البيت، وعندما وصلت إلى الباب وصلت معي سيارة السفارة ونزلت منها واحدة من النساء اللاتي عرقتن يرقصن عاربات في أحد البارات.. وكانت تعرفني.. وظنت أنني أحد المدعوين إلى بيت السفير.. وحاولت أن تهلل لرؤيتي وتفضح معرفتي بها.. ولكني صددتها بقاء رسمي مبالغ فيه وأسكتها وكتمت تهليلها، ثم تركتها تدخل إلى البيت ووقفت أنا على الباب إلى أن استدعاني السفير واستقبلني في غرفة مكتبه بعيداً عن مجال الحفل حيث سلمته البريقة..

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهني إلى مجال تخصصي..

وبعدها بأيام استدعاني السفير وقال لي ضاحكاً:

- يبدو أن البلد أعجبتك جداً..

قلت:

- جداً باسيادة السفير، ولكني مازلت في مرحلة الاستكشاف..

وقال وضحكته تعلقو:

- إنك على الأقل اكتشفت حتى الآن أجمل نساها، لقد رأوك أمس

مع فتاة قالوا إنها رائحة.. حلوة.. تمنجن..

قلت وأنا أurd على ضحكته بابتسامة:

- عرقتها مصداقة و..

وقاطعني قائلاً:

- دح الصدق تشملنا.. ادعها الليلة.. ونسهر معاً..

قالها ببساطة كأنه يلقي على أمر إدارياً.. وقد دعوت الفتاة بالفعل وخرج معي للقائها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت.. وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكلفة بيني وبينه، وأنه يريد أن يشاركني في هذا الجانب من أعمال السفارة الذي كان هو نفسه يعانى منه من طول ما تحمله من مسئولياته ولعجز باقي موظفي السفارة عن مزاولة العلاقات النسائية بمستوى راق.. كان السفير يريد أن يمنحني فرصة التجربة ليختبرني.. وهي ليست فرصة سهلة، إنما فرصة تعطيك الحق في أن تستولي وتحفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التي تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة في بلدك..

ويجحت في التجربة . .

واكتسبت ثقة السفير واعتماده على ، بل إن السفير أصبح في يدى لأنه هو الآخر له أسرار شخصية جارحة حصلت عليها من خلال العمليات التي كنت أقدمها له واحتفظت له بها في بئر الأسرار ، والذي يملك بئر الأسرار يملك كل من له سر . .

وكانت الشخصيات الزائرة التي تفد من بلدى تنقسم إلى أنواع :

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلاً أو مبتدئاً في حياة الليل ، ولا يزال جاعاً إلى كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها ، وهو نوع كنت أكتفى بأن أصبحه إلى الحانات والكباريات والحمامات فيبهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلقى نفسه فوقها بشرافة دون أن يطلب أى إعداد خاص . كالحرص على التستر ، أو إحاطته بجو ومزاج معين . . وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين ، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كباراً فجأة . . ولم أكن أبذل اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الزوار ، بل في الغالب كنت أترك الاهتمام به إلى سكرتيرى الخاص . . وسكرتيرى الخاص ليس من بلدى ولكنه من بلد عربى آخر ، وقد اخترته غريباً حتى لا أترك لأحد من موظفى الوزارة فرصة التلمذ على يدى في علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضى على ويحل محلى كما يحدث غالباً . .

أما النوع الثانى من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة والذي شبع من حياة الليل السهلة ، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات ، وهو ما يجعل الإهتمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة في بيوت خاصة ، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر ، لأن هذه البيوت ، أو على الأصح البيوت التي كنت أختارها

لهذه الشخصيات الهامة ليست بيوتاً مفتوحة لأى زائر . . إنها أقرب إلى بيوت الجيشتا في اليابان ، عندما كان للجيشتا تقاليد واحترام وقيل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سياحية أقرب إلى دكاكين خان الخليلي عندكم . . وفي مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر . . موسيقى ، رقص ، غناء ، عشاء . . وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه ، ويستطيع أن يطلب أى شىء وكأنه صاحب البيت . . يملكه ويملك من فيه . . ولذلك قلت إن الزائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيراً . .

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم . . النوع الذى يشمل الشخصيات الرئيسية في بلدنا . . وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالى . . لا يكلف السفارة بأن تحقق له متعة خاصة ، احتراماً لمركزه وحرصاً على مظاهر تقاليد الحكم . . كما أن أحداً لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل النكتة أن يوفر له هذه المتعة . . ليس من حتى كمشئول عن العلاقات العامة أن أغرى شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أنه يتنى مثل هذه الليلة الخاصة ، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائراً إلا بعد أن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتعة التي أقدمها . . وعلم العلاقات العامة ينصحك في مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئاً ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعى الذى يتيح له فرصة الاختيار . . اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد . . وتحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك في اكتساب صداقة نوع معين من العائلات . . إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها ، أو مراكز ليست رسمية ، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعى ، وتساؤها على استعداد للاشتراك



في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير .. كتحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلاً ، أو المساهمة بالوساطة في صفقة ضخمة .. وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائلي يقيمه السفير تكريماً للضيف الكبير .. حفل خاص لا يدعى إليه أحد بصفته الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيين .. وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالجو الاجتماعي المرح المفتوح الذي يشجعه على أن يطلب .. أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يطلبها .. وغالباً ما ينتهي الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره وسامته وذكائه وأنه فتاك نساء ، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أن يستدعيني ل لقاء خاص ويهمس في أذني بما وصل إليه وكأنه يطعنني على سر خطير لا علم لي به ، حتى أعد له المكان الخاص الذي سبيلتي فيه مع هذه السيدة ..

ومثل هذه العمليات التي تم عن طريق صداقة العائلات المحلية لا تتحمل ميزانية العلاقات العامة تكاليفها .. ولكن قد يتم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية مسرة يقوم بها رجل العائلة ، وفي الغالب تنتهي العملية بهدية ثمينة تساوي آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة ..

هذه هي الأنواع الثلاثة من الشخصيات التي كنت مسئولاً عنها . وقد حققت لحسابي أرباحاً كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها في بئر الأسرار وأصبحت أقض بكل سر على عنق واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبني ويتقني .. ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفزات السريعة فوق السلك الدبلوماسي والتي وصلت بي في خلال عامين إلى رتبة الوزير المفوض ، ولكنني استفدت كثيراً من الوساطة في تحقيق صفقات متعددة .. وأستطيع أن

أقول الآن إنني وصلت إلى مستوى الطبقة الحاكمة حتى ولو كنت لا أعتبر سياسياً من بينها ..

وفي داخل السفارة كانت هناك شخصية مضت فترة طويلة وأنا حائر فيها .. وهي شخصية زوجة السفير .. إنها تعرف كل شيء .. وفي بيتها وفي حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التي حدثت عنها .. وكانت تستقبل أنواعاً من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من يبين أدنى أنواع المحترفات من فتيات الحانات والحمامات إلى أن تحملت أنا المسئولية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء في الحفلات العامة أو الخاصة والاقتضار على المحترفات الراقيات .. وقد قدرت أولاً أن الزوجة التي تقبل كل ذلك في بيتها لا بد أنها زوجة سهلة ، بل إنني قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزاول نفس ما تسمح به .. إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هي الأخرى نفس الحياة .. وحاولت كثيراً أن أكشف عن حياة خاصة تعيشها .. أن ألقى بها في بئر الأسرار مع باقي الرجال والنساء .. ولكني لم أكشف ولم أعرف لها سراً .. وأكثر من ذلك ، حاولت أنا نفسي أن أصل إليها .. إنني كما قلت لك أتمتع بمجازية الوجود .. مجرد وجودي يشد أي امرأة .. ومع هذه المجازية استعملت كل مواهي حتى أشد إلى السيدة زوجة السفير ، ولكنني فشلت .. وقد كانت متنبهة إلى محاولاتي وكانت تقابلها باتسامه هادئة صامته تثير الاحترام لا التشجيع .. وأخيراً خرجت من حيرتي إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة .. سيدة كاملة .. وأن سكوتها على ما يجري في بيتها هو استسلام لحكم الوظيفة كزوجة سفير ، كما وأن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذي ارتبط به أهلها .. وقد استطاعت بهدونها واستسلامها

للسواق أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات وتصف المحترفات والهواة . .  
صداقة قائمة على مجرد الاحترام . . وكانت عندما يقام حفل في السفارة تتعمد  
تجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء ، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة  
يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل في هدوء ، وتصحو في اليوم التالي  
دون أن تسأل أحداً أو تحاسب أحداً عما تم . . وأصبحت هي الشخصية  
الوحيدة التي أحترمها فعلا داخل السفارة بل ربما في البلد كله الذي أقيم فيه . .  
أصبحت صديقتي النظيفة . . أختي . . وكانت هي وحدها التي تعلم علاقتي  
مع بهاناي . .

وصدقتني عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذي يحيط بي وأعيشه لم تكن لي  
أى علاقة خاصة مع أى امرأة ، حتى ولا علاقة ليلية واحيدة . . ربما لأنى  
أغار على جسدى وأجمل به تكلمة لعروى بنفسى وكان هذا الجسد شيء  
غال لا يبتذل . . إلى أن قابلت بهاناي . . إنها امرأة من تايلاند . . فيها الجمال  
الأسمر البودى الذى تشتهر به بنات جنوب شرق آسيا . . الشعر الأسود الناعم الذى  
ينساب في غزارة كشلال الليل . . والقوام المشوق الصغير كأنه تحفة صاغها  
فنان ليعلقها على صدره . . والأسنان البيضاء الناصعة التي تشرق مع ابتسامها  
كأنها تضئ لك الطريق إليها . . وبهاناي من عائلة كبيرة معروفة في تايلاند ،  
وأنها تمتلك أكبر محل أزياء هناك ، وأبوها يملك مصانع للغزل ، وقد سافرت  
بهاناي إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال في جامعة بوسطن ، ولكنها كانت تقاوم منذ  
صغرها إلحاح الفن عليها . إنها فنانة . تخنى وتعزف على البيانو . . وهي تقاوم هذا الفن  
حتى تستمر في الطريق الذى ينجح فيه أبوها وأمها . . طريق إدارة المصانع وبيوت  
الأزياء . . ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهى في الجامعة ، في أمريكا ، تزوجت

أميلاً لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدتين ، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيداً  
منها وتربطها أكثر بواقعها . . ولكنها عجزت عن الاستمرار . . وقيل أن تحصل  
على الشهادة الجامعية في إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة  
وبدأت في دراسة الموسيقى . . فيها . . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيقى ،  
ورفض زوجها فتركه . . إنه لا يساوى شيئاً بجانب إحساسها بفنها . . ووليدها  
تركها في بيت العائلة . . وهى تجوب عواصم جنوب شرق آسيا وتغنى ، وقد قابلتها  
وهى تغنى في صالة صغيرة في أحد الفنادق الكبرى وشدتنى إليها . . شعرها . .  
وابتسامها التي تشرق في لونها الأسمر . . ورغم ذلك فعندما بدأت أتحدث إليها  
كانت لا تزال تغلبنى مسئوليتي عن العلاقات العامة في السفارة فدعوتها إلى حفل  
خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز :

وقالت بهاناي من خلال ابتسامها :

- هل يفهم الضيف هذا النوع من الغناء الذى أغنيه ؟

وتعجبت للسؤال وقلت في وقاحة :

- لا أعتقد . . ولكن لا يهم الغناء . . يكفيك أنك جميلة ومن هذا النوع  
من النساء ! ! .

وقالت بهاناي ضاحكة :

- إذن تستطيع أن تدعو صديقتي دانيل فهى تصلح أكثر لهذه  
الدعوات . . إلى حتى لو اعتبرتنى جميلة فأنا مملعة عندما أكون مع من لا يفهمنى . .  
والشئ الجديد الذى طرأ على أنى لم أحاول استعمال مواهبى لإقناعها بقبول  
الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتها فعلا ، وبدأت من يومها أتردد كل ليلة  
على الصالة التي تغنى فيها وأحاول أن أفهمها . . وفهمتها وفهمتى . . وارتبطنا بعلاقة

لا أريد أن أقول إنها علاقة حب .. ولكنها علاقة راحة .. كل منا يرتاح إلى الآخر ويتمتع بصحته ، بكل ما تطلبه المتعة .. وأكثر ما يريح هو الفهم المتبادل .. ولم تكن بهاناي امرأة شريفة بالمعنى المفهوم للشرف في بلادنا .. إن الجنس في جنوب شرق آسيا ليس موضوعاً يستحق كل هذا الاهتمام ، وليس علاقة تفرق بين الشريف وغير الشريف ، وقد تكون بهاناي تعطى نفسها لرجال آخرين مع ارتباطها في .. هذا لا يهم .. ولكن المهم أنها امرأة غالية .. ليست محتاجة .. إنها قد يعزبها بالعباءة الثمن الكبير جداً ، أو الصدفة التي لا تستطيع أن تقاومها .. وقد عرف أعضاء السفارة ، علاقتي ببهاناي ولكني لم أكن أسمع لأحد بأن يحدثني عنها إلا لصديقتي زوجة السفير ، وكانت هي التي تختار لي الهدايا التي أهديتها لبهاناي .. وقال لي السفير يوماً :

- أئن تدعو المرأة التي تعرفها في إحدى جلساتها ..

وقلت في برود :

- إنها مملّة لا تصلح لأي جلسة ..

قال وهو ينظر إلى في غيظ :

- لعلك تغار عليها ..

قلت ضاحكاً :

- الغيرة غير معروفة في هذه البلاد .. المرأة هنا لا تستحق الغيرة ..

وأنتي السفير الموضوع ربما لأنه راعي ألا ندخل في نقاش قد يفسد علاقتنا خصوصاً بعد أن أصبحت أنا الأقوى ، واكتنيت بأن ذهب معي مرة لستمع إلى غناء بهاناي ، ولم يعلق بشيء ، لم يبد إعجاباً حتى يجاملها وطبعاً لم يتأثر بشيء من غنائها .. إلى أن حدث وجاءنا ضيف كبير مهم ..

وتعبت في وضع كل مواهيبي في خدمته .. قدمت له نساء أكثر من عائلة معتمرة في أكثر من حفل خاص .. لا شيء .. وتجارت ودعوته إلى البيوت الخاصة ، وقبل الدعوة .. ولكن لا شيء .. وخيل لي أنه قد يكون لا يزال محتفظاً برعونة الشباب فدعوته إلى حمامات التدليك ، وقبل الدعوة أيضاً وأبدى دهشته وانبهاره بما يراه .. ولكن لا شيء .. وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لا يريد أكثر من هذه المجتمعات والمشاهدات البريئة فاسترحت من محاولة إرضائه وتكريمه ..

وكان الضيف المهم يقم في نفس الفندق الكبير الذي تغنى فيه بهاناي ، وفي الليلة الأخيرة قبل سفره كان الضيف ومعهم السفير عائدين إلى الفندق وأنا معهم واقترح عليه السفير أن يدخل به إلى الصالة الصغيرة التي تغنى فيها بهاناي ، وقبل الضيف المهم ، وما كادت عيناه تغقان على بهاناي وهي تغنى حتى استقرنا عليها .. لا يجولهما عنها .. لا يريد أن ينظر إلى أي شيء آخر من حوله .. وإذا تحدث إليه السفير استمع إليه دون أن يحول نظره عن بهاناي .. وحاولت أن أبدأ أسرد عليه مجموعة من النكات لعل الضحك يشده بعيداً عن بهاناي ، ولكنه لا يضحك ، وإذا ضحك لا يحول عينيه .. ثم قال وهو يجفّف لعابه من فوق شفثتي بلسانه كأنه انقلب إلى وحش جائع :

- هذه امرأة حلوة ..

وقال السفير ضاحكاً

- اتفضل سيادتلك .. بالهناء والشفاء ..

وقال الضيف من فوق لسانه المدلى :

- هل يمكن ..

وقال السفير :

إينسا بيتنا بهاناي لا تزال تغني وقد بدا عليها التعب من طول ما تغني . . . وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانوبلي :

هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصاً عندما علمت أن سيادتك هنا . . . ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناي وقال السفير ساخطاً :

— إتنا لا نريد هذه . . .

قلت في بأس :

— إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهي بهاناي من الغناء . . .

واضطرت بهاناي أن تنتهي ، على الأقل لتستريح ، واضطرت إلى أن تنجي إلى مائدتنا بعد كل هذا السخاء المجنون الذي أحاطها به السفير ، ونظرت إلى كأنها تسألني ماذا تفعل ، وأدرت عنها ناظري بسرعة حتى لا يتهمني السفير بشيء أو يلحظ الضيف الكبير شيئاً . . . ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناي والضيف الكبير فهو لا يعرف أى لغة يمكن أن يتحدث بها إليها ، وتولى الحديث كله السفير ، وقال لها إن الضيف الكبير يهमे أن يخجل بها لأمر هام . . . وضحك . . . وقالت بهاناي وهي تبتسم :

— هذا يشرفني . . . ولكن الساعة الآن الثالثة صباحاً . . . ويجب أن أجتمع مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغاني الجديدة . . . لنجعل لقاءنا غداً . . .

وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ :

— إنه يسافر غداً . . . تعالى . . . وأفراد الفرقة يمكن أن ينتظروك . . . وسنعوضك ونعوضهم بما تريدون . . .

ثم قام واقفاً وشد بهاناي من يدها ، واستسلمت له كعادة أفراد هذا الشعب ، وحتى لا تثير أى مشكلة مع ضيف كبير من نزلاء الفندق. وقال السفير للضيف الكبير :

— طبعاً يمكن . . . ثم نظر إلى وقال كأنه يصدر أمراً سلطانياً :

— أدعها إلى المائدة . . .

قلت كأني أتوسل إليه :

— إنها مملّة . . . وسيقرف منها سيادته .

وقال السفير كأنه يصرخ :

— إدعها . . . لا تكن مجنوناً . . .

وقلت في استسلام :

— حاضر . بعد أن تنتهي من الغناء . . .

وناديت المشرف على الصالة وهمست في أذنه . أن يذهب إلى بهاناي ويطلب منها ألا تكف عن الغناء ، ولم تكف فعلاً عن الغناء ، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التي يتبعها أثرياء العرب في الكباريات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية . . . ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوي ما قيمته مائة جنيه وحاول أن يلمصها على صدر بهاناي وعندما تراجعت عنه وهي تضحك أخرج ولاعته وأحرق الورقة النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها ، وكل من في الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناي ، وانطلق حولنا كثير من الضحك والتصفيق لحركات السفير ، فأمر بدعوة كل من في الصالة على حسابه . . . كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل ، ثم قمت بسرعة وطلبت من الجرسون أن يدعو دانوبلي صديقه بهاناي إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتتقد بهاناي من هذا الاهتمام . . . ولكن دانوبلي لم تكن في الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها في مكان آخر وجاءت

- اتفضل سيادتك ..

ثم صحبها والضيف بجانبها وأنا أتبعهم سائراً خلفهم في صمت ضعيف كأنني قد انهرت وانهتت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف ، ودفع السفير بهاناي إلى جانبه . وقال ضاحكاً :

- الدور التاسع .. لاتنس سيادتك .. غرفتك في الدور التاسع ..

ووقفت أنا والسفير وبهاناي تبتمس لي من بعيد ابتسامة ضعيفة كأنها تشفق بها علي ، وباب المصعد يفتح في وجهينا - أنا والسفير - ويرتفع بالضيف ومعه بهاناي

ونظر إلى السفير في شماته كأنه انتصر علي .. وسار خارجاً من الفندق وركب سيارته دون أن يدعوني كعادته للركوب معه ..

ولم أتم ليلتها ، لا لأنني كنت أعاني أمراً عاطفياً من أجل بهاناي .. قلت لك أنه لم يكن ما بيني وبينها حب .. ولكنني كنت أعاني الإحساس بأنني فقدت مركزي .. فقدت سيطرتي على مثل هذه المواقف التي تدخل في صميم اختصاصي .. لست أنا الذي حقق رغبات الضيف الكبير .. لست أنا الذي حمل بهاناي إليه .. إنه السفير .. كان السفير طردني من وظيفتي واستولى على اختصاصي لنفسه .. معنى هذا أني خيبة .. أني فاشل لا أستطيع أن أقدر وأتصرف وفقاً لتقدير صحيح .. والواقع أني أخطأت في تقدير موقف بهاناي ، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التي وجهتها إليها لحضور حفلات السفارة ، أو لحضور الجلسات الخاصة ، بل رفضت حتى زيارة زوجة السفير .. وصحيح أني كنت أستسلم ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن احتفظ بها لاستعمالي الخاص ، ولكنني لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب للإحاح أو محاولة أحد

غيري .. وقد استجابت للإحاح السفير .. أي أني في الواقع لم أكن أحاول أن أحرم الضيف من بهاناي ولكنني كنت أحاول أن أحويه من رفضها .. ولكن .. أما غبي .. ولأنني غبي انتصر تقدير السفير للموقف على تقديري .. إلى أن كان الصباح ..

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بجو غريب من التوتر ، وعرفت أن السفير وزع سخطه ولعناته على كل الموظفين منذ وصل ، وعندما دخلت إليه في مكتبه وجدته واقفاً يستعد للخروج ، ولم يمد يده لمصافحتي ، بل لم يرد على تحييتي ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الفندق الذي يقم فيه الضيف الكبير ، فقلت له :

- هل ألحق بك ؟

وقال كأنه يصرخ في وجهي :

- لا .. انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك ..

وأسرع خارجاً كأنه يرفض أن يناقشني ، وانتظرت طويلاً وأنا حائر فيما يمكن أن يكون قد حدث ، ثم لم أعد أحتمل الانتظار وذهبت لألتقي بالضيف الكبير .. وكان في الجناح المخصص له مجتمعاً مع السفير ، ودخلت إليهما بلا استئذان فإن مركزي يعينني من الاستئذان ، وبمجرد أن دخلت رفع إلى الضيف عينيه كأنه دهش لوقاحتي ، وقال بسرعة :

- من فضلك .. انتظرنا في الخارج ..

وانتظرت ولم يدعني أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السفير في طريقهما إلى المطار دون أن يلتفت أحد منهما إلي .. ركبت سيارتي وليس معي إلا سيكرتيري الخاص جالساً بجانب السائق وذهبت إلى المطار .. وعندما اصطفنا بجانب

الطائرة مع المدعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليمر بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه ، لمس يدي الممدودة لمسة سريعة دون أن ينظر في وجهي ..

وسافر الضيف الكبير عائداً إلى بلدنا ..  
وعرفت بعدها كل شيء ..

لقد هربت بهاناي من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص ..

وقد استقبلت الخبير يفرحة .. فرحة استعادت ثقتي بنفسى ، ووثقتى في بهاناي ..  
إن تقديري لم يكن خاطئاً ، وبهاناي لم تتحل عنى .. ولكن هذه القرحة طارت بسرعة وحل محلها الخوف .. الخوف على مستقبلى كله .. ترى ماذا قال السفير للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث .. وقد أسرعت أولاً إلى بهاناي أسألتها ، فضحكت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروى نكتة :

- لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مفاتيح المصعد ثم غافلته في نفس اللحظة وضغط على مفتاح الدور الخامس .. وعندما وقف المصعد حادثته باللغة التيلاندية وأنا أخرج وبقيت أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد وأنا واثقة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انغلقت باب المصعد وصعد به وحده إلى جناحه في الدور التاسع .. ولم أنزل أنا في المصعد الآخر ولا على السلم العمومي خوفاً من ألتقي بك أو بالسفير في بهو الفندق ولكنى نزلت من سلم الحريق ..

قلت :

- أنت مجنونة ..

قالت :

- إنى لم أوافق أصلاً على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذى دفعنى دفعا إلى المصعد .. ثم ماذا بهم .. إن ما يريد منى يستطيع أن يناله من أى امرأة .

لم أشعر أنى حرمته من شئ مهم .. هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التى لا يفهمها .. لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه .. كنت أقول له إنى آسفه لأنى متعبة وأنا نستطيع أن نلتقى فى موعد آخر وأنى أعتز بإعجابى بى .. كنت أقول له مثل هذه الكلام .. و .. وقاطعتها :

- الكلام الذى لا يفهمه .. إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لى لو أطلق مثل هذا الرجل غضبه على ..

وقامت وجلست فوق ساقى وأسقطت صدرها على صدرى وقالت وشفتها تقتربان من شفتى :

- لا تهتم .. أنا المسئولة عن كل ما يحدث ..

وقد اجترت فعلاً كيف أتصرف ، فقد عرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير أنى أعتبر هذه المرأة - بهاناي - ملكاً خاصاً لى ، وأنى أرفض حتى دعوتها لإحياء الحفلات الرسمية فى السفارة لمجرد إلقاء أغانيها ، وأنه - أى السفير - واثق أنى أنا الذى حرصتها على أن تهرب منه ..

وكان معنى هذا أن أنتظر طردى من السلك الدبلوماسى أو على الأقل نقلى إلى بلد مقطوع الصلات من بلدان أفريقيا مثلاً ، وقد تصب على لعنة أكبر من ذلك . وفكرت أن أكتب تقريراً خاصاً أرسله إلى الشخصية الهامة التى عجزت عن أوفها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسى .

وفكرت أن أعود بنفسى إلى بلدى وأحاول أن ألتقى به وأشرح له كل الظروف التى أحاطت بالموقف وأثبت عدم تقصيرى فى ممارسة العلاقات العامة أو تدخلها أى تدخل مضاد ..

إلى أن استشرت صديقتي زوجة السفير التي أحترمها وأعتز برضاها عني . . .  
فقلت لي في بساطة :

- أرسلها إليه . . .

قلت :

- كيف ؟

قالت وهي تنظر إلى كأني طفل صغير لم يتعلم بعد :

- لا أدري كيف . . . ولكن اقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت خصيصاً للقائه بعد أن وقعت في غرامه . .  
وبهت بالفكرة ، وقبلت يد السيدة المحترمة شكراً وامتناناً ، وأسرعت أجزى إلى بهاناي ، وقلت لها وكأني أهت من ضغط حيرتي وخوفي :

- لقد قلت لي أنك المسئولة . . وإني مهدد بالطرد من وظيفتي بسببك . .

قالت من خلال ابتسامتها :

- ماذا بهم . . إن وظيفتك تحيطك بقيود ثقيلة الدم . . إبحث عن عمل آخر . .

إنها لا تعلم أن وظيفتي ليست مجرد مناصبي في السلك الدبلوماسي ، إن هذه الوظيفة هي التي أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التي أصبحت بها واحداً من كبار الأثرياء . . وهي لا تعلم أن طردى معناه أني أصبحت مبعداً عن أصحاب الحكم والمبدعون في بلادنا لا يستطيعون الحياة إلا اعتماداً على أموالهم المهرية ، فإذا لم تكن لهم أموال مهربية عاشوا على الاستجداء . . إن المبدأ في بلادنا معناه أنه وصل إلى قيمة الصفر ، حتى أني أحياناً تغلبني هوايتي للفلسفة الاجتماعية وأفكر في أن أطالب الدولة بافتتاح ملجأ للمبشرين كمالجئ الأيتام . .

وقد قلت كل ذلك لبهاناي حتى أقنعتها بأن كل حياتي أصبحت في خطر إلى أن اقنعت قائلة :

- ماذا تريدني أن أفعل . .

قلت في حماس :

- تسافرين إلى بلدي وتلتقيين به هناك . .

قالت في تردد :

- ولكن إن . .

واقطعها :

- سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذي تحصلين عليه من هنا . . ليس فقط قيمة مرتبك من إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجبين . . وهناك في بلادنا إذا نجحت في الوصول إلى صاحبنا فتني أنك ستعودين مليونيرة

ووافقت بهاناي ، وأقنعت نفسي أنها وافقت لا طمعا فيما وعدتها به ولكن حباً في شخصي الضعيف . . وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة . . إنها سترسل خطاباً إلى الشخصية الهامة الكبيرة - ولاحظ أني أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفضح نفسي - تعتذر له فيه عما حدث ، وتضمنه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه ، وتقول إنها حتى تؤكد إعتذارها فقد قررت أن تزوره في بلده . . ولا بهم بعد ذلك أن تنتظر رداً . . يكفي أن تنتظر مدة كافية حتى تطمئن إلى وصول الخطاب وبعدها تسافر ، ويكون سكرتيرتي الخاص قد سافر قبلها ليجهد لوصولها ويدرس الموقف ويتصل بي لتحديد هل تسافر بهاناي وتقدم نفسها كفتانسة أجنبية وتتفق على إحياء وضع حفلات في الفندق الكبير هناك ، أم تصل كمجرد سائحة دون أن ينتبه أحد إلى وصولها بحيث يبتى اتصالها بالشخصية الكبيرة سراً . . ثم بعد أن

يا عزي الأستاذ .

لا أريد أن أطيل عليك فعندي ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك ،  
وقد نجحت الخطة التي وضعتها مع مهاى ، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات  
العامة التي حققتها . . . وقد التقت مهاى هناك - في بلدي بصاحب الشخصية  
الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد ، وأعطاهما أكثر مما أرادت وما كانت  
تحلم به ، واستطاعت أن تبدد كل شكوكه التي ثارت حولي ، وأن تحمو الصورة  
التي رسمها لي السفير ، وعاد سكرتيرى الخاص وروى لي كل التفاصيل التي  
كانت تبلغها له مهاى أولاً بأول ، وأصبحت مطمئناً إلى مستقبلى ومطمئناً إلى  
أن الشخصية الكبيرة قد عادت وهدأت داخل بئر الأسرار التي امتلكتها . .  
أما مهاى نفسها فإنها لم تعد . . . سافرت إلى أوروبا بعد أن انتهت زيارتها لبلدي ،  
وقطعت اتصالاتها بي . . . لم أعد أعرف عنها شيئاً ولا أهتم بأن أعرف شيئاً . .  
وكانت علاقتي بالسفير مستمرة في توترها إلى أن بدأ يأس من صدور  
قرار بنقل من السفارة أو بإحالتى إلى ملجأ المبعدين ، فبدأ يلين معى ويعود إلى  
نعمد إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر مهاى إلى البلد ولقائها  
بالشخصية الكبيرة وقدر أنى دائماً أقوى منه وأذكرى منه في التخطيط الدبلوماسى ،  
فلم يحاول أن يسألنى أو يناقشنى أو يحاسبنى على إعطاء « فيزا » للدخول دون علمه  
أو علم أحد من موظفى السفارة ، حتى لا يثير بينى وبينه أزمة جديدة ، وعاد إلى  
أضعف مما كان ، وكنت أشفق عليه لأنى كنت واثقاً أنى أنا الذى أستطيع أن

تقرر كل ذلك وبعد أن تنجح في لقاء صاحبنا فقد إتفقت معها على تفاصيل  
الكلام الذى يجب أن تقوله له . . . يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إليه إلا عن طريق . .  
طريق أنا . . . أنا الذى أعددت كل شيء . . . أما السفير فهى ترفض دائماً  
الاتصال به لأنه حاول معها كثيراً وكانت تصده . . . وكلام كثير قدرت أنه  
يخدمنى ويبعد عنى شر السفير . .

وسافرت بهانى فعلاً إلى بلدي . .

سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيتها « الفيزا » دون إذنه ودون أن يعلم بهذه  
الفيزا أى واحد من السفارة . .

هل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهانى ؟ كلفتنا حوالى ستين ألف  
دولار . . لا يهم . . وأنى أعلم أنها لو نجحت في مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه -  
أى من أموال الدولة - على أكثر من ذلك بكثير . .

المهم أنى كنت أعيش منذ سفرها في انتظار الأخبار . .

أعيش كأنى في انتظار كلمة القدر . .

وعلاقتي مع السفير تتوتر يوماً بعد يوم ، ولولا أنه واحد ممن أحفظ بهم في بئر  
الأسرار لما حاول أن يراعى معى حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التي تجمع بين  
السفير والوزير المفوض . . إنه أيضاً في انتظار أخبار . . أخبار نقلى أو إحالتى  
إلى ملجأ المبعدين . .

إنى في عذاب . .

عذاب الانتظار لتتائج أذى خطة دبلوماسية وضعتها في حياتى . .



أنقله أو أحيله إلى ملجأ المبعدين فإنى أملك أسراره وأسرار الذين يملكون حتى الإطاحة بأى موظف فى البلد . . أنا صاحب بثر الأسرار . . ولم يعف السفير من غضبى إلا تقديرى واحترامى للسيدة زوجته . . لولاها لأطحت به . . ولكن . .

صدقتى أنى بدأت فى هذه الأيام أزرق وأقرف من نفسى ومن كل ما يحيط بى . . أزرق وأقرف من عملى . . بدأ إحساسى بأنه عمل قدر يؤرقنى ويعذبنى . . ومع اعتبار أنه عمل وطنى ، إلا أن كثيراً من الأعمال الوطنية تفرض الإلتجاء إلى القذارة . . كالجاسوسية مثلاً . . إن التجسس سواء فى المجال الخارجى أو المجال الداخلى لا شك أنه يعتبر عملاً وطنياً رئيسياً ولكنه لا شك أيضاً أنه عمل يعتمد على عمليات قدرة ، وأخطر ما يهدد الجاسوس فى عمله وفى مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قدر . . إن الجاسوس الناجح القوى هو الذى لا يتأثر بأى إحساس بالقذارة ، بل يؤدى أقدراً مهمة وهو ملئ بالإحساس بأنه فقط يؤدى مهمة وطنية ، كالمقاتل الذى لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدى خدمة لبلده . . كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصاً الجانب النسائى منها ، لا شك أنها عمليات وطنية كما سبق أن شرحت لك ، رغم كل ما فيها من قذارة ، المهم ألا تنحس بهذه القذارة ، ولكنى بدأت أحس بها . . بدأت أفقد متعة الاهتمام بالعمليات التى أقوم بها ، وبدأت أهرب من كثير من هذه العمليات ، وأدعى المرض حتى لا أشارك فى استقبال كبار الوافدين من بلدنا . . وبدأت أتمنى الراحة . . الراحة النفسية والراحة الذهنية . . أريد أن أحاول تحقيق حلمى القديم عندما كنت لا أزال طالباً فى الجامعة عنديكم ، وهو أن أستمر فى دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراة وأصدر عدة كتب ، لا تزال تنقصنا تشمل فلسفة المجتمع العربى . . على الأقل أريد أن أرفع نفسى عن مستوى القذارة . .

ولم يكن هذا سهلاً . . إن الحياة التى تعودتها استولت على ، والنجاح الذى حققته وما جمعت من ورائه من أموال أصبح أقوى منى . . إن الإنسان الناجح لا يشبع أبداً من النجاح ، ولا يكتفى أبداً بثره . . ليس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء ، ولذلك لم أستطع أن أتخذ قراراً بتغيير شخصيتى الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيداً عن القذارة والقرف ، كل ما استطعت هو أن أمنح نفسى أجازة ، وحتى هذا لم يكن سهلاً ، فخلال السنوات الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسى لم أمنح نفسى أجازة بل أنى كنت أتنازل عن الأجازات الرسمية . .

وقررت أن أقضى الأجازة فى اليابان . . أقرب بلد إلى مركز عملى . . وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات فى عمليات سريعة خاطفة ، ولكنى أذهب هذه المرة فى أجازة . .

وقررت أن أخفى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أكون وحدى بعيداً عن جو الرسميات وبعيداً عن كل ما يذكرنى بعملى ، وقضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالكتبات وأجمع الكتب التى أرى أنها يمكن أن تساعدنى على استعادة اهتمامى بدراسة الفلسفة ، ثم أتعمد أن أقضى الليل وأنا أحاول أن أقرأ . . وصدقتى . . لم أعد أستطيع القراءة . . ليس فقط لأن لغتى الإنجليزية ازدادت ضعفاً ، ولكن لأنى فقدت التعمد على القراءة . . فقدت قدرتى على تركيز عقلى فيما أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أفرض على نفسى القراءة كأن فى داخل طفللاً صغيراً يشده أبوه إلى المدرسة غضباً عنه . . وكنت خلال النهار أتردد أحياناً على دكان داخل الفندق الكبير الذى أقيم فيه مخصص لبيع آلات التصوير والأفلام . . كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب

هواية التصوير . . وعرفني صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذي كنت أقضيه معه وهو يطلعني على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير . .  
وكنت يوماً في دكان الصور الفوتوغرافية . .

ودخلت فتاة رائحة ليست يابانية وقدرت فوراً من لهجة حديثها أنها أمريكية . .  
لم تكن مجرد فتاة جميلة ، ولكن كان فيها نوع من جمال الرفع والتعالى . . نظرات  
عينها تحيط بكل ما حولها في ثقة وغرور كأنها موكب رسمي يتقدمها . . وأصابع  
يديها رفيعة طويلة تحمل بينها خاتماً ماسياً لا يقل حجمه عن ثلاثة قراريط تحركها  
كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذي تريده . .  
وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضاً وتسير خلفها وقدرت أنها لا شك سكرتيرتها  
أو وصيفتها . .

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان في لهجة أمّرة رغم نعومتها ،  
وكانت تلموه على آلة سبق أن باعها لها ، وقالت في بساطة كأن من حقها أن تبين  
شعب اليابان كله :

- إنكم هنا تنقلون كل جديد يظهر في أي مكان من العالم ، ولكن عيبكم  
أنكم تنتظرون أكثر من أسبوع حتى تصلوا إلى الجديد الذي يظهر بعده في حين أن  
ما بعده يظهر بعد يوم واحد . .

وقال صاحب الدكان في احترام كبير وهو ينحني برأسه وظهره عدة مرات  
على الطريقة اليابانية :

- هذه آخر آلة وصلتنا . . وصلتنا أمس . .

وبسرعة كان ذكائي كله قد يجمع وتركز حول هذا الجمال المتعالي ،  
فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التي أحملها وكان يعرضها على منذ دقائق :

- ولكنك قلت لي إن هذه الآلة وصلت اليوم لا أمس . .  
ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلاً وأنا أقدم لها آلتى :

- أعتقد أنها تختلف . .

ونظرت إلى نظرة سريعة أحسست أنها طوقفتي بها كلي كأنها التقطت كل  
مقاساتي ، ثم مدت يدها وأخذت مني الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة  
في علم التصوير ، ثم قالت :

- فعلاً إن فيها شيئاً جديداً مختلفاً . .

واستمر بيننا الحديث . . أنا وهي وصاحب الدكان ، بيننا الفتاة الأخرى  
صامتة لا تتكلم كأنها في انتظار أوامر سيدتها . . وفي خلال الحديث قال لها  
صاحب الدكان مشيراً إلى :

- إنه عربي . .

وتفتحت عينها في ومضة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلاً وقالت :

- هل صحيح . . أنت عربي ؟

قلت ضاحكاً :

- نعم . . ولكني من بلد ليس فيه بترول . .

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقني :

- هل هناك بلد عربي لا يملك البترول . .

قلت :

- كثير . .

ولا أدري ما الذي دفع ذكائي إلى الكذب عليها ، ربما لأنني كنت أريد  
أن أقنعها بأنني أرقى من أبناء دول البترول العربي ، أو أنني أردت أن أقدم لها نفسي

على أنى أعتد على ثقافى وعملى لا على دخلى من البترول ، أو ربما أردت أن أختبرها  
لأكتشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتى يندفن وراء إغراء رجال البترول ،  
أقصد ، فلوس البترول ، أم أنها ليست من هذا النوع . . امرأة شبعانة . . ومن  
يدرى ربما كانت هى نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول . .  
وقلت متودداً :

- ألم تذهبي إلى إحدى الدول العربية . .

قالت :

- لا . .

قلت :

- يشرقتى أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهى تهم بمغادرة الدكان :

- إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل . .

قلت :

- هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير . .

ونظرت إلى نظرة احترت فيها ، هل هى نظرة فرحة أم نظرة ساخرة ، وقالت :

- إنك تقمى فى نفس الفندق . . أليس كذلك . . ما هو رقم غرفتك

لأنصل بك . . .

وأعطيتها رقم الغرفة ، وتركتنى بعد أن لفتنى بابتسامتها . . وأحسست فعلا  
أنى ملفوف فى هذه الابتسامه حتى خيالى لفته معها ، وبدأت أنحيل بها كل مستقبلى . .  
إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية . . إنها مليونيرة أو ابنة مليونير . . وهى

فرصة لأفتح لنفسى مجتمعاً جديداً ومستقبلاً جديداً . . قد أتزوجها . . لماذا  
لا أتزوج . . إن هذا النوع من النساء الذى كنت أتعامل معه كان ينفردى من  
التفكير فى الزواج ، كان يدفعنى إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع ،  
ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع . . وحتى لو كان لها ماض  
فلا يمكن أن تكون محترفة ، والنساء فى المجتمعات المتقدمة لا يحاسبهن أحد على  
الماضى ولكنهن يحاسبن على المستقبل . . فلنفرض أن لها ماضياً . . لا يهم . .  
أتزوجها . . وبعد أن أتزوجها يصبح من حقى بحكم القانون الأمريكى أن أحصل  
على الجنسية الأمريكية . . أى أنى لا أتزوج هذه وحدها ولكنى أتزوج أمريكا  
كلها . . وأحسست بفرحة تملأ صدرى كله وأنا أنحيل نفسى وقد أصبحت أمريكياً ،  
وربما تلومنى على هذه الفرحة لأنى أعلم أنك متزمت فى وطنيتك ، ولكن التجنس لم  
يعده اليوم علاقة بالوطنية ، أصبح أشبه بعقد عمل . . تعطيك الدولة التى تحمل  
جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا ، وتستطيع فى الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك  
الأصلى بكل عواطفك وأن تبرع له بكل ما تريد التبرع به حتى لو تبرعت له  
بروحك فى قتال . . هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية . .

وكل هذا الفكر يسيطر على خاطرى وأنا جالس فى غرفتى بالفندق فى انتظار  
دقات جرس التليفون لأسمع صوتها . لا أستطيع القراءة طبعاً . . ولا أستطيع أن  
أشغل فكرى بأى شىء آخر . . إن كل فكرى مركز فى مشروعى الجديد . .  
والساعة وصلت التاسعة مساء وجرس التليفون لم يندق . . وبدأت تقضى فى نفسى  
تهتز . . تقضى فى وسامتى وقوة الجذب التى يقرضها دائماً وجودى . . ربما كانت  
هذه الفتاة أقوى من قوة جذبى . . لا يمكن أن تطلينى بعد الساعة التاسعة . .  
فات الوقت الذى يمكن أن تنق فىه على لقاء سهرة . . وخرجت من غرفتى وذهبت

إلى « بار » الفندق وأنا أتلفت حولى فى كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن  
نجمعنا المصادفة مرة ثانية .. ووجدت نفسى أستسلم لكؤوس الويسكى على  
غير ما تعودت .. سكرت وعدت إلى فراشى وأقيت نفسى عليه كأنى أصبحت  
جثة هامدة ..

وفى اليوم التالى ، وبعد أن تغلبت على الصداع الذى تركته فى رأسى كؤوس  
الويسكى ، عدت أفكر فى هذه الفتاة الأمريكية .. هل أتصل بها .. إنى  
أطيع أن أعرف رقم غرفتها لو أردت .. ولكن هل أتصل بها .. لا .. إن اتصالى بها  
يضعفى أمامها .. لأنتظر اليوم أيضاً ..  
ويجحت بانتظارى ..

دق جرس التليفون فى الساعة السابعة مساء وقالت كأننا أصدقاء قدماء :  
- أنا جوانا .. أين كنت ليلة أمس .. اتصلت بك فى الساعة العاشرة  
ولم أجدك ..

قلت :  
- انتظرتك حتى التاسعة ثم بیست ..  
قالت :  
- آسفة .. تأخرت عليك .. كنت مشغولة ..  
قلت :  
- سأراك الليلة .. أين ؟

قالت :  
- فى جناحى الخاص .. هنا ستجد كل شىء .. ونستطيع أن نتعرف  
أسرع ..

قلت :

- موافق .. وسعيد ..

قالت :

- ولكن .. هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجراج ..

ولم أفهم شيئاً وقلت فى سذاجة :

- آسف .. ماذا تقولين ؟

وكررت نفس الكلام :

- هل أمرت السائق بأن يضع سيارتى فى الجراج

وعدت أقول :

- لا أفهم .. أى سائق وأى سيارة ؟ !

وضحكك ضحكة خافته وقالت فى صوت هادئ :

- نسيت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير .. إنى أريد أن أقول لك

إنى سأكلفك كثيراً ..

قلت وأنا أحاول أن أنكر ما سمعته :

- ماذا تقصدين ؟

قالت :

- الجناح الذى نلتقى فيه له ثمن .. والطلبات لها ثمن .. وأنا لى ثمن ..

وأحسست كأن زلزلا ثار فى داخلى وهدم كل خيالى وكل خواطرى وقلت

والصدمة ترك فى لسانى طعم الخيبة والقرص :

- آسف .. وقد سبق أن قلت لك إنى رغم أنى عربى فإنى من دولة ليس فيها

بترول .. لست غنياً .. وقد جئت إلى طوكيو مدعواً وأقيم على حساب الدعوة .

وليس في جيبي إلا ما يكتني مصروفى الخاص ..

قالت والأسف يقطر فعلا من كلماتها :

- خسارة .. لقد أعجبت بك فعلاً منذ رأيتك .. اسمع .. إن أقل ما أستطيع

أن أقبله هو خمسمائة دولار .. هل تستطيع ؟

وقلت وأنا أكبت غيظي من خيبي :

- أرجوك ، دعيني أفكر ..

قالت في بساطة :

- سأنتظر منك تليفوناً حتى الساعة الثامنة .. وأنا آسفة .. ويجب أن تقدر

أن الحياة مكلفة ..

وتركتني أقام آثار هذا الزلزال الذى أطلقته في صدري .. ويبدو أن كل

نصبي في الحياة هو هذا النوع من النساء .. يبدو أن قوة الوجود التى أدعيها

لنفسى لا تؤثر إلا في هذا النوع ، فلم تنجذب إلى أبداً فتاة ليست محترقة أو ليست

على استعداد للاحتراف .. ولكنى لم أكن أعتقد أن هذا يمكن أن يكون نصبي

حتى مع فتاة أمريكية أتقى بها في طوكيو .. والحضارة الأمريكية مسيطرة

سيطرة كاملة على اليابان .. كل الحياة في اليابان تأمرت .. ولكنى لم أكن

أعتقد أن الأمريكان استولوا على كل شيء حتى على أسواق الدعارة ..

وربما كانت جوانا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي يسمونهن في أمريكا

« فتيات التليفون » وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية

حتى وصلت بنفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيشا

فتؤمركها هي الأخرى ..

ولكن لماذا أقام نصبي في الحياة .. لماذا أعود بنفسى إلى أيام الطفولة

الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هي مجموعة من المبادئ العامة ..

الشرف .. الأمانة .. الوطنية .. الحرية .. و .. و .. وأترك هذه

المبادئ العامة تشعرني بأني أقوم بأعمال قادرة .. إن الدعارة ليست أكثر قدرة

من القدرة السياسية أو القدرة الاقتصادية التى تعيشتها المجتمعات الرسمية والراقية

في كل أنحاء العالم .. المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد

ولا تخدع أحداً ، إنها تمارس الخطيئة وهي متحملة كل مسؤولياتها حتى أمام الله ، أما

السياسى الداعر أو الاقتصادى الداعر فهو يكذب حتى على الله .. يكذب ،

ويؤذى .. وحتى بالنسبة لنفسى .. ما هو أشرف لى كعمل أتحمّل مسؤوليته ..

أن أعد ليلة يقضيها أحد المسؤولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحيمه من امرأة

أخرى قد تكون جاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدى ، أم أشرتك في عملية

اقتصادية أحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبي .. إنى في

العملية الأولى يسمونى « قواداً » وفي العملية الثانية أسمى « إقتصادى » أو رجل

أعمال .. أيهما أشرف لى لأكونه .. قواداً أم رجل أعمال إذن لماذا أقرز من

جوانا بعد أن أكتشفت أنها تحترف الدعارة .. لماذا لا اعتبرها مجرد سيدة أعمال

وأصطفاها لأتقى بها طعماً في بحر الأسرار .. لقد كنت أريد أن أعتبر نفسى

في أجازة .. لا لست في أجازة .

والثورة على نفسى تستبد لى إلى أن رفعت سماعة التليفون واتصلت بجوانا

وقلت في لهجة جادة سريعة كأنى أصدر قراراً خاصاً بصفقة هامة :

- أعددت ما تظلين .. متى أفاك :

قالت كأنها تزغرد :

- رائع .. أعفيتنى من حيرة البحث عن آخر .. أنتظرك التاسعة ..

وذهبت إليها . .

إنها هي حتى بعد أن عرقتها على حقيقتها . . الجمال الرائع المتعالي الراقع المتعفف . . وكان كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفة مجارية شريفة لا تؤثر في هذا التعالي والتعفف . . وأصابعها الرفيعة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يديها كأنها تعرف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذي تريده ، وكأنها رغم احترافها لا تعترف إلا باللحن الذي تريده . . والجناح الذي تقيم فيه هو نفس الجناح الذي يمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تعتمد أن تضع نفسها في نفس المستوى وهي واثقة دائماً بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى . . إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتي سبق أن حدثتكن عنهن . نفس مستوى الخطيئة الغالية . .

وأخرجت من جيبي بمجرد أن جلست مظروفاً يحمل الدولارات وقلت :

— حتى أطمئنتك . .

والتقطت المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرفيعة وقالت في تأفف متعال :

— شكراً . .

ثم ألقت المظروف على مائدة بعيدة ، وقلت :

— أرجو أن تفتحه وتعدى ما فيه ، فقد أعطيت أكثر حتى تعطيني أكثر . .

وكنت قد وضعت في المظروف ألف دولار بدلا من الخمسمائة التي طلبتها ،

ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيداً وقالت وهي تقترب مني وجسدها العاري

يبدو من خلف الثوب الشفاف كشعاع من النور :

— لا يهم ما تعطيني وما أعطيتك . . الذي يهم هو إحساسك وأنت تعطيني

إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة ،

لأنه رسم الأولى بناء على طلب زيون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه . . كل

شيء في الحياة فن . . والفن إحساس لا يمكن أن تقدر له ثمناً . .

واستدارت تعدى كأس الويسكي ، وقلت :

— وهل أنا زيون أم إحساس . .

قالت وهي تقدم لي الكأس ثم تجلس بعيداً على المقعد المقابل :

— أنت أعجبني وأثرني منذ رأيتك . . تركتني أحس كأنني أريد أن أكتشف

علماً جديداً . . ولا أدري إلى ماذا سيؤدي هذا الإحساس في الساعات التي نعيشها

الآن . . ربما اكتفيت بك كزيون تشرفت به وربما أثرتني كإحساس يتعلق بك . .

هكذا كانت تتكلم . . فلسفة صريحة راقعة لا تعتمد على كلمات مزيفة

ولا آراء عامة . . إنها تقول في صدق كل ما تحس به فعلاً .

واستمر حديثنا طويلاً وكأننا في جلسة عائلية تضم زوجاً وزوجة في إحدى

ليالي شهر العسل ، إلى أن قالت خلال الحديث :

— هل تعرف فهمان اليارجي . .

وبهت كأنني أقفز بصوت من فوق مقعدي :

— هل تعرفينه ؟

قالت في هدوء :

— عرفته بعض الوقت في بوسطن . . إنه ذكي وكريم . .

واستعدت صورة اليارجي في خيالي . . إن كل الناس تعرف فهمان اليارجي ، إنه

أنجح رجل أعمال عربي بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالميين . .

وقد بدأ نجاحه معتمداً على نفس العلم الذي أعتمد أنا عليه ، علم أو فن العلاقات

العامة ، والاتصالات الشخصية . . ورغم أنني لا أعرفه شخصياً إلا أنني كنت أعتبره من

بعيد أستاذى ، وأعتبره الأمل الذى أتمنى تحقيقه ، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحياناً ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه غيرتى أو حقدى . وربما كان يمكن بالعمليات التى أقوم بها أن أصل إلى مستواه ، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحقق مثلها حتى اليوم . . عمليات الأسلحة . . إنك لا تدري كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح . . ربما أكثر من عشرة ملايين دولار . . إن هناك صحفياً شاباً فى إحدى البلاد العربية أستطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ما كسبه صحافة بلده - كصحافة - فى عشر سنوات . . وآه لو استطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة . . تكفينى عملية واحدة وبعدها أتوب إلى الله . . وجوانا كانت تعرف فهمان البارجى ، ولا بد أنه استخدمها فى بعض عملياته . . أى أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة فى فن العلاقات العامة ، وفهمان البارجى لا يمكن أن يستخدم أحداً سواء كان رجلاً أو امرأة إلا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريد منه . .

وبسرعة انقلب تفكيرى كله وانحصر فى موضوع واحد حتى أنى لم أجد أرى جسد جوانا العارى من خلف ثوبها الشفاف إنما عيناى مركبتان فوق جبينها كأنى أحاول أن أقبس ذكاهها وأحاول أن أقتع نفسى بالاطمئنان ، ثم قلت لها :  
- جوانا . . لقد كذبت عليك . . فأبى لست هنا فى طوكيو بناء على دعوة . . إنى فى جولة حرة . . وأنا وزير مقوض فى السلك الدبلوماسى فى بلدى . . والأهم من ذلك إنى رجل أعمال . .

ولم تدهش جوانا وهى تسمع اسم بلدى رغم أنى كنت قد ادعيت أمامها أنى مصرى حتى لا تعتبرنى من أبناء البترول ، وكأنها كانت تعرف الحقيقة ، وقالت وكأنها تربت على خدى بإبسامتها الحلوة المترفة :

- ولماذا كذبت ؟

وقلت ضاحكاً :

- كنت أريد أن تقعى فى حبى لا فى ثرائى . .

قالت :

- وهل الحب لا يكون إلا مع الفقر . .

قلت :

- لا . . ولكنه لا يشتري . . والرجل الغنى كالفتاة الغنية كل منهما يعانى من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله . .

قالت :

- إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة فى مستوى واحد ، فإذا كان

فقيراً جمعهما الفقر ، وإذا كان مليونيراً فيجب أن يرفعها إلى مستوى المليونيرات . .

هل أنت مليونير ؟

قلت :

- على وشك أن أكون . .

قالت :

- ولماذا قررت أن تصارحنى بالحقيقة . . حقيقتك ؟

قلت وأنا أنظر إليها كأنى أغربها :

- لأنى فى حاجة إليك ، وقد استطعت بسرعة أن تقنعنى بنفسك . .

وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال فى حاجة إلى من تساهم معه فى مسؤولياته

الاجتماعية . . وأريد أن أعرض عليك أن تنظر لى . . أقصد للعمل معى . .

ونظرت إلى كأنها تحاول أن تعرفنى أكثر وقد نسبت هى الأخرى جسدها العارى

تحت ثوبها الشفاف ، وقالت :

- كيف .. كيف أنفرغ لك .. لملك تقصد ألا أكون لرجل آخر ..

وأجبتها كأني أنني تهمة :

- لا .. قلت إنى أريدك أن تنفرغى لى فى العمل لا أن تنفرغى لى فى الفراش ..

وعادت تنظر إلى صامته نظرة طويلة ثم قالت :

- موافقة .. إنها فكرة تستحق التجربة ..

قلت فرحاً :

- والتجربة تبدأ بأن تعتبرى كل تكاليف إقامتك فى طوكيو على حسابى

الخاص ، أقصد على حساب مكنتى ..

قالت وهى أيضاً فرحة :

- هذا يعينى من البحث عن أى رجل آخر .. أستطيع أن أنفرغ لك فعلاً ..

فعلاً ..

قلت :

- وبعد يومين سأعود إلى مقر عملى ، وتعودين معى لتقييمى هناك ..

قالت :

- ولكنى كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو ..

قلت :

- أسافر معك ..

قالت :

- لا .. إنى مرتبطة هناك بمواعيد سبق أن حددتها قبل أن نتعارف ..

قلت :

- المهم أن أكون معك فى بلد واحد ..

قالت :

- الأفضل أن ألتحق بك فى أى بلد تكون فيه .. ولن أغيب فى هونولولو

أكثر من ثلاثة أيام ..

ونظرت إليها كأني أشك فيها حائراً فى نواياها ثم قلت :

- موافق ..

وأقنعت نفسى بأنه لا يهيم أن تغيب وحدها بعيداً عنى فى هونولولو فالخطة

كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لى كما أنها تجربة بالنسبة لها ..

وقلت وأنا أنرك مقعدى وأقرب منها وأشدها إلى صدرى وأصل بكفى إلى جسدها

العارى من تحت ثوبها الشفاف :

- دعينا نوقع عقد الإنفاق ..

وأخذت شفتيها .. أول شفاه أمريكية أندوقها .. إن الشفاه الأمريكية لها طعم

مفر جذاب يتغلغل على طعم الاحتراف .. وأعطينى جوانا ليلتها أضعاف

الأحاسيس التى كانت تعطينى لى مهاياى ..

إن ما تعطيه تابلاند شيء وما تعطيه أمريكا شيء آخر ..

\*\*\*

وفى صباح اليوم التالى ونحن لا نزال فى الفراش قالت لى جوانا :

- لقد تذكرت شيئاً ربما يهيمك ، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض

الرجال الأمريكان وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدرى ما هى ، وكانوا يتحدثون

عن مشاكل يواجهونها فى بلدك بخصوص إحدى العمليات .

قلت وأنا مازلت أمطى :



- أى نوع من العمليات ؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذى يشتمل نشاطاً بمجرد أن يفتح عينيه :

- لا أدرى . . ولكنى أستطيع أن أدعوهم الليلة هنا على كأس شراب وأقدمهم لك وتفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول ، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ فهسان البارجى . .

وقد تركتها فى الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ . .

عقد سوار وخاتم وحلق . . كلفنى حوالى عشرة آلاف دولار . . كان يجب أن

أجدها بأقوى خيوط الإغراء . . وفى المساء عرفنى فى جناحها الخاص بالذين

حدثنى عنهم من رجال الأعمال الأمريكان ، وقدمتى إليهم كأنى أملك كل مصير

بلدى . . وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنابيب ومعدات خاصة

بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم ، برغم أن شركتهم معروفة عالمياً

بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضاً أقل تكلفه . . و . . إنها عملية

تساوى ثلاثة ملايين دولار ، وعمولتها تصل على الأقل إلى مائتين وخمسين ألف

دولار . . .

واتفقت معهم على أن أتحمّل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم ، وأن

يلتقوا بى بعد خمسة عشر يوماً فى مقر السفارة ، وقلت ضاحكاً كأنى أتى مجرد

نكتة :

- لقد ظلمت نفسى عندما قبلت منصب وزير مفوض ، فإن عملى فى

الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإنى أعتبر أن حتى يضع عندما

لا أحصل على العمولة كاملة . .

وقالوا فوراً :

- طبعاً . . طبعاً . . هذا حقك . .

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة جرت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة لوكلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا ينالهم إلا جزء من العمولة . .

وقد تفرغت لى جوانا فعلاً خلال الأيام التى قضيتها فى طوكيو ، وكنت فى كل

يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليلالى الجسد ، إن فى داخل رأسها ثقافة

كاملة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة ، وبلغت فرحتى بها إلى حد أن أقنعت

نفسى بأنى لست بالنسبة لها مجرد رجل بل إنها تحبى ، أو على الأقل تميزنى عن باقى

الرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيهم . . ولم يكن يبدو

عليها أبداً افتتال أى شىء . . إنها حتى وهى تحدثنى فى مجالات العمل لا تنبأهى

بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلتقى على درسا بل تبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأياً

عادياً ، ثم وهى تعطينى . . إنها لا تفتعل . . لى لا أحس بها أبداً كإمرأة مأجورة ،

كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبى . . ولكن البساطة التى تعطى بها هى التى تجعلنى

أحس بأنها تريدنى كما أريدها . . إلى أن سافرت إلى هونولولو فى هذه الرحلة

الغامضة التى فضلت أن تقوم بها وحدها . . ربما خطر على بالك أنها قد تكون

جاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية « لا بهم » فإنى لا أملك من أسرار

بلدى السياسية أو الاقتصادية أكثر مما يملكه أى شخص فى الشارع ولا أكثر مما ينشر

فى الصحف . . لا يمكن أن يكون بلدى مثل بلدى أسرار ، إن الأسلوب الذى نتعامل

به لا يترك مجالاً للأسرار . . لا أسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية . . أسرار

الفرش . .

لذلك ، فإني لست مستعداً أن أتخلى عن جوانا حتى لو كانت جاسوسة . .  
وقد تركت طوكيو وعدت إلى السفارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة في  
أفخر أحياء البلد لتقيم فيها جوانا عندما اتصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة في  
تحمل تكاليف إستئجار هذه الشقة . . وقد تولى شفتيك إمتعاضاً وأنت تسمع منى أنى  
أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة . . يا أستاذى العزيز إن ميزانية العلاقات  
العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب ، وهذا في كل بلاد  
العالم حتى عندكم . . قد يأتى إليكم زائر أجنبي صغير . . وكيل وزارة مثلا . .  
وتضطر الحكومة أن تقيم له حفل عشاء ، فمن تدعو إلى هذا الحفل ؟ إنها تدعو على  
الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهمهم شيء من زيارته ،  
ولا يجد فيهم الضيف نفسه شيئاً يهمه ، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة  
وأنواع الأطعمة والمشروبات التي تقدم لهم مجاناً ، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة  
من أجل لا شيء عملى سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتنتشر في الصحف  
وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين . .  
إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات  
الرسمية والشعبية التي تعد لرؤساء الدول . . المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى في تصرفات  
الفردي بالنسبة لنفسه « إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة  
جنيهات في حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله في مطعم آخر  
ويكلفه خمسين قرشاً . . المظاهر لها ثمن . . وميزانية العلاقات العامة هي كلها  
ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المقتل . . إنك لو ذهبت في زيارة رسمية إلى اليابان  
فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا وستتهز عشرة على الأقل  
من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا

البيت . . ليست الحكومات فقط . . حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات  
واسعة لهذه المظاهر ، وأنا لا أخذ شيئاً من مشروعات هامة تخص بلدى ولكنى  
أخذ من ميزانية المظاهر لأنفقه فيما أعتقد أنها مظاهر هامة . .  
وجاءت جوانا . .  
واتفقتنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتمد إقامتها  
بحكم أن البلد أعجبها . . وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هي عملية مشروع  
معدات آبار البترول ، واستطعت بسرعة أن أغرى المسئول في بلدى عن هذه العملية إلى  
زيارتنا زيارة رسمية ، وفي خلال ليلالى الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة  
الثرية التي التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة . . وأنت قد لا تدري  
مدى الإنبهار الذى يصيب مسئولاً غريباً عندما يجد نفسه مع امرأة أمريكية  
حسيلة ويحظى إليه أنه يستطيع أن يصل إليها في الفراش . . إنه يحس كأنه يحاول  
أن ينتصر على أمريكا . . كأنه يهتك عرض العلم الأمريكى . . كأنه اعتدى على  
شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . . إنه الإحساس الشرقى القديم الذى  
يعطى جسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها . . كأن في هذا الجسد يتجمع كل  
كيان الأمة . . وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولى على جسد امرأة من بلد آخر . .  
وربما كانت جوانا قد درست هذا الإحساس للرجل العربى . . أو الرجل  
الذى ينتمى . . لدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة ، فقد ظلت تبخل  
عليه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعاً . . وعندما  
أعطته كنت أنا قد حصلت على موافقته على مشروع معدات الآبار . . إن الشركات  
كما تعرف تعطى للمسئولين دائماً عمولات - أو سمها رشابى - في شكل هدايا  
تيمنة غالبية قد تشمل فصوصاً من الماس ، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع

آخر . . أعطيته جسد جوانا . .

وتسلمت فعلاً عمولة الصفقة . . أى أخذت مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار . . واشترت لجوانا خانم سولتير ، فصا واحداً من الماس حجمه ثلاثة قراريط كلفني عشرين ألف دولار ، وتعدلت ألا أعطيها هديتها نقداً بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معي في الصفقة وتتعود أن تطالبني بنصيب محدد . . والدنيا تفتح أمامي ومعى جوانا . . والجديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إلى وبدأت أكتسب صداقتها ، وكنت أجتمع بهم في شقة جوانا كأنهم أصدقاؤها لا أصدقاى حتى لا أكشف نفسى أمام السفير . . زوجة السفير وحدها . . السيدة التي أقدرها وأحترمها هي التي تعرف كل شيء . . إنها تعرف حتى قصة موظف السفارة الأمريكية الذي كنا نعتبره موظفاً صغيراً إلى أن كشف لي عن حقيقته عندما اجتمعت به في ليلة من الليالي جوانا . . واعدتني . . لن أحكى لك هذه القصة . .

المهم . .

إني الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح . . وأعتقد أنه يجب أن أستقبل من وظيفتي حتى أستطيع أن أتفرغ وتكون لي حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح . . ولو استطعت فربما استطعت وخصوصاً وأنا معتمد على أصدقاى الأمريكان أن أكون وزيراً أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحى ، ولكنى أفضل أن أصل إلى صفقة سلاح . . إذا وصلت فسأكتب لك مرة أخرى . .

## ❁ البحث عن الطريق الآخر ❁

## مقدمة القصة :

عندما يكون الأب رئيساً . . هل يظلم ابنه  
أو يظلمه أبناؤه ؟

هذه القصة خطرت لى عندما كنت منذ شهور فى زيارة الهند . . فوجئت هناك بحملة عنيفة ضد سنجاي غاندى ابن السيدة أنديرا غاندى رئيسة الوزراء . . وكان سنجاي متهماً بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه فى تحقيق مصالح خاصة ، منها إنشاء مصنع للسيارات ، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسى الهندى بدليل ، أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب . . وقد كتبت أيامها فى جريدة « الأهرام » تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثاً جرى مع سنجاي يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس فى حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها فى كثير من آرائها ، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأى واحد من أبناء الشعب بدليل أنه له أخ هو ابن أنديرا غاندى أيضاً ولكنه مبتعد ابتعاداً كاملاً عن المجتمع السياسى الهندى . . ورغم هذا فقد قبل إن سبب سقوط أنديرا غاندى وحزب المؤتمر فى الانتخابات هو تصرفات ابنها سنجاي وإنه هو الذى دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التى أدت إلى سقوطها . .

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة فى كل بلد من بلاد العالم ، وقد كان طوفى فرنجية ابن الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية

متهماً بأنه يحكم لبنان باسم ابنه ، وأنه هو - لا أبيه - سبب كل ما حدث للبنان . . كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد أعلن بعد انتخابه أنه سيستعين باثنين من أولاده في تحمل مسئوليات البيت الأبيض ، فثارت ضده حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق النكات ، ظل كارتر بعدها مستمراً في الاستعانة بأولاده في تحمل مسئولية الحكم . .

وفي مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعى عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهماً بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس ، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصدديق سيد مرعى وقت له :

- على قدر فرحتي بخطة حسن إلى نبي فأني أشفق عليك من هذا الزواج . .  
ولم أكن في حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعى فأني أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب ، ولكني كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسرى مع رئيس الدولة سيثير حوله متاعب كان في غنى عنها ، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب . . وهو ما حدث فعلاً . .

وحتى في المستوى العادى لا مستوى الحكام ، فإن رياسة الأب لأى عمل يجعله محرراً مع أولاده بالنسبة لهذا العمل . . فأنى رئيس مؤسسة يرفض غالباً أن يعين أبناءه في نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستئناء ابنه عن باقي المتقدمين إلى العمل ، فإذا عين الرئيس ابنه فعلاً فإنه يصبح في حرج كلما استحق هذا الأبن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما ، حتى قيل إن بعض رؤساء المؤسسات في مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبناء

الأمر حتى لا يتهم باستئنائهم أو بمحاباتهم . .

وقد تعرضت أنا شخصياً لهذا الوضع المتعب ، فأنى ابن صاحبة المجلة التى بدأت العمل بها . . ابن السيدة روزاليوسف . . ومضت فترة كنت لا أعرف فيها بين الناس إلا بأنى ابن روزاليوسف وكان كل مجهود صحفى أبذله ينسب إلى أمى . . وكانت مشكلتى الرئيسية هى أن أثبت لنفسى شخصية قائمة بذاتها بعيداً عن شخصية أمى . . وكنت أتعهد أن أترك مجلة روزاليوسف وأعمل في صحف أخرى ، رغم حاجة العمل إلى . . لمجرد أن أحرر نفسى من اسم أمى ، وفى الوقت نفسه كانت أمى تعاملنى بحزم لا تعامل به بقية المحررين وتحدد لى دائماً أقل أجر حتى لا يعرف عنها أنها تحاببى أو تستثنى من بين بقية الزملاء لمجرد أنى أبنها . . وهكذا ظلمت أمى وظلمتى أمى . .

وبعد ذلك أصبحت أنا أباً لابن يصر على أن يكون صحفياً . . وقد كنت أتمنى ألا يكون صحفياً فأنى أب يخيل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذى يجلب المتاعب والمخاطر ويتنى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل . . ولكن ابني محمداً أصر على أن يكون صحفياً ، فأصررت على ألا يعمل فى أى جريدة أعمل بها وخصوصاً إذا كنت أتولى فيها منصباً رئيسياً سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس إدارة . . وجاءت فترة كنت أنا أعمل فى مؤسسة أخبار اليوم وابنى محمد يعمل فى مؤسسة الأهرام ، إلى أن جاءنى يوماً وقال لى إنهم فى الأهرام يعاملونه ويحذرونه كأنه جاسوس لى . . فاضطرت أن أسمح له بأن يعمل معى فى أخبار اليوم ، وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمح له بالاتصال بى فى كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أى إجراء به إلا إذا وافق سعيد سنبل . .

أتعبت ابني وأتعبني . . ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم في عمله بأخبار اليوم إلا بعد أن تركها أنا . .

إنه موضوع طويل سبق أن كتبت فيه كثيراً وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية ، هل هم مظلومون بآبائهم أو أنهم يظلمون أباءهم ؟  
وهذه القصة من وحي هذا الموضوع . .

إحسان . .



١

إننا في عز النهار . . الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً . . والشوارع كلها مزدحمة كالعادة بما فيها الشوارع الجانبية ، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة في انتظار أصحابها . . وكان يسير في شارع رشيد عصر الجديدة ، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة ، ولم يتلفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف ، ومد يده يحاول أن يفتح باب السيارة وعندما وجده مغلقاً بالمفتاح . أخرج من جيبه لفافة من الشمع الطبي الذي تلتصق به الضادات ، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الجانبية للسيارة ، ثم أخرج من جيبه « أجنة » حديدية صغيرة مما تستعمل في فك وربط الصواميل ، وضرب بها اللوح الزجاجي الصغير ضربة قوية فتحطم دون صوت ودون أن يتناثر الزجاج في الشارع ملتصقاً بقطعة الشمع ، ومد يده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفز جالساً أمام عجلة القيادة . وانحنى ومد يده خلف لائحة العدادات . والتقط سلك البطارية وسلك « الكونتاكت » وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاتة المفضض وجمع به السلكين فدار موتور السيارة فوراً . . كان يتصرف بسرعة وخفة كأى لص محترف من لصوص السيارات . .

تأريلاً

وتبته بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحاً :

- بتعمل إيه يا جلع انت ؟ .

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وكأن في الشارع سائق تاكسي تطوع وجرى بسيارته يلاحق السيارة المسروقة وهو الآخر يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وتطوعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص ، وكان الخبير قد أبلغ للبوليس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصرى من أجهزة ..

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه في استعراض لسباق السيارات ، ولم تستطع أى سيارة أخرى أن

تلتحق به ، بل إنه من كثرة مفاجآته في اللف والدوران تسبب في تصادم

سيارتين من السيارات التي تتبعه تماماً كما يحدث في أفلام السينما الأمريكية .

وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطارين

أن اللص بدأ يهدئ من سرعة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادمهم إلى

الشارع الذى يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة ، وعندما وصل إلى باب المركز

كاد يتوقف بالسيارة ، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تماماً ، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه ، وربما هم بعضهم بأن يعتدى عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسيماً هادئاً يتسم لهم قترددت الأيدي التي كانت تهم بالضرب ، وبدأوا يكتبون بالصراخ من حوله ، وامتدت يد الباشاويش وقبضت عليه من كتفه ثم شدته في عنق خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز

البوليس ، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة . .

وأمام ضابط البوليس رفع الباشاويش يده بالتحية وهو يدق بقدمه على الأرض كأنه يطلق زغرودة الفرح وصاح :

- قبضنا عليه يا أفندم .. لص سيارة شارع رشيد !

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقه في تكاسل وملل ، ولكنه ماكاد يلتقي بوجه اللص حتى انتهت كل خلجات وجهه وأخذ يطيل النظر إليه كأنه لا يصدق

عينيه ، ثم التفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح :

- لا أريد أن أرى أحداً هنا .. يا شاويش .. خذهم لينتظروا في الخارج .. ودفع الشاويش بكل من في الغرفة إلى الخارج ، ولم يبق إلا الباشاويش وهو لا يزال قابضاً بيده على كتف اللص ، وقال الضابط :

- انتظري أنت أيضاً في الخارج يا باشاويش .. أتركه لى ..

وتردد الباشاويش برهة ثم رفع يده بالتحية بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حضرة الضابط . .

ونظر الضابط في رفق إلى اللص وقال في صوت خفيض :

- اسمك ؟

وقال اللص وهو يتمللم كأنه لا يريد أن يبقى وحيداً مع حضرة الضابط :

- أشرف . .

وابتسم الضابط وعاد يقول :

- وبقية الاسم ؟ . قل .. إني أعرفك !!

وقال اللص في زهق :

- أشرف عبد الصبور . .

وقال الضابط مبتسماً :

- تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور ..

وقال للصحفي في حدة :

- إن من حق أن أحمّد اسمي .. هذا أقلّ حق لي حتى لو كنت لصاً ..

واسمى أشرف عبد الصبور !! !

وقال الضابط وهو لا يزال يبتسم :

- لا يهم .. طبعاً أنت لم تسرق السيارة ؟ !

وصرخ المتهم :

- طبعاً سرقها .. ما هي السرقة إذا لم تكن هذه سرقة ؟ . إني أعترف بأنّي

سرت .. لا تحاول أن تزور اعترافي ..

ونظر الضابط إليه في دهشة وقال :

- يا أشرف أرجوك أن تهدأ ، كل شيء يمكن إصلاحه ..

وصرخ أشرف :

- لا أريد إصلاح شيء .. أريد أن يكون نصيبي هو نصيب غيري ..

القانون ..

وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة جديدة وكأنه ينظر إلى مجنون

ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ منادياً الباشاويش وقال بمجرد أن دخل

إليه :

- إبقى معه إلى أن أعود ..

ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقدمه التي يدق بها على الأرض ..

وخرج الضابط مسرعاً ودخل إلى مكتب مأمور المركز .. وبعد لحظات عاد

والمأمور يهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال في حيرة

مفتعلة :

- لماذا يا ابني .. لماذا لا ترحموا آباءكم من « بلاويكمم » ؟

وصرخ أشرف :

- أنا سرت .. افتح المحضر واستدع الشهود ..

وقال المأمور في لهجة خطيب الجمعة :

- ولأنك سرت لا يهلك أن تضيع البلد

وقيل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات

تليفونية وبعد مدة نادى الضابط ليأتي إليه في مكتبه ومعه أشرف ، وقال وهو

يبتسم لأشرف ابتسامة يتوسل بها إليه حتى لا يتعبه :

- اتبهنا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن .. تستطيع الآن أن تعود

إلى البيت ..

وصرخ أشرف :

- لن أخرج من هنا إلا بأمر النيابة ..

وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستغيث :

- لا داعي للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن

دعواه وهو راض عما فعلته ..

وقال أشرف ساخراً :

- طبعاً نظير رشوة ؟ ..

وقال المأمور :

- لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعاً من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذي



حدث لسيارته ، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب ..

وقال أشرف محتدًا :

- تقصد شقاوة عيال .. لا بهم اعتبرنى كما تريد أن تعتبرنى - ولكنك لا تستطيع أن تفرج عنى حتى لوتنازل صاحب السيارة .. إنها جريمة .. وصاحب السيارة ليس إلا مدعيًا بالحق المذنى إنما الخصم هو المجتمع ، والذي يعبر عن المجتمع هو القانون والذي يطبق القانون هو النيابة .. ولن أخرج من هنا إلى بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأيت النيابة بعدها أن تطلق سراحي .. وقال المأمور في ( قرف ) .

- إنى أرحب بك فى ضيافتى وتستطيع أن تبقى هنا كما تريد .

ومال المأمور وهمس فى أذن الضابط وخرج الضابط من الغرفة مسرعاً ، ثم مال المأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذى لا يزال جالساً أمامه قد انتهى ، وقال أشرف فى حنق :

- إنك تحل بمسئولياتك .. البوليس يجب أن يكون متحرراً من مراكز القوى ..

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلقى عليه درساً .

- إن مسئوليتى هى منع وقوع الجريمة ..

وقال أشرف :

- الجريمة وقعت والسيارة سرت ..

وقال المأمور :

- ليست هذه هى الجريمة التى كنت تقصدها .. الجريمة الأخرى لم تقع

بعد .. وأرجوك ، إجلس صامتاً فإن أمامى عملاً كثيراً ..

وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور فى غيظ :

- ضعنى فى زنزانة !!

- إن أى مكان هنا يمكن اعتباره زنزانة بما فيه مكبى .. وأرجوك .. دعنى

لعملى ..

وسكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس ..

والمأمور يدعى أنه غارق فى مراجعة أوراقه بينما يتسلل بعينه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة ، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس فى أذن المأمور ، وانتفض المأمور واقفاً وهو يقول لأشرف :

- يا أستاذ أشرف .. إن والدتك تنتظرك فى الخارج .. وأرى أنك توافقنى

على أن تذهب إليها بدلاً من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس ..

وقام أشرف وقال وهو يزم شفثيه فى ( قرف ) :

- سأذهب إليها ..

وخرج من الغرفة دون أن يحيى المأمور أو الضابط ، والمأمور يجرى وراءه

إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التى تنتظره وانحنى إنحناءة كبيرة تحية لأمه ..

وانطلقت السيارة الفخمة وهو جالس بجانب أمه ، وهمت الأم بأن تتكلم

ولكن أشرف قال وهو غارق فى الانهيار :

- دعيني الآن يا ماما ..

ثم أمسك بيدها وقبلها واحتفظ بها فى يده ودموعه تكاد تطفر من عينيه

كأنه يهم بأن يبكى نفسه ..

فطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة .. معاناة الابن الذى ولد لأب

ناجح مشهور ويضيق هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة .. ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يعرفون له أيديهم «تعظيم سلام» إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا «التعظيم سلام» ليس تعظيماً له وإنما هو تعظيم لوالده .. هو وحده لا يستحق أى تعظيم .. ومنذ دخل المدارس وهو متنبه إلى أنه يعامل معاملة خاصة تختلف عن معاملة زملائه الطلبة .. وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبه بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة وينصحه نصائح تافهة ، ثم يقول له «تحياىى للسيد الوالد إنه رجل عظيم» .. وكان يعلم أن كل ما يريده الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده ، لا شئ آخر ، ولولا والده لما استدعاه أبداً ولا عرف بوجوده .. والمدرسون أيضاً إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده .. ويحس أنهم يجاملونه فى الدرجات ، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة فى كل مناسبة تافهة «يا سلام .. إنك سترث والدك فى عبقريته» أو كلاماً آخر فى هذا المعنى .. وحتى الطلبة .. إنهم يضعونه فى ركن بعيد عنهم ، ويعيشون معه كأنه ليس منهم ، وعندما يجتمع بهم يلتفتون حوله كأنهم يتفرون عليه ، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع فى الراديو ..

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتعقد داخل نفسه ، وبدأ يحاول أن يثور عليها .. أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه .. يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها .. يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف ، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .. ومنذ أن كان صغيراً وهو يتعمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه بـ «تعظيم سلام» ، بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح فى واحد منهم :

- عندما ترى أبى ارفع يدك بالسلام .. هذا السلام ليس مخصصاً لى ..  
إياك أن ترفع يدك بالتحية لى .. فاهم ؟  
وأجاب الشاويش وهو يتشم فى تملق :  
- يا سلام يا أشرف بيه .. إنك تستحق ألف سلام .. إنك سيدنا وابن سيدنا ..

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ «تعظيم سلام» ..

وذفته العقدة التى يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ .. كان يجلس بينهم فى ركن بعيد وهو صامت بينما هم يتصاحكون ويهزجون ويلعبون ، ثم فجأة يقوم من بينهم بعمل شاذ لا ينتظرونه .. كأن يرقص رقصاً بلدياً وهو يصيح فيهم فى لهجة أولاد البلد :

- (سقف) انت وهو .. ياللا باجدعان ..

وبصفقون وهم ينظرون إليه فى دهشة ، ويشعر أنهم يستقلون دمه فيتوقف عن الرقص فجأة - كما بدأه فجأة ويخرج من بينهم مبتعداً وهو صامت .. نائه مع نفسه كما أنهم تائهون فيه ..

وفى مرة كان جالساً بينهم وهم يلعبون أحدهم الآخر باسم الأب .. وهو منذ وعى وهو يسمع زملاءه يتلاعبون باسم الأب والأم كنوع من أحداث المداعبة ورفع الكلفة ، ما عدا هو .. هو وحده الذى لم يلعب أحد من زملائه أباه .. حتى ولا من باب الخطأ .. وكان أباه شخصية مقدسة ليس من حق أحد أن يلعبها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعاً للمزاح .. فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يفرحهم برفع الكلفة بينهم وبينه :

- وأنا كمان يلعبن أبويا ..

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة ، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهز الفرصة وصرخ في وجه أشرف لا عتا أباه .

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشتام على أب أشرف ، وهو يحاول أن يضحك معهم ويرد على شتامهم وهو يحس أنه لا يستطيع أن يحتفظ بضحكته لا يستطيع أن يحتمل مزيداً من اللعنات التي تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح .. إنه يحب أباه ، ويقدره ، ويغار عليه ، ر حتى على صورته العامة التي تتمثل في احترام الناس له ورهبتهم منه .. برغم كل ما يعانیه أشرف من عقد في مواجهة أبيه فهو يحبه ويغار عليه حتى لو ثار ضده .. وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتام ، ويسحب ضحكته ، وبدأ يسير مبتعداً عنهم ، وهو يسمع أحدهم يقول :

- حانروح في داهية ..

ويقول الآخر :

- أنت اللي ابتديت :

ويقول الثالث :

- دى فيها رفت ..

ويقول الرابع :

- استعدوا يا اولاد .. كلنا حاندخل السجن ..

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أباه قد استرد مكانته بين الطلبة ، ولكن العقدة التي يعانينا عادت تغلب عليه .. لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذى يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات .. وما ذنبه هو حتى يوضع

في ركن اجتماعي لا يختاره بنفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه .. وقد حاول أن يخرج بعيداً عن هذا الركن فسعى إلى أن يصادق طالباً كان يعلم أنه ينتمى إلى أذى العلاقات الشعبية ، ويقم في حى الباطنية وراء جامع الأزهر ، وأبوه صاحب مكان ساجتر صغير ، ووصل بالباحه في صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب لبروره في بيته داخل حارة الطناش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التي جاء بها في ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعيم شجى ، فكل أهل الحارة جاءوا بفرجون عليه ويصافحونه ، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على دكاكين الحى وهو يقدمه متفخراً :

- ابنتنا أشرف بيه .. ابن سيادة إسماعيل عبد الصبور .. صاحب ابني في المدرسة .. أمال ابن أكابر ..

وبدأ يحس أن أباه يلاحقه حتى في أصغر حارة في القاهرة ، بل أحس أنه يزداد تعقيداً وهو بين أبناء الطبقة الشعبية .. يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها .. مسئولية تمثيل والده .. علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غالباً كلما زاره ، فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم .. إلى أن مال عليه والد صديقه يوماً وقال كأنه يهمس في أذنه :

- عايزك في خدمة ياسى أشرف .. أصل مأمور الحنة تابعنا وما حدش عارف بلمه .. يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقفه عند حده ..

ومضى والد الصديق يروى قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور برغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيراً مما يسمعه .. كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلا بوالده حتى وهو بعيد في حارة طناش بحى الباطنية ..

وقال لوالد صديقه :

- حاضر . .

ولم يبلغ والده بشيء لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق . .  
وظل يحاول إثبات شخصيته بعيداً عن أبيه . . حتى أنه وهو في هذه السن . .  
سن الثالثة عشرة . . أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه « ولد شقي » ولا يقل عنهم  
تطاولاً على المدرسين ، فاتفق معهم على أن يربط حبلأ رقيقاً في مقعد مدرس  
اللغة العربية . حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض . .  
وقام المدرس صارخاً يكيل الشتائم للتلاميذ ويصيح :

- من هو ابن الـ . . . الذي دبره هذه الجريمة ؟ ! !

وقام أشرف وهو بمسك بطرف الخيط في يده :

- أنا يا أستاذ . .

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف في حيرة وتردد :

- مقول يا أشرف . . لا بد أنهم سلطوك وضحكوا عليك . .

وحاول أشرف أن يثبت أنه المشلول ، وأن ينال عقاباً ، ولكن لا أحد يريد

أن يستسلم لاعترافه . . وأمر الناظر بإجراء تحقيق ، ونام التحقيق .

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام في حمايته ، وحاولوا

أن يحرضوه على مؤامرات طلابية أخرى ، ولكنه كان يرفض ، لأنه اكتشف

أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيد خضوعاً

لها ، وتزيد شخصيته الخاصة ضياعاً . . لو أنه كان قد عوقب كأى تلميذ عادى

فربما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . .

فلا أمل . .

ويكبر والعقدة تتضخم في صدره ، وتلف أعصابه ، وتسيطر على عقله ،

وبحس دائماً بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذى أخذ منه كل شيء . يمكن أن يكون

ملكاً خاصاً له . . حتى عندما أحب . . وكان قد التقي بعفاف وهو في الخامسة

عشرة من عمره . . التقي بها صدقة بعيداً عن عائلته وعائلتها . . وهى تعرف أنه

ابن إسماعيل عبد الصبور ، وهو يعلم أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير

بدرجة مدير عام . . ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر . .

إنه يستطيع أن يحدثها بالتليفون كلما أراد ، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد ،

بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة ، واحتج بأنه تعب

ويفكر في الانتحار ، وقالت له عفاف في التليفون :

- انتظر حتى أسأل ماما . .

وواقبت ماما على أن تخرج عفاف للقائه في الليل . وهو دهش . . كيف

لوافق أى أم على أن تترك ابنتها التى لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائى ليلاً . . هل

هى عائلة من هذا النوع ؟ . وقد حرص على أن لا يدعوها لبيتها أو يقدمها لأمه . .

إنه يريد أن يبتعد بها عن مظهر عائلته . . عن أبيه . . يريد أن يكون بالنسبة لها

شخصية قائمة بذاتها . . ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها ، وتدعوه إلى

زيارتها في البيت ، وتغريه قائلة :

- إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء . .

وكان عندما يطلبها بالتليفون ترد عليه الأم أحياناً في ترحاب شديد :

- من . ؟ أشرف ؟ أهلاً بابنى . . دقيقة واحدة لأدعوك عفاف . .

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير . . هل يطمعون في زواجه من عفاف . .

ولكنه لا يزال في الخامسة عشرة ، ولم يصل إلى التوجيهية بعد . . لم يحن الوقت

لمجرد التفكير في الزواج .. وبرغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم لإلحاح عفاف  
وذهب إلى لقاء عائلتها كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه  
وبينا يجب أن يبقى بعيداً عن عائلتها .. فكيف يواجه أباه أو أخاه ؟ ! !  
وذهب ..

واستقبلوه بترحاب كبير وفي شبه وليمة رسمية ، وأخذوا يدعون الجيران  
ليتفرجوا عليه ويتعرفوا به .. نفس ما حدث له مع صديقه في حارة الطناش  
بحى الباطنية .. واحتمل .. ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد وأكثر .. إلى  
أن كان هناك يوم استدعاه فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة  
حنانه وجهه له :

- إنى لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم .. ربما لم تأت المناسبة بعد ..  
ولكني أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه .. لذلك أعددت مذكرة ..  
أقصد خطأياً .. أعتقد أنه يجب أن يصل إليه .. والواقع أنى أستحق درجة وكيل  
وزارة منذ سنتين ولكن ما يجري في الوزارة مما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب  
في أنهم تخطوني ..

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروي تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن  
أشرف وهو في الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعي شيئاً مما يسمعه .. وقال  
أشرف :

- حاضر .

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه ، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم  
الخروج كان يمزق فيها .. إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل

عبد الصبور .. وهذه العائلة تخفى به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد  
الصبور .. الذى يستطيع أن يمنح الترقية إلى درجة وكيل وزارة .. وربما كانت  
عفاف لا تحب فيه إلا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور .. ومضت فترة كان أشرف  
يكذب فيها ويدعى أنه سلم المذكرة إلى أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر في الكذب ..  
فهدأ يبتعد ويهرب من عفاف ، إلى أن شطبه من حياته ، وأقع نفسه أنه لم يكن  
عليها فهي لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصبور ..

والعقدة التي يعانها تشتد به وتزيد ضياعاً .. إنه لا يستطيع أن يساهم  
في أى نشاط سياسى ، فشيح أبيه يسيطر على كل تحرك له .. لو اشترك في  
حركة تؤيد سياسة أبيه فهو مناقف لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال  
رأياً معارضاً لرأى أبيه فإن المعارضة ترحب به لا لأنه رأى له قيمته ولكن لأنه  
رأى لابن إسماعيل عبد الصبور ويمكن استغلال الابن عند أبيه .. بل إنه  
كتب يوماً مقالاً سياسياً وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود  
إلى البيت ويلتقى بأبيه حتى قال له في لهجة الهادئة العاقلة :

- دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف .. إن ما تكتبه سينسبه  
الناس إلى .. فإذا صممت فلتنفق أولاً على ما ينشر وما لا ينشر ..

إن أباه على حق .. هذه هي الحقيقة .. كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه ..  
ولكن الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أبوه هي أنه ضحية .. شهيد .. ما ذنبه  
حتى لا يكون من حقه رأى خاص به ..

وقد حاول بعد ذلك كثيراً أن يتفوق في شيء ينسب إليه وحده ..

حاول أن يتفوق في الرياضة .. لعب التنس .. والشيش .. وأيضاً  
المصارعة والملاكمة .. لكنه لم يستطع أن يتفوق في شيء .. وكانوا ينظرون إليه

وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلى . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وحاول أن يتفوق في دراسته . . وقد تفوق فعلاً ولكن تفوقه ضاع في زحمة الإشاعات التي تثور حوله بعد كل امتحان . . إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان . . ويقولون إنه يضع إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى . . وعندما التحق أخيراً بكلية الهندسة قبل إنه استثنى من شرط المجموع . .

وهو دائماً . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .

أشرف وحده لا يساوى شيئاً . .

إلى أن أدت به عقده إلى التكفير في ارتكاب جريمة . . سرقة سيارة . . ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه . .

• • •

ووقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت ، وفتح السائق الباب ، وضغطت

أمه على يده وقالت في توسل :

- أشرف . . من أجل خاطري . . تحمل أباك . .

وهز رأسه بطمثها في صمت ، ودخل البيت وراءها ، ولم يتجه إلى غرفته هرباً من لقاء أبيه ، ولكنه اتجه إلى الغرفة التي يعتقد أن أباه ينتظره فيها . . ووقف أمامه صامتاً وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادماً على ما فعل ولا خجلاً . . وأبوه ينظر إليه في حسرة . . ليست نظرة ثورة على هذا الابن ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطفي كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض . . وقال إسماعيل عبد الصبور في لهجة اليائس :

- ما هذا الذي فعلته يا ابني ؟

قال أشرف في جمود :

- سرقت . .

قال الأب في تأفف :

- وهل كنت في حاجة إلى السرقة ؟

قال أشرف ولمجته لا تخلو من السخيرية ؟ :

- طبعاً لا . . ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شيء حتى يسرق . .

إشارة واحدة من أصبغى تجعل سيارات الدولة تحت أمرى . . ولكني سرقت

لإجراء تجربة اجتماعية . . كنت أريد أن أكتشف هل أنا بنى آدم أم أنى مخلوق

من نوع آخر . . نوع من الملائكة أو من الشياطين . .

وزم عبد الصبور شفتيه امتعاضاً ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين

بالصبر وقال :

- وماذا اكتشفت ؟

قال أشرف وابتسامته الساخرة تتسع :

- طبعاً لا يمكن أن أكون مجرد بنى آدم . . أنا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

إن البنى آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن . . أما

النوع الآخر من المخلوقات الذي أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس

يصطفون قرة قول شرف تحية له ، والنيابة تنحني إحتراماً ، والحكام تعتبر

نفسها في عطلة رسمية كأنها في يوم عيد وطنى . .

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحاً :

- اسمع يا ابني . . .

وصرخ أشرف مقاطعاً :

- اسمع أنت يا بابا .. إذا لم تحقق معي النيابة في الجريمة التي ارتكبتها فلن أسكت .. ولن يهمني شيء .. سأخرج في الشوارع وأصرخ حتى يعرف الناس أن ابن عبد الصبور لص أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنوناً .. وارفع صوت عبد الصبور محتدماً :

- اسمكت يا ولد .. إن أقل حق لأبيك عليك هو أن تستمع إليه .. وإذا كنت تعتقد أني أحملك حماية لسمعتي ومصالحي فأنت جاهل .. أحمق .. وما يعذبني أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزداد جهلاً .. إن مصالحي كانت تفرض على العكس .. تفرض على أن أقدمك للنيابة وأن أوصي بتشديد العقوبة عليك حتى أخلص ذمتي أمام الناس الذين يتقون بي ، وحتى أثبت لهؤلاء الناس أني في سبيل العدالة أضحي حتى بابي ..

واهترت جفون أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئاً جديداً كان غائباً عنه ، واستطرد الوالد قائلاً :

- إن القبض عليك كان يشرفني كرجل مسئول .. ولو كنت متأكداً من أنك فعلاً قد وصلت إلى حد الإحرام ، لما ترددت .. ولكني واثق أنك لست مجرمًا ولن تكون ، ولكنك تعاني حالة نفسية أعرفها و .. وقاطعه أشرف كأنه يقاوم اقتناعه بمنطق أبيه :

- طبعاً أنت تعرف كل شيء .. أنت خبير في الاقتصاد .. وفي السياسة وفي القانون ، وفي الدين .. وأنت الآن خبير في علم النفس أيضاً ..

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعذر ابنه في كل ما يقول :

- فعلاً أنا خبير في علم النفس وإلا لما نجحت .. وأنت تعاني عقدة .. عقدة هي أنا .. وهي ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعي للأبناء

إلى أبعد مما وصل إليه الآباء .. وقد كنت معقداً من أبي لأنه كان فقيراً لم يستطع أن يتقدم بنفسه وهي عقدة دفعتني إلى أن أعمل أضعاف ما كان مقدراً لي أن أعمل وأن أكتشف بنفسى طريقاً لم يكتشفه أبى .. ومنذ وصلت إلى العشرين والناس يتحدث عنى دون أن تنسبني إلى أبى ، بل إن أبى كان ولا يزال ينسب إلى .. لم أكن أوصف بأبى ابن فلان بل كان أبى يوصف بأنه أبو فلان .. وأنت .. إن عقدة عكسية .. لقد ولدت لتجد أباك قد حقق شيئاً كبيراً ، وكان يمكن أن تكفي بما حققه أبوك وتعيش راضياً فخوراً به ، ولكنك ورثت عنى الطموح الشخصي فحاولت منذ صغرك أن تخلق شيئاً مميزاً ينسب إليك وحلك .. وكان هذا يسعدني .. أنا أيضاً أريدك أن تنجح في شيء ليس لي فضل فيه .. إن المزارع الناجح يتمنى أن يكون ابنه طبيباً ناجحاً حتى لا يكون له فضل في نجاحه فيحس أنه أنجب شخصية كاملة تستطيع أن تخلق نفسها بنفسها .. وكذلك أنا .. إنى أتمنى أن تكتشف لنفسك طريقاً غير طريق .. أحياناً أتخيل أنك عالم في الذرة .. ولكن عقدة كانت أقوى منك فلم تستطع أن تتحمل الوقت الطويل الذى يتطلبه بناء شخصية قوية في مواجهة شخصية أبيك .. إنى أثبت وجودى أمام أبى وأنا فى العشرين ، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر وتحتمل إلى سن الأربعين ..

وسقط أشرف جالساً على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم منطق أبيه ، وقال وصوته يهدج كأنه على وشك البكاء :

- إن الناس لا تترك لي مجالاً للإحساس بنفسى .. لإثبات وجودى .. للثقة في أنى أستطيع أن أكون مستقبلاً .. إنى دائماً صورة للماضى .. دائماً ابن إسماعيل عبد الصبور .. حتى وأنا ألعب وكأنى أنفذ قراراً رسمياً أصدره إسماعيل

عبد الصبور باللعب . .

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت بها على كتفه :

- تسافر إلى الخارج . . وتم تعليمك هناك بعيداً عن الناس هنا . .

وابتسم أشرف في مرارة قائلاً :

- حتى في الخارج . . عندما كنت أسافر في الصيف كنت أبقى حبيساً

داخل شخصيتك ، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكاباريات لأرقص كانت

السفارة كلها تلحقني وترقص معي . .

وقال الأب في رجاء :

- إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية ابنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء

نفسه و . .

وقاطعه أشرف وهو يهب واقفاً :

- أرجوك يا بابا . . دعني أفكر لنفسى . . أنى سأحاول أن أعيش بعيداً

عنك ولكن لا تسألني أين ولا كيف . . وثق انى لن أكرر خطئى . . لن أرتكب

جريمة تمسك . . لن أفكر في مستقبلى على حساب الماضى . .

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه :

- أنا لست الماضى يا أشرف . .

فقال أشرف :

- أريد أن أحس بك كماض حتى أحدد مستقبلى . .

وهز الأب رأسه في أسف قائلاً :

- لقد تركتك حرراً دائماً . . المهم لا تضطرنى أن أثبت للناس حرصى على

الحق حتى لو ضحيت بابنى . .

قال أشرف :

- لن يحدث . . فقط دعنى وحدى . .

قال الأب :

- لا تحرمنى من طبيعة الأب . . أريد أن أطمئن دائماً عليك . .

وقال أشرف :

- سأطمئن ماما دائماً . . أرجوك . . اكتف بماما للاطمئنان على ولا تعتمد

على أى وسيلة أخرى . .

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلاً ، وقال وهو يتنهد كأنه في موقف

وداع :

- إنها تجربة سأتركك لها . .



كأن القرار الذى اتخذته هو أن يتعد عن أبيه . .  
ولكنه لا يدري أين يتعد . .

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن  
شخصية أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدري كيف تكون هذه الشخصية الجديدة . .

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا . . لا . . أمريكا مزدحمة بالعرب والوالده  
على صلات قوية بمراكز القوى هناك ، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة . .  
فليهاجر إلى أستراليا . . ولكنه كى يهاجر يجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة . .  
أى يكشف نفسه . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . وأى سفارة يقدم لها  
أوراقه ستستصل بوالده فوراً . . ثم ماذا يعتمد عليه فى هجرته . . إنه لم يتم  
تعليمه . . لا يزال فى السنة الأولى بكلية الهندسة ، ولا يجيد أى عمل ، ولم يتعلم  
بعد الاحتراف ولا حتى احترام أن يكون سائق تاكسى . . إنه فى أى مكان  
فى العالم مضطر أن يبقى معتمداً على شخصية أبيه . . على نفوذ أبيه أو على  
أموال أبيه . . إنه حتى قبل أن يخرج من البيت أخذ من أمه مائة جنيه . . لم يخرج  
إلا وشخصية أبيه فى جيبه . . الشخصية التى تستطيع أن تعطى . . وربما كان  
الأفضل أن يستسلم لرأى أبيه ويقرر أن يسافر ليم تعليمه فى الخارج على حساب  
الدولة أو على حساب أبيه . . ولكن لا . . إن ما يعذبه ليس وجوده فى مصر  
إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء فى مصر أو خارج مصر . . ثم إنه لا يريد

أن يتم تعليمه . . إنه يستطيع أن ينجح فى كلية الهندسة ويحصل على البكالوريوس  
بسهولة ، ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية . . الشهادة قد  
لكون شرطاً للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطاً للنجاح فى الحياة . . معظم  
التاحسين فى الدول المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية . . وهو يحس أنه  
ملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترومس . .

ربما كان مجنوناً . .

وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة حزينة . . إن عليه أن يكشف أيضاً هل  
هو مجنون أم عبقري . .

وقرر أن يسافر إلى شاطئ العجمى . . ونحن فى الشتاء والشاطئ خال يستطيع  
أن يختبئ فيه من شخصية والده ويترك نفسه هناك لفكره إلى أن يقرر مصيره . .  
وفد اختار شاطئ العجمى لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه فى  
ليالى الصيف بعيداً عن مجتمع أبيه الذى كان يحتل شاطئ المنتزه حيث أعلن -  
هذا المجتمع - أنه الوريث الشرعى لأستقرطية العائلة المالكة . .

وفى العجمى أستأجر بيتاً صغيراً على شاطئ « بيانكى » لا يعرف صاحبه ،  
فقد استأجره من الخفير ، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه  
لساهل جداً فى تقديرها . . عشرون جنيهاً فى الشهر . . بيت مؤسس مفروش  
وضحك . . إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات  
التي فرضت على بيوت الناس . .

ومنذ اليوم الأول قرر أن يطلق شعر رأسه وذقنه لينتقى . . لا يمكن أن يتصور  
أحد أن هذا الشاب الذى أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهذبها على  
الطرز المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن ابن إسماعيل

عبد الصبور لا يمكن أن يكون كبقية الشبان .. إنه نوع آخر .. صنف آخر ..  
وابتسم في فرح وأطلاق .. إنه منذ سنوات وهو يمتنى فعلاً أن يطلق شعر رأسه ..  
كان مقتنعاً أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد ..  
وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه .. وقد قرأ أن الجيل السابق ..  
جيل والده .. عاش أيضاً في تقليعة يرفضها الجيل الذي سبقه .. تقليعة  
البنطلونات الواسعة التي كانت تسمى شارلستون ، وتقليعة إلصاق شعر الرأس  
بدهن « البريانتين » و « الفازلين » ، وكان الجيل الأسبق يتهمهم بالخونة والميوعة  
وأنهم ليسوا رجالاً .. من يدرى ربما كان أبوه قد لبس البنطلونات الشارلستون ودهن  
شعر رأسه بالبريانتين ، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة ..  
ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبداً من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان  
مقيداً بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن ينطلق مع تقاليع الشباب ..  
وربما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هي مسئوليته عن نفسه وعن  
حياته العادية .. إنها المرة الأولى التي يعيش فيها وحيداً .. وهو المسئول عن إعداد  
إفطاره وغدائه وعشائه ، وتنظيف البيت وإعداد فراشه وغسل ثيابه .. وقد احتار  
أمام مطالب صغيرة لم يكن يحس من قبل بأهميتها ، وكان يضحك ويسعى إلى  
مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد .. وعندما  
تشدد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير ، ولم يحاول أبداً أن يكون له  
خادم .. إنه يريد أن يكون نفسه .. ولكنه يفتح عينيه مفكراً في مصيره .. ويسعى  
إلى مطالب حياته اليومية مفكراً .. ويخرج إلى الشاطئ يجرى ويسبح وهو يفكر ..  
وكان يترك العجى أحياناً في الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول في حى المكس  
أو يصل إلى حى محرم بك في الإسكندرية .. ودائماً على قدميه أو في أتوبيس

وأحياناً في تاكسي ، فقد كان من بين القرارات التي اتخذها ألا يأخذ سيارة من  
بيت أبيه .. ويتناول العشاء في مطعم شعبي وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يعرفه  
ولن يكتشفه ، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفاً خارج مجتمع أبيه ومجتمع  
زملائه في المدرسة أو الجامعة ، فلم تكن صورته تنشر في الصحف ، ولم يكن  
قد قام بعمل بلغت نظر الناس إليه .. وهو دائماً يفكر .. وعندما يريد أن  
يستريح من التفكير يقرأ .. وكان يختار كتباً متعددة الموضوعات .. لا يستقر  
على موضوع واحد .. وكان يجيد اللغة الإنجليزية ، ويحظر على باله مرة أنه يمكن  
أن يكون عالماً فلكياً فيشتري كتاباً في الفلك ولا يتم قراءته .. وأحياناً يجيل إليه  
أن في داخله نزعة إلى الأدب فيقرأ في القصص .. أو في التاريخ .. أو في  
الهندسة الميكانيكية .. ولكنه لا يتم كتاباً أبداً .. والجديد الذي طرأ عليه أنه  
بدأ يقرأ إعلانات الوظائف الخالية التي تنشر في الصحف .. كان من بين  
ما يحظر على باله أن يبدأ مصيره بوظيفة صغيرة على أن يبقى مجهولاً لا يعرف أحد  
سر أبيه ..

وكان يحرص على أن يتصل بوالدته بالتليفون مرة كل أسبوع ليطمئنها ،  
ووالدته تستمع إليه في فرحة ، وأيضاً في استسلام .. فهي لا تسأله عن أكثر  
 مما يريد أن يقوله لها .. تخاف إن سألت أن يهرب منها هي أيضاً كما هرب من أبيه ..  
وكانت تعلم أنه يقم في الإسكندرية ولكنه لم يقل لها في أى مكان من الإسكندرية ،  
ولم تسأله .. يكفى أنه يطمئنها على نفسه ، وكانت كل مرة تعبر عن لفتها إليه  
أن تسأله في نهاية كل مكالمة :

— ألا تريد شيئاً يا أشرف ..

ويرد في صوت مرح متفائل :

- أبدأ يا ماما ..

وقد مضى حوالى شهر على غيبته ، والمائة جنيهه التى خرج بها على وشك أن تنهى .. وهى معجزة فى تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيهه فقط .. وتصورت أنه وجد عملاً يتكسب منه أو ربما يعيش فى رعاية بعض أصدقائه .. ودائماً قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيهه فقط .. ودائماً تخاف أن تسأله .. إن ابنها ليس طبيعياً وقد يبره السؤال ..

ولم يكن أشرف يتعمد التوفير .. ولم يتعمد أيضاً النزول عن مستوى الحياة التى كان يعيشها والتى لا يمكن أن تكفيها مائة جنيهه خلال شهر .. ولكن هذه هى الحياة التى يعيشها دون تعمد ولا يحتاج فيها لأكثر مما يتفقه .. ولكن المائة جنيهه انتهت .. والخفير فى انتظار العشرين جنيهه قيمة الإيجار .. ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى أمه .. ولكن كيف يلتقى بها ليأخذ منها ما يريد .. ووضع الخطة .. سيطلب منها أن تأتى إلى الإسكندرية وتقيم فى بيتهم هناك .. ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكري الواقف على الباب .. يقابلها فى المساء وفى سيارة تاكسى حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عيد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه .. لا .. لن يقابلها فى الطريق .. داخل حدائق المنتزه .. واستقر على الخطة وقال لأمه فى التليفون وهى تسأله :

- ألا تريد شيئاً يا أشرف ؟

وقال ضاحكاً :

- أفلست يا ماما .. أفلست قبل أن أصل إلى رأى ..

وقالت فى ذعر :

- أطلب يا أشرف .. اطلب .. كم تحتاج يا حبيبي ..

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيهه أخرى ، وحدد لها خطة اللقاء ،

وأستلمت للخطة بلا مناقشة .. إنها على الأقل سترى ابنها الوحيد ..

وهناك .. بين أشجار مدينة المنتزه وقفت أمامه تنظر إلى شعره الطويل ودفقة المهذبة نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذى تعرفه . ثم ألفت نفسها فوق صدره تبكي ، وقالت من خلال دموعها كأنها تخاف أن تغضبه بدموعها :

- إنى أبكى فرحاً يا أشرف .. أوحشتنى يا ابني ..

وهو يقبلها فى كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها .. وهى تنظر إلى

شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقبلها ، ثم تمسح

بأصابعها فى ذقنه قائلة :

- هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزاً ..

ويتضاحكجان .. ويسيران تحت الأشجار كأنهما عاشقان .. ويروى لها

كل حياته .. أين يعيش وكيف .. وتضحك حتى تخفى حسرتها وجزعها عليه ..

وتسأله فى تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم :

- هل أنت سعيد بهذه الحياة ..

وقال ضاحكاً :

- على الأقل أصبحت لا أستطيع أن أنسب شيئاً مما يضايقنى إلى أبى ..

أنا المسئول وحدى عن نفسى .. وكل ما يتقصنى هو أنت ..

واستمر لتقاؤها طويلاً ، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى فى

النهاية أن يعود معها إلى البيت .. لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن

تعود أمه وحيدة .. ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها

التى جاءت بها وهى تقودها بنفسها تنفيذاً للخطة التى وضعها :

- هل أراك غداً ..

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جاداً :

- لا ..

قالت في استجداء :

- إنى سأبقى بضعة أيام في الإسكندرية ..

قال وهو أشد حزماً :

- أرجوك يا ماما .. عودي غداً إلى أبى ..

قالت ودموعها تكاد تطفر :

- ولكنى لم أشيع منك ..

قال :

- لتتعود .. إنها حياة جديدة .. لا تضطربنى أن أختفى في بلد آخر ..

واحتضنها بسرعة وقبلها ، ثم تركها مبتعداً وجرى وراء أتوبيس وتعلق به ..

ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عجلة القيادة وبكت ..

وعادت إلى القاهرة في اليوم التالي إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد

لا تعرفه ، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهى تحاول أن

تتغلب بفرحتها على حسرتها :

- عرفت أين يقيم أشرف .. إنه في العجمى ..

وقال إسماعيل عبد الصبور في برود :

- أعرف ..

وقالت في دهشة :

كيف عرفت ؟

قال كأنه يتهمها بالغباء :

- طبعاً أستطيع أن أعرف كل شيء ..

قالت :

- ولماذا لم تقل لى ..

قال :

- فضلت أن تعرف منه هو .. إنها إحدى وسائل العلاج النفساني ..

أن يتأكد من أنه أصبح أقوى منى إلى حد أنى لا أعرف مكانه .. وقد خشيت

أن يعرف منك أنى أعرف .. أعرف كل شيء ..

وتهدت في ألم وقالت في بأس :

- لعلك تكتشف لى علاجاً أنا الأخرى ..

• • •

وفي العجمى .. في يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خالياً من

الناس تعرف أشرف إلى دينوس وعائلته .. إنها عائلة يونانية تقم في الإسكندرية

وتملك بيتاً في العجمى قريباً من البيت الذى استأجره أشرف ، تقضى فيه

عادة إجازة نهاية الأسبوع .. يومى السبت والأحد .. وكان أشرف جالساً

أمام بيته ينظر إليهم من بعيد .. ويتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم .. إن

عددهم كبير .. شيوخ وشبان وأطفال .. وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة

على نفسه .. إنه لم يعيش أبداً مثل هذه الحياة العائلية المرحية .. ولم يجرب

إجازة نهاية الأسبوع .. الخميس والجمعة .. إن عائلته في يوم الجمعة

تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر .. وأبوه يصبح يومها دمه أنفل من

أى يوم آخر ، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذى مضى ولكنه

يجمعها فوق رأسه ..

وخرج دينوس من بين الشلة واقترب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربي في لهجة تتراقص فيها الموسيقى اليونانية :

- من فضلك .. هل تعرف أحداً نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز .. اكتشفنا أن الأنبوبة عندنا فارغة ..

وقال أشرف :

- إن الخفير يعرف كل شيء هنا ..

وقال دينوس :

- إذن لأبدأ البحث عن الخفير .. شكراً ..

وقبل أن يبتعد استوقفه أشرف قائلاً :

- تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذى عندى .. إني لست فى حاجة إليه اليوم .. والخفير قد لا تجده الآن ..

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملا

أنبوبة البوتاجاز ، كل منهما من ناحية ، وعادا بها إلى البيت الآخر ..

واستقبلتها العائلة بالتهليل المرح ، وعزف واحد منهم على « البازوكا » لحن السلام

الملكي القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز .. ووقف أشرف بينهم ضاحكاً حائراً ..

إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير .. لعله الأب .. يقدم له كأساً من نبيذ الريتسينا

صائحاً :

- فى صحة البوتاجاز .. وفى صحتك ..

وشرب الكأس ضاحكاً ، وفى لحظات أحس كأنه واحد منهم .. واللغة

اليونانية تملأ أذنيه .. كلهم يتكلمون فى وقت واحد ، وكل منهم لا يكف عن

الكلام أبدأ .. ويتنبهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضع كلمات بالعربية ثم

يعودون بسرعة إلى إطلاق قذائف يونانية .. إن اللهجة الجريكية أشبه بقذائف

المدليوز .. ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم .. دينوس .. بانايوتى .. بابادوبلو ..

تاكى .. مارينوس .. وأسماء البنات .. صوفياس .. جوانا .. ماريأ ..

أنثى .. كاتيا .. إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيداً عن مصر ..

بعيداً عن أبيه .. إنه الآن فى أثينا .. وعيناه تطوفان بشوارع أثينا ثم يتوقفان

طويلاً عند كاتيا .. شىء فى داخله يشده إليها .. خيل إليه أنها أجمل بنات

العائلة .. وأهدأهن .. على الأقل إنها أقل البنات ثرثرة .. والجمع فى حاجة

دائمة إليها .. كاتيا .. كاتيا .. كاتيا .. وهو لا يدري ماذا يطلبون منها ولكنها

تنحرك دائماً .. والتفت إليها مرة فوجدتها هى الأخرى تنظر إليه من بعيد ..

وتعلقت عينها بعينيه وبينهما ابتسامة ..

وتخرجوا جميعاً إلى الشاطئ يلعبون الكرة ، ويتسابقون ، ويفقر أحدهم

فوق الآخر ، ويتحدون أحدهم الآخر من منهم يقبل أن ينزل البحر فى عز البرد ..

رهان .. وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم عرشته .. وكانت

قيمة الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأساً من الريتسينا .. وصاحت

كاتيا ، بينهم بكلمات كثيرة جريكية لم يفهم منها شيئاً ، ثم تقدمت إليه

تحمل كأساً وقالت فى لغة عربية لغة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطرت

أن تقلبها إلى اللغة الإنجليزية :

- أخاف عليك أن تسكر .. لاشك أنك لست متعوداً على شرب

الريتسينا .. كأس واحدة تكفى .. كأسى ..

وشرب الكأس وقال ضاحكاً :

٢١٩

- أحس كاتيا عندما ولدت أرضعوني ريتسينا ..

وضحكت وقالت كأنها أمه التي أرضعته :

- قم نلعب الراكث حتى تدفأ ..

وقام يلعب معها الراكث والجمبع يهللون من حولهم .. برفو أشرف ..

أشرف نرجوك لاتهمز كاتيا .. وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل ،

ولم يتم بقية الاسم كأنه يدارى عورته .. وترك كاتيا تغلبه .. أو هكذا أقتعته ،

ولكن الواقع أنها غلبته ..

والثف معهم حول أطباق طعام الغذاء .. وعرف أن الكباب الجريكى

اسمه سوفلاكى .. وأحس أن أطعم سلاطة ذاقها هى السلاطة الجريكى التى

يضاف إليها الجين ..

وفى العصر .. والجمبع فى راحة وقد سكتت طلقات المترليوز الجريكية ..

كان نينوس ممدداً بجانب أشرف على الشاطىء يروى له قصة عائلته .. أنهم

كلهم ولدوا فى مصر .. منذ أيام أجدادهم وهم فى مصر .. وكان أبوه وعمه

يعملان فى البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد ، ويمثلان

شركات للنقل البحرى .. ثم فى عام ١٩٦٠ شملهم التأميم .. صودر كل

ما يملكون .. واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم ، فقد أصر على

أن ينهى حياته فى مصر واستسلم لضياغ أمواله واكتفى بأن أصبح شريكاً لصديق

يونانى يملك مقهى ومطعماً فى الإسكندرية قريباً من محطة الرمل .. والذين

عادوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم .. لقد نجحوا فى أعمال

كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك

الوافدين من مصر غرباء ، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم ، وبما أن

جريك مصر هم أمهر وأرق من جريك اليونان أنفسهم ، على الأقل يتميزون

بإجادة اللغات الأجنبية التى أصبح العمل فى اليونان يحتاج إليها احتياجاً أساسياً ،

فى حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفى ..

واستطرد نينوس يروى القصة .. إنهم برغم نجاحهم فى بلادهم قرروا

العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالأطمئنان .. وعاد معظمهم ليلطالبا

بممتلكاتهم التى ضاعت منهم ولكن لبدأوا العمل فيها من جديد ..

وضحك نينوس قائلاً :

- هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد .. إنشاء مطعم ومقهى جديد ..

مطعم كبير فخم من المطاعم السياحية العالمية .. إن عمى بعد أن اشترك

فى إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهى والمطاعم أكثر ربحاً من الشركات

العالمية ..

وقال أشرف فى تردد :

- وكاتيا هل ولدت فى مصر .. إن لغتها العربية ضعيفة ..

وقال نينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه :

- كاتيا لم نكن قد تجاوزت عاماً واحداً من عمرها عندما أخذناها إلى

أثينا .. وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنا تعيش فى مصر .. إن مصر فى دمتا ..

والأفكار تتضارب فى رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذى يحدد من خلاله

مصيره .. كأنه هو الآخر مثل باقى أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها

وغاب عنها طويلاً .. ولم يخلص من أفكاره إلا عندما بدأ الغروب وبدأت العائلة

تعود إلى نشاطها ومرحها .. وسهر معهم على نغمات البوزك .. يسمع أغاني

البوزوكا ، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكى والكاسبىو ..

الخطبة السابقة وروى لها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية ، وأخذ منها ما تبقى جنيته لا مائة .. وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن تعرض عليه أن يأتي معها خوفاً من أن يرفض ، فأجأها بقوله :

— دعيني أوفد السيارة حتى أوصولك إلى البيت وسأخذ السيارة لأني في حاجة إليها ..

وفرحت أمه .. فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركوب الأتوبيسات والتاكسيات .. وربما كانت تتمنى أكثر منه أن يأخذ السيارة ، فهي سيارة تترك دائماً في بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون في فترات الصيف .. إن أشرف بدأ يفتق من جنونه .. لاشك أنه بدأ يفتق ما دام يطلب سيارة من بيت أبيه ..

وأشرف يحادث نفسه وهو يقود السيارة عائداً إلى العجمي .. يجب أن يعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يستغنى عن أبيه .. لا يستطيع أن يعيش إلا بفضل أبيه .. ولابد أن أباه يعلم بما تعطيه له أمه من نقود ، ولابد أنه سيعلم بأنه أخذ هذه السيارة .. إنه ليس مغفلاً حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تخفي شيئاً عن أبيه .. لا يهم .. إنه على الأقل أصبح حراً .. هو الذي يطلب أو لا يطلب .. لم يعد عبداً للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه .. ولم يعد يتلقى أوامر من أحد .. وتحسس شعر رأسه الطويل وذقنه المهدبة وابتسم ساخراً .. ربما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية .. أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان ابن إسماعيل عبد الصور .. وسحب ابتسامته الساخرة وامتلات عيناه بنظرات جادة وهو يقول لنفسه .. لا تياأس .. إنك لم تبدأ بعد .. لم تحض سوى ثلاثة شهور على حريتك .. والأمل كبير في أن تتحرر من أبيك تحرراً كاملاً ..

ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يتعلم كل شيء .. أن يصبح جريكياً .. وكاتيا ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك ، ودائماً تعامله كأنها مسؤولة عنه .. كأنها أكبر منه .. إنه حائر فيها .. ولا حتى ابتسامتها تعطيه له لتشجبه عليها .. إنما ابتساماتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم الحياة ..

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن أى قصة .. لم يحاول حتى أن يسأله من هو .. ربما لأنه حتى الآن لم يكن يهيم أن يعرف ..

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية في مساء الأحد ..

ولم يحتمل وحدته أكثر من يومين .. لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه بمسئوليته عن نفسه يمكن أن تشغله .. واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء في مطعم المكس .. هو وماريا وكاتيا .. ثم انظروهم في شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في العجمي .. ثم أصبح يزور تينوس في بيته في الإسكندرية .. لم يعد حريصاً كل هذا الحرص على الاختفاء في العجمي .. يكنى شعره الطويل وذقنه لإخفاء شخصيته .. وكاتيا تعبر عن مسئوليتها عنه أكثر وأكثر .. إنها أيضاً تشرف على إدارة البيت الذى يستأجره وتعمد أن تترك له كل مساء أحد كثيراً .. قطع الجبن التى يحبها وعدداً من زجاجات النبيذ التى تكفيه بقية الأسبوع .. لم يعد يستطيع أن يستغنى عن النبيذ مع طعامه كأى واحد من أفراد الشعب اليونانى ..

ولم تعد المائة جنيته تكفيه .. ثم أحس بحاجته إلى سيارة .. ولم يقاوم حاجته ، طويلاً .. اتصل بأمه وجاءته في هفة والتقت به في حدائق المنتزه طبقاً لنفس

أن تعمل وتكسب . . لا تفقد الأمل . .

وكان على موعد مع كاتيا في اليوم التالي . . كان يوم سبت واتفقت معه على أن تأتي إليه في الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة ، حتى تعد معه بيته وبيتهم . . ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأزكبها بجانبه السيارة ثم انطلقت بها كالمجنون . . وقالت تسأله في هدوء كأنه لم يفاجئها بشيء :

- إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها :

- لا بد أن نصل إلى شيء . .

وقاد السيارة بجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين ، ثم توقف ونزل من السيارة ونزلت معه وانجبه بها إلى مقبرة قتلى الحرب ثم توقف بين أعمدة الصليبان التي ترتفع فوق القبور ، وواجهها قائلاً :

- كل هؤلاء شهداء . . وأنا لا أريد أن أكون شهيداً . .

قالت وهي تبسم ابتسامة هادئة :

- ماذا تقصد ؟

قال :

- إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التي قتلته . . وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا في جهل . . لا أدري أين أنا منك ، ولا أين أنت مني . . كل هذا وأنا لا أدري هل تحبينني كما أحبك . .

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيما يمكن أن تقوله ، وكلماتها تتعثر ، بين العربية والإنجليزية :

- إني أعيش في جهل أوسع من جهلك . . إني إلى الآن لا أعرفك . .

مجرد لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة . . وبرغم ذلك عرفت أني أحببتك ولكني فضلت أن أداري حتى حتى أعرفك أكثر . . إني لا أعرف عائلتك . . ولا أعرف لماذا تعيش . . ولا أريد أن أسألك . . لا أنا ولا أبني ولا أمي يريد واحد منا أن يسألك . . إنها حريتك . . وصادقتك ممتعة واكتفى الجميع بهذه الصداقة . . أنا وحدي التي لا أكتفي بها ولكني أحمي نفسي بها . .

وقال في حدة :

- لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمي واسم عائلتي والشهادة التي حصلت عليها بقيمة دخلي وأملاكي . . أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك . . لقد قدمت لك شخصيتي كاملة ، فإذا أن تحب هذه الشخصية أو ترفضها أو تكتفي بصداقتها . . وتصوري أني في حالة نفسية تدفعني أن أهرب من نفسي حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك . . تصوري أني مريض . . ومريض يجعلني غير قادر على أن أقول من أنا . . بل قد أكون قد أخفيت عنك إسمي . . ولكن الحب يتسع حتى للمرضى . .

ونظرت إليها طويلاً وعيناها تضانه إليها في حب وقالت كأنها تهمس :

- إنك لست مريضاً . . ولكنك في معركة لا أدري سرها . . هذا ما أحس به . . وقد قررت أن أقف معك حتى تنتهي المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن ترفع عنك ثياب وأقنعة الحرب . . وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيداً ولا أنا فتعالى نخرج من هنا . . من حديقة الشهداء . .

واستدارت وهو معها وسارا بعيداً عن قبور قتلى الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار التين البرشومي الممتدة حتى الشاطئ ، وقال وصوته لا يزال ناثراً :



- إن الحب لا ينتظر حتى تنتهى المعركة أوحى يشق المريض ..

ومدت يدها ووضعها في يده وهى تهمس :

- ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر ..

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلاً وهمس هو الآخر :

- هل أستطيع ؟

وشفتاها تتطلعان إلى شفتيه .. لم يعد فيها سوى شفاه .. وكانت القبلة الأولى بعد كل هذه الأيام التى جمعتما .. وسقطا مع قبليهما تحت شجرة التين ..

وتحركت بين ذراعيه قبل أن تصل القبلة إلى باقى جسديهما .. وهذا ما عودته عليه دائماً أن يكفياً بالشفاه .. وقامت تجرى ضاحكة وهو يجرى خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة :

وقال وهما في طريق العودة :

- لقد وجدتك .. بقى أن أجد نفسى ..

قالت كأنها تثير حماسه :

- وجدت الصعب وبقى السهل ..

\*\*\*

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتيا أصبحت لأشرف .. اعترافاً صامتاً لا يثير أى نكات حلوة يطلقونها أحياناً على تصرفات كل منهما نحو الآخر .. وهو دائماً معهم .. وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالماً واسعاً لرجال

الأعمال .. إنهم لا يقصرون نشاطهم في مشروع المطعم والمقهى الكبير ، ولكنهم وكلاء عن شركة فرنسية تتطلع إلى بناء مدينة سياحية كاملة على ساحل البحر الأحمر .. إنه مشروع تصل تكاليفه إلى أكثر من ثلاثين مليوناً من الدولارات ، ولو استطاعوا تحقيقه فإن العمولة التى يحصلون عليها لا تقل عن نصف مليون .. وهو يستمع إلى كل هذا وليس له أن ينتقل بكل فكره إلى هذا العالم الجديد عليه .. بل إن كل أحاديثه مع كاتيا حتى في خلوتها كانت تدور حول هذا العالم كأنه يحاول أن يتعلم منها مالا يستطيع أن يتعلمه من أخيها أو من أبيها .. وينام وهو يفكر .. ويصحو وهو يفكر .. إن كل هذه المشروعات التى يتحدثون عنها يمكن أن يحققها أبوه ببساطة .. ولكنه لا يريد أن يلجأ إلى أبيه .. إن مشروع المطعم يعتبر صغيراً بالنسبة لمشروع المدينة السياحية .. ، مشروع ليس في حاجة إلى تدخل أبيه ، فلماذا لا يشترك فيه ..

وجلس مع صديقه دينوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكاً في المطعم السياحي .. وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه ، وقال كأنه يغرى دينوس :

- إنى لا أريد ربحاً ، ولكنى فقط أريد أن أتعلم ..

ووعده دينوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة : ثم غاب أياماً .. أياماً طويلة .. وعاد يعلن أشرف بأن العائلة قررت أن تقبله شريكاً في مشروع المطعم ..

واتصل بأمه في التليفون ، وكان صريحاً برغم أنه يعلم أن التليفون يضم في داخله شريط تسجيل .. وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو في حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم في مشروع .. وروى لها كل تفاصيل المشروع ، واتفق معها على لقاء ، وفي هذه المرة لم يتمسك بلقاء خدائق المتز ،

إنه سيقاها في بيت الإسكندرية ..

وقالت الأم لزوجها .. ورد إسماعيل عبد الصبور فوراً :

- أعرف .. إنه مشروع مطعم .. اعطه ما يريد ولكن التصيحة أن يبقى

مشروع الشركة سراً بينه وبين شركائه الجريك ..

وسافرت الأم إلى الإسكندرية ، وذهب أشرف للقائها في البيت ، ولم

يتم كثيراً عندما أدى له العسكري الواقف على الباب تحية تعظيم سلام ..

واقنع بما نصحته به أمه واتفق مع دينوس ووالده بابا دوبلو على أن تبقى

الشركة في اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسمياً ..

وتركوه حراً في أن يختار العمل الذي يريد أن يساهم به ، وقد اكتفى بأن

يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم ، وبدأ يراجع أوراق المصروف والإيراد .

وعمليات استيراد ما يحتاج إليه المطعم ، وتكاليف العمالة .. بدأ يدرس

العملية كلها .. ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه ، حتى

أنه اكتشف أنه كان مخطئاً بالنسبة لنفسه عندما اختار يوماً ما أن يكون مهندساً

والتحق بكلية الهندسة ، ربما لو كان قد التحق بكلية التجارة لجذبت أكثر

ولاً فر منها ..

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدي إعجابها به دون نفاق ، وتستجيب

بسرعة لأغلب اقتراحاته .. ولكن .. هناك فكرة للتوسع في المشروع لم يستطع

أحد منهم أن يحققها .. ففوق المطعم الذي يقع على الشارع دور كامل من

العمارة يشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد أستولت عليه وأجرته للمحافظة

التي تستعملها كمكاتب لأرشيف السجلات .. لو استطاعوا أن يأخذوا

هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلي الواقع إلى الشارع ، لأقاموا

أكبر مطعم في الإسكندرية بل واحداً من أكبر وأفخم مطاعم العالم .. وقد حاولوا

كثيراً ودفعوا كثيراً من مقدم العمولات أى من الرشاوى ، حتى يقنعوا مكتب الحراسة

بالغاء إيجار المحافظة لهذه الشقق ليستأجرها .. ولا أمل ..

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع .. توسع المطعم السياحي يعتبر

فعلاً خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشيف ..

لا يهم أن يتم هذا العمل الوطني على يد شركة جريكية أو فرنسية أو إنجليزية ..

ولأنهم أرباحه هو شخصياً .. إن أرباحه بمجرد أن ساهم في الشركة تصل إلى

مائة جنيه في الشهر .. وقد فرجى بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابا دوبلو نصيبه ..

خيل إليه أنهم يشترونه ، أو على الأصح يرشونه ، ولكنه عند مراجعة حسابات

المطعم اكتشف أنه يستحق فعلاً هذا المبلغ .. وهو ليس في حاجة إلى أكثر

منه . وتفكيره في التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو إندفاع وطني لتحقيق

مصلحة وطنية ..

وارتدى في الصباح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره

إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه .. هل تخلى عن شخصيته التي حاول

أن يخلقها .. وأجاب نفسه بلا .. إنه فقط وجد الطريق الذي يسير فيه ..

وسار إلى مكتب المحافظ ، ونظر إليه السكرتير في امتعاض :

- أفندم ..

وقال أشرف في هدوء :

- أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور ..

وقفز السكرتير واقفاً وهو يقول في تلجلج :

- تشرفتنا يا أفندم .. اتفضل ..

وقاطعه أشرف :

— هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ . .

وقال السكرتير في رعدة :

— طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . دقيقة واحدة . .

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ . ثم عاد مهزولاً :

— اتفضل يا يا أفندم . .

وكان السيد المحافظ مجتمعاً ببعض موظفيه وقام من على مائدة الإجتماع يستقبل

أشرف مرحباً ثم التفت إلى الموظفين قائلاً :

— الاجتماع يعتبر مستمراً إلى أن أدعوكم . .

ويخرج أعضاء الاجتماع وتفرغ المحافظ لأشرف . . وروى له أشرف كيف

اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدى اللوائح . .

البالية . . وعليه فيجب إخلاء الشقق الثلاث من موظفي الأرشيف ليقام مكانها

مطعم عالمي سياحي يفتح للبلد صنوبراً من العملة الصعبة . .

واقترح السيد المحافظ بسرعة ، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى يراجع المسئولين

في الوزارة . .

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد سيعلم بهذا المشروع بل

وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ . . وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف

بأنه في حاجة دائماً إلى أبيه ، فاقصص بأمه وروى لها تفاصيل المشروع وهو واثق

أنها ستبلغ به والده . .

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته :

— عارف . . وأنا موافق . . الولد ابتدئ يشتغل جد . . .

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين . .

ولم تصدق عائلة بابا دوبلو الخبر وكادت تجن من الفرح عندما صدقته ،

وأقاموا حفلاً عائلياً حول برميل كامل من النبيذ تحية لأشرف ، وقال بابا دوبلو كأنه

يلقى خطاباً رسمياً إليهم كانوا قد خصصوا ميزانية تبلغ قيمتها ثلاثين ألفاً من الجنيهات

للحصول على هذه الشقق وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف . .

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ ، وقال إنه عضو مساهم في الشركة

وما يعود على الشركة يعود عليه ، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين

ألفاً إلى نصيب أشرف من الشركة . . وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن

يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء :

— هذا أفضل لك . . لقد أصبحت ابن سوق . . إن نصيبك الآن في الشركة

يساوي ضعف نصيب ابني دينوس . .

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحاً بأنه استطاع أن يثبت شخصيته

بعيداً عن أبيه . . لقد قال أبوه إنه وهو في العشرين من عمره استطاع أن يكون

شخصية منفصلة عن أبيه . . إنه هو الآخر استطاع أن يفصل وهو في الثانية

والعشرين . . لعله لم يفصل تماماً . . إن مشروع الشقق لم يمكن أن يتم إلا إذا

كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليبدو أنه ابن أبيه . . ولكن ليس أبوه هو الذي

فكر في المشروع . . وليس أبوه هو الذي قدمه إلى عائلة بابا دوبلو . . إنه الآن

شخصية تفكر لنفسها . .

وكاتيا تنظر إليه من بعيد وهي تبتمس في صمت . . ابتسامه لا تعبر عن شيء . .

لا عن فرح ولا عن قلق . . وأخذها أشرف إلى خارج الحفل وقال وهو يرفع يدها

ويضع أصبعها بين شفتيه :

قال والدهشة تستبد به كأنه تلقى صدمة :

- منذ متى ؟

قالت :

- منذ دخلت الشركة مع عمى بابا دويلو .. كان مستحيلاً أن يقبلوك دون أن يعرفوك ..

قال :

- ولماذا لم يصارحوني بأنهم عرفوا ..

قالت :

- كانوا في انتظار أن تصارحهم أنت .. هذا حقا ..

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه .. لعلهم لم يقبلوه شريكاً إلا بعد أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور .. لا يهم .. يجب أن يتخلص من هذه العقدة .. المهم أنه حقق أرباحاً ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه .. وقال لكاتي كأنه يواسي نفسه :

- مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن ..

وعادت تقول :

- إني خائفة ..

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية .. تكلمت كثيراً كأنها لسان إبرة جرامفون وقفت على أسطوانة مشروخة .. وأشرف يصرخ فيها .. ماذا تقولين .. ماذا جرى لك .. وهي مستمرة في الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه وصغفها صغفة قوية ، وقالت ودموعها تفيض على خديها :

- إني أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمري ، فكيف نتزوج ..

- كاتيا .. لنعلن خطبتنا الليلة .. ونتزوج الأسبوع القادم .. لقد فكرت

في كل شيء .. سأجد شقة لنا غداً .. من السهل أن آخذ شقة خالية .. وإلى أن يتم تأنيثها ناسفر إلى الخارج .. إلى الريفييرا في فرنسا .. بعيداً عن هنا .. ولم تنطلق كاتيا بالفرحة كما كان يتصور ، وقالت كأنها تهم بالبكاء :

- إني خائفة ..

وقال أشرف في دهشة :

- خائفة من ماذا ..

قالت وهي لا تنظر إليه :

- لا أدري .. ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك

ابتعدت عني ..

وقال مبتسماً :

- إنك دائماً تعيشين في شك من كل من حولك .. اسمعي .. سأقول

لك كل شيء .. إن اسمي الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور .. ابن إسماعيل عبد الصبور .. طبعاً معروف .. وكنت قد هربت من البيت حتى أثبت شخصيتي بعيداً عن شخصية أبي .. وأعتقد أنني نجحت ..

وقاطعته كاتيا في صوت خفيض :

- إني أعرف ..

وقال في دهشة :

- تعريفي ماذا ؟

قالت :

- أعرف كل شيء عنك ..

وقال يحيطها بذراعه في حب :

- ولكنى أستطيع أن أتعلمها .. بل تعلمت الكثير منها وأحببت كل شيء .  
جريكى ... أحببت الريتسا والسفلاكى والتارامو ، والموزاكا .. وأحببت البوزك  
والسيرتاكى والكاساييو والكلامباتنوس .. أصبحت نصف جريكى ويمكن في  
أيام أن يجعلنى كلى جريكياً .. تعالى ..

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس في أذن دينوس ، وهمس دينوس في  
أذن بابادوبلو ، وهمس بابا دوبلو في أذن مارينوس ، وساد الجميع صمت قلق ،  
ثم صاح بابا دوبلو :

- سيداتى وسادقى أعلن لكم خطبة كاتيا إلى أشرف ..  
وهلل الجميع وهم يرقصون حول برميل التبيد ..

• • •

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبلغه لأبيه وذهب إليها في بيت  
الإسكندرية ، وما كادت تراه بعد أن حلق شعره وذقنه حتى احتضنته في فرحة  
وقالت وهي تمسح بيدها على خده :

- الآن أحس أنك عدت إلينا ..

وأخذ يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التى حققها ، ثم قال :

- وقد نويت الزواج ..

وقالت أمه في فرحة :

- عين العقل .. سأختار لك أحسن وأجمل بنت في البلد ..

وقال ضاحكاً :

- اخترت ..

قالت في دهشة !

- من ؟

قال :

- كاتيا .. أخت صديقى دينوس ..

قالت :

- جريكية .. مستحيل .. يا بنى هوه من قلة بنات البلد .. وتعمل فينا  
كده ليه .. تناسب جريك .. آدى اللى كان ناقص .

اسمع يا أشرف و ..

وقاطعها مبتسماً :

- اعملى معروف يا ماما .. وافق حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية ..

وسكتت وبدا عليها أنها تبذل جهداً كبيراً حتى لا تفقد أعصابها ، ثم قالت  
وهي تنتهد كأنها تستغيث بالله :

- لك الحق يا ابنى .. هذه حياتك وأنت حريفها .. موافقة ..

وقال في فرح :

- سأصاحبها معى فى المرة القادمة حتى تتعرفى بها وتباركينا ..

وقالت فى أسى :

- أهلاً وسهلاً بها ..

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فوراً إلى القاهرة تبحث عن  
زوجها إسماعيل عبد الصبور .. وعندما لاقته صرخت فى وجهه . كأنها تستدعى

بوليس النجدة :

- الحقنى يا إسماعيل .. أشرف سيتزوج جريكية ..

وصمت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخراً :

- وصلت إلى حد الزواج ..

ثم رفع صوته في حدة قائلاً لزوجته :

اسمعي ... اتركي هذا الموضوع لي .. لا تناقشي فيه أشرف .. خذي

بعقله ..

\*\*\*

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دوبولو في تحديد موعد الزواج . قال له

إن الموضوع في حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة في أئينا ، ثم

إن اختلاف الدين يجعله مضطراً إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكنيسة

ثورة عليه .. أنت لا تعرف الجريك يا أشرف .. إنهم متعبون في كل شيء ..

وكاتيا معك .. خطيبتك .. وهي معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج ..

ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان

لم يسمع صوتاً يعارضه .. ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع

الطعم ولا يشركونه فيه .. إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر ..

لقد تقدمت شركة إيطالية تنافسهم فيه .. لا يهم .. إنه لا يريد هذا المشروع

ولن يتدخل فيه .. ولكن لماذا لا يهمه .. إنه مشروع يدر الملايين .. إنه يستطيع

به أن يصل إلى درجة مليونير .. ولكن ليبدأ أولاً بالانتهاء من مشروع زواجه ..

وتخيل إليه أن كاتيا تتغير .. إنها تخفى عنه شيئاً .. وهي دائماً قلقة ..

ودموعها كثيرة إنها تبكي كلما قبلته وكأنها قبله الوداع .. وصرخ في وجهها :

- ماذا تخفين .. ماذا يقلقك ..

ونظرت إليه طويلاً كأنها قررت أن تكشف له سرّاً وقالت :

- اسمعي يا أشرف .. لقد عرفني طويلاً وأنت تخفى عني سرّك ، وأنا أيضاً

لي سر أخفيته عليك .. إنني قبل أن أنتقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريباً لأحد

أقاربنا في أئينا .. وقد أرسلنا إليهم أخيراً لإلغاء هذه الخطبة .. قلنا لهم كل

شيء .. ولكنهم لم يوافقوا .. إن إلغاء الخطبة قد يؤدي إلى نكبة على العائلة ..

وهم يريدونني أن أعود إليهم .. ولم أقل لك شيئاً .. لأنني أقاوم .. ولا أدري

إلى متى أستطيع أن أقاوم ..

وثأر أشرف :

- لقد تغيرت .. إنك تكذبين .. لا أصدق شيئاً مما تقولين .. هناك سبب

آخر لكل هذا .. كوني أكثر صراحة .. ثم ماذا يهمننا من عائلتك أو عائلتي تعالى

الآن لتتزوج وحدنا ونهرب بعيداً وحدنا ..

وقالت كاتيا .. وهي تبكي :

- إنني أحبك .. ولكنني لا أستطيع ..

واشدت ثورة أشرف ، وصرخت كاتيا :

- أشرف .. لم أعد أحتمل .. قبلني .. قبلني ..

وألقت نفسها بين ذراعيه ، واحتضنت شفثيه بشفتيها ولم تتركهما كعادتها قبل

أن يسرى إحساسهما إلى باقي جسديهما .. تركت هذه القبلة تصل بها إلى

كل شيء .. أعطته كل ما يريد وأكثر ..

وفي اليوم التالي ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو .. لقد أصبحت كلها

له .. وعندما دخل البيت استقبله بابا دوبولوس ودينوس في وجوم ..

أين كاتيا ؟

سافرت صباح اليوم إلى أئينا ..

وهم أشرف أن يتعهد سيلحق بها . . سيحطم كل ما يعترضه . .

وقال له بابا دوبلوس في هدوء :

- إنها مشكلة أكبر منا ومنك . . تأكد أننا حاولنا كثيراً . .

ونظير إليهما أشرف ساخرأ ، ثم جلس مدعياً الهدوء قائلاً :

- لنعتبر الموضوع متبياً . . لم تعد هناك مشكلة . . إلى ماذا وصلتكم في مشروع

مدينة البحر الأحمر . .

والنف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلنا إليه ، ولم يستمع

إليهما طويلاً وتركهما وركب سيارته واتجه بها إلى طريق القاهرة . . منذ عامين

وهو لم يفكر أبداً في العودة إلى القاهرة . . ولكن ليعد . . ليعترف بالواقع . .

إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله . . والواقع هو أنه

ابن إسماعيل عبد الصبور . . وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر

على قدره سواء كان بجانبه أو بعيداً عنه . . إنه استطاع أن يطرد كاتيا من مصر

كلها . . ربما هدد عائلتها . . أو ربما أغراها بمساعدتهما في مشروع البحر الأحمر . .

ولكنه متأكد أن أباه هو الذي طرد كاتيا . .

ووقف أمام أبيه هادئاً ، وأبوه يستقبله بابتسامة الرجل القوي المنتصر حتى

على أولاده . . وقال أشرف ساخرأ :

- أقدم لك نفسى . . أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل

عبد الصبور . .

ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال :

- أوحشتني يا أشرف . . ورغم بعدك عنى كنت فخوراً بك . . لم أكن

أعتقد أن عنادك يمكن أن يقودك إلى كل هذا النجاح . .

وقال أشرف وكأنه يناقش :

- الفضل لك دائماً . . فأنا لست إلا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وقال الأب كأنه يرضيه :

- وأنا أبو أشرف . .

وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه :

- وقد جئت أطلب أبي بحق في التعويض . .

وقال الأب في دهشة :

- التعويض عن ماذا ؟

قال أشرف :

- لقد فقدت فتاة خطبتها . . وإني مستسلم لما حدث وأعرف أنك السبب . .

ولا يمكن أن يلهيني عن استسلامي إلا أن أدخل في مشروع جديد . .

وقاطعه الوالد :

- إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه . . ومن حقلك أن تأخذه

وحقلك لو أردت . .

وقال أشرف :

- إن أصحاب المشروع لم يحرموني من خطيبتى . . ولن آخذ منهم المشروع

انتقاماً وعقاباً ولكن فقط سأساهم معهم ، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت

الموافقة عليه . . وأردت أيضاً أن أعلن لك أنى قد عدت إليك . . إلى البيت

وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا . . إلى بيتك وبيتي . . للعشاء غداً . .

هل تكون معنا . .

وقال الأب :

- حتى تكون أكثر واقعية أفضل ألا أكون معكم وأفضل أن تدعوهم في الخارج .. هذا نوع من التغطية ..

وقال أشرف :

- لك حق .. إني مازلت تلميذاً لك .. عن إذنك ..

وهم أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلاً :

- أشرف .. ما دمت مازلت تلميذاً فإني أنصحك بأن تحصل على

شهادتك الجامعية .. إنك تستطيع أن تكون مليونيراً بلا شهادة ، ولكنك لا تستطيع

أن تكون وزيراً وسياسياً إلا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يوماً ما وزيراً ..

رئيس وزراء .. هذا يسعدنى ويجعلنى أزهو بك ..

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه في عجب :

- الشهادة سهلة .. أستطيع أن أسافر وأعود بشهادة من لندن .. دكتوراه ..

وسأختار دكتوراه في الاقتصاد .. لم أعد أريد الهندسة ..

وقال الأب :

- اترك لى هذا الموضوع ..

( تمت )

## ❁ أسرار المهنة ❁



شدت قوامها الطويل المشوق وسلطت عليه عينين غاضبتين وقالت في صوت  
تطلق فيه رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كرنه آلة السيكون بين نغمات  
الكمان :

- اسمع . . إني خبيرة في مهنتي . . وصاحب رأس المال يعتبر غيباً إذا  
تدخل في أعمال الخبيرة . .

ونظر إليها في قرف واحتقار وقال :

- ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبيرة كشفت أسرار المهنة . .

- قالت وهي تنظر إليه في تعال :

- لم أكن أتوقع أن ألتقي بكل هذا الغباء . . إنك لن تكشف أبداً سر  
مهنتي . . الزبون لا يمكنه أبداً أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل  
مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر ، وكنت أعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة  
إلى أن ألقى عليك درساً ، فنحن الاثنان أبناء سوق واحدة . . أنت تاجر وأنا تاجرة . .  
أنت رجل أعمال وأنا سيدة أعمال . . وإذا اعتبرت نفسك خبيراً اقتصادياً  
فأنا أيضاً خبيرة في الاقتصاد . . والفرق بيننا هو في نوع البضاعة التي نتحمل مسؤولية  
تسويقها . . وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر في تخصصه . .

قال في حدة :

- إنى أقبل وقاحتك لأنه لم يعد هناك وقت لاستبدالك بغيرك . . و . .

وقاطعته ساخرة :

- إنها ليست وقاحة ، إنها مصارحة ، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا . لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلنى أو قتلت نفسك ولكننا الآن وحدنا . أنت ترفض أن تتعري أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك . وأنا شريكك هذه الليلة . ومن حتى أن أعريك ما دعنا في اجتماع مجلس إدارة . .

وقال في ثورة :

- إنك لا تعرينى ولكنك تسرقينى . مائتا جنيه نمن الثوب الذى ترتدينه في السهرة . هل هذا معقول . . مائتا جنيه . . ولجرد أنى طلبت منك أن تظهرى في مظهر لائق . .

وقالت في هدوء :

- ليس لأنك طلبت المظهر اللائق . . ولكن لأنى درست كل شيء ، ولعلك تذكر أنى كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن نتفق على هذه العملية . . وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ واسعة الثراء . . يملك ما لا حصر له من دولارات البترول . . وعرفت منك أنك تحاول أن تصل معه إلى صفقة سيارات نقل تصل قيمتها إلى حوالى خمسين مليوناً . . الزبون مليونير والصفقة بالملايين . . ومهنتى هى أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب . . كيف أضعف مثل هذا الرجل ؟ . .

وقاطعها ساخراً وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجديدة التى تتحدث بها :

- وطبعاً الوسيلة الوحيدة لإضعافه هى أن تشتري ثوباً بمائتى جنيه . .

وقالت وهى تنظر إليه فى تأفف :

- لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاجراً صغيراً وأعتقد أنك لا تزال

تعيش بعقلية التاجر الصغير ، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية . . إن هذا الثوب هو الفترينة التى تعرض فيها البضاعة . . وكلما أراد التاجر أن يقنع الزبائن بأن البضاعة غالية وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغرية لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم . . إن فترينة الملابس الشعبية غير فترينة الملابس الراقية . . وفترينة لعب الأطفال غير فترينة المجوهرات . . وهذا الثوب هو الفترينة التى أعرض فيها بضاعتى . . وقد اخترته حسب تقديرى لشخصية الزبون ، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوباً عارياً . . لا يكشف عن شيء من جسدى . . لماذا . . حتى أبدو أمامه كأمراة غالية ، فهذا النوع من الرجال يقضى كل ليلة وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات فى حين انه من السهل أن تقتنعه المرأة بأنها غالية بمجرد أن تغطى جسدها حتى لو كان جسداً تعود على العرى . . إن الرجل يثيره ما لا يراه أكثر مما يراه . . يثيره خياله أكثر مما يثيره عيناه . . وهذا كله مع ثقى بأن بضاعتى مثيرة للخيال حتى لو عرضتها داخل بطانية . .

وقال ساخطاً :

- ولماذا لم تشتري بطانية بدلاً من أن تغتصبي منى مائتى جنيه . .

وقالت فى تأفف :

- إنك لا تزال مبتدئاً . . وعقلك لا يزال ضيقاً . . إنك تومن بأن المظهر أهم من

الواقع ولكنه إيمان تطبقه على نفسك فقط . . إنك تركب سيارة بويك ٧٦ وتشتري

ثيابك من لندن والكرفنات من كريستيان ديور وأحذيتك من إيطاليا . . والدعوة  
تقيمها الليلة في الهيلتون ، وبرغم هذا فعندما دخلت بيتك أشفتك عليك . .  
إنها شقة في الزمالك لأنك في حاجة أن تقول إنك تسكن الزمالك تغطية للمظهر ،  
ولكنها في داخلها تجمع قطعاً من الأثاث المهلهل وفراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين  
عاماً - والثلاجة التي رأيته يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التي سبقت اختراع  
الثلاجات ، وحتى التلفزيون ، نصر . . وأنا أعرف أنك لا تدعو أحداً إلى البيت ،  
كل حياتك خارج البيت ، . . الخارج هو المظهر والداخل هو الواقع . .  
وقد أخذتني إلى الواقع لأنك اعتقدت أني أنا أيضاً أعيش في نفس الواقع المهلهل  
المسكين . . لا . . أسفة . . إن بيتي أرقى مائة مرة من بيتك . . ورغم ذلك فإني  
لم أدهش عندما رأيت واقفك . . إنه واقع كثير من رجال الأعمال خصوصاً  
وهم يجتازون مرحلة ما قبل المليون الأول . . ولكنك محظي خطأ كبيراً إذا حاولت أن  
تبخل على بمطالب المظهر . . فأنا وأنت تقوم بعملية واحدة ويجب أن تكون في  
مظهر واحد . .

ويخط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ :

- لا تقارني نفسك بي . . أنت تعرفين من أنت . .

وقالت في برود :

- أنا أعرف من أنا فعلاً ، ولهذا فإني أعتبر نفسي متساهلة وفي منتهى التواضع  
عندما أقارن نفسي بك . . أنا تاجرة وأنت تاجر ، ولكن مسئوليتي عن الزبون  
أشرف من مسئوليتك . . أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع . . والمجهول يبقى  
مجهولاً مهما جمعت من تفاصيله ، أما الواقع فكله واقع . . إن تاجر الفاكهة  
يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها في دكانه

عرضاً مغرباً ، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها وبرغم ذلك فعندما يأكلها  
الزبون قد لا يجد لها طعماً ، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولاً . . انتهى دوره . .  
إنه مجرد سمسار بين البطيخة والزبون . . وكذلك أنت قد تحقق صفقة السيارات  
وبهما ضمنتها من شروط فهي مجرد عقد ينتهي دورك فيه بمجرد توقيعه . . مجرد  
سمسار بين الشركة والزبون . . وقد يكتشف الزبون وهو داخل السيارة أنها عاطلة  
أو ناقصة وأنت لست مسئولاً . . أما أنا فشيء آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون  
حتى ينتهي من استهلاك البضاعة ، فإذا اكتشف فيها عيباً فقد لا يدفع الثمن  
المتفق عليه أو قد يؤذي ، بل إنني أحياناً أعطي أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمن إلى  
أمانتي في البيع . . تجارتي ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو الخداع . .  
أما أنت . . أنت سمسار تقدمني وتتفق مع الزبون ، أما أنا . . أنا البطيخة التي  
يأكلها الزبون ويجب أن تكون طبقاً للمواصفات وإلا ألقى بها من النافذة وماتت  
أقصد ضاعت . . هل فهمتني . . إنني لهذا أعتبر نفسي متواضعة عندما أقارن نفسي  
بك . .

وزفر أنفاسه قائلاً :

- لا أدري لماذا أحتملك . .

وقالت ساخرة :

- لأنك في حاجة إليّ . .

قال :

- احذري فإني أستطيع أن أطردك في أي لحظة . .

قالت مبتسمة :

- إنني واثقة أنك لن تطردني الآن . . إن حاجتك إليّ تجعلني أنا الأقوى . .

هذا هو حكم الحاجة دائماً . قانون العرض والطلب . . ربما بعد أن تنتهي العملية تطردني لأنك تنتهي من حاجتك إلى . . ولن أفاجأ . . إني أحسب حساب كل شيء . .

ونظر إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد :

— لم أكن أتصور أنك بهذه المادية . . ليس فيك ذرة من العاطفة . .  
خيريني . . هل عرفت الحب يوماً ؟ .  
وابتسمت كأنها تحقّره وقالت :

— إن الحب هو امتياز للأغنياء ، وليس مهنة للعاطلين . . هكذا قال أوسكار وايلد . . وأنا لست غنية حتى أعيش في ملهاة الحب ، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش منها . . إن ما تمارسه شيء آخر غير الحب . .

قال :

— إنك تعرفين أيضاً أوسكار وايلد . .

قالت :

— قلت لك إني تخرجت في كلية الآداب . .

قال :

— ولماذا لم تحاولي أن تكوني شيئاً آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة ؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت :

— إن شهادتي تؤهلني للفكر . . أن أفكر وأبوع أفكارى . . ولكني اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو في أي بلد آخر . . الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا . .

وقال في استخفاف :

— لا أظن . . كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل . .

قالت :

— بالعكس . . اخترت الطريق الصعب . . إن اعتمادك على الفكر هو الأسهل . . ولكن أين تبيع هذا الفكر . . إن الشعب العربي كله لا يزال يعيش في عصر الترجمة . . إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار . . حتى عندما يحاول أن يتقدم في ما كولانه يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة . . انظر إلى آخر تطورات مجال الأطعمة . . الموت دوجز ، والويجي ، وكاناكي . . كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة . . لم يظهر فكر عربي يحاول أن يطور طعام العدس ، والفتة ، والفطير المشلتت بحيث يتأشى مع متطلبات الحياة الحديثة . . وحتى في السياسة . . إن أبرز رجال السياسة في البلاد العربية كلها لا يتميزون بشيء إلا أنهم مترجمون . . حتى النظم السياسية كلها نظم مترجمة . . تحالف قوى الشعب العامل نظام مترجم عن اليوغوسلافية . . والأحزاب والبرلمانات والرأسمالية والشيوعية كلها ترجمات . . حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكراً يكتشف لها نظاماً سياسياً خاصاً بها فترجمت النظام الغربي . . والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلي ولكنها لم تجد فكرة تعينها على تطويره ، وبدأ الإلحاح عليها بأن تقتبس هي الأخرى النظام السياسي الأمريكي . . وانظر إلى لبنان ، لقد كان يقال إن الشعب اللبناني أكثر الشعوب العربية تقدماً . . وقد استطاعوا أن يكونوا فعلاً مركز السوق العربية . . ولكنها سوق لا تتعامل مع عمليات الخلق الفكري ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أي مع البضاعة الأجنبية . . كل ما في السوق مترجم سواء في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد

أو في مجال الفن أو حتى في المظاهر الاجتماعية . . إلى أن وقع لبنان في مشكلة لم يجد لها حلاً مترجماً . . ولم يستطع الفكر اللبناني أو الفكر العربي كله أن يجد حلاً لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندنا ، فاستسلم لبنان للانهار . . وأنت . . أنت رجل الأعمال المحترم . . هل تعتبر نفسك مفكراً ؟ . . للأسف . . أنت أيضاً مجرد مترجم . . إلى أعرف عشرات من رجال الأعمال يتبعون نفس أسلوبك ونفس خطواتك . . أنت مترجم حتى وأنت تدخل في منافسات مع الآخرين . . إنك تنافس الآخرين كأنك في حلقة ملاكمة . . ولا شك أن الملاكمة في حاجة إلى ذكاء وحضور ذهن حتى تنتصر على خصمك ، ولكن اللعبة نفسها مترجمة . . لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية . . لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تبتكر لعبة جديدة فأنت لست مفكراً . . أنت مترجم . .

وصرخ في وجهها :

— إلى لم أدعك لتلقى على محاضرة فارغة . . سواء كنت مفكراً أو مترجماً فأنا على الأقل متمسك بالشرف . . شرفي . . أما أنت . .

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

— الشرف . . أرجوك . . لا تضحكني . . إنك تدعوني لتبيع ليلة لأحد عملائك . . أنا البضاعة وأنت التاجر . . فمن منا الذي يبيع الشرف . . ما ذنب البطيخة إذا حقها تاجر الفاكهة تبدو في داخلها حمراء . . من العشاش البطيخة أم التاجر . . ثم ما هو الشرف . . لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المعنى الجديد للشرف . . لم يعد الشرف يتركز في مكان واحد من الجسد . . الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه . . الشرف هو عدم الاعتداء ، وهو عدم الإيذاء ، وهو الترفع عن الغش . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية

الاجتماعية التي في الدول المتحضرة لا تعني الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعني وضع الشرف في معناه الصحيح . . وصدقني . . هذا المعنى المترجم أصبح سائداً في كل الشعوب العربية حتى وإن بقي في بعض المجتمعات سرّاً لا يعلن عنه . .

وقال في تأفف :

— أن تكوني كل ليلة في فراش رجل . . فأنت لا تزالين شريفة . .

وقالت دون أن تغضب :

— هذا صحيح ، مادامت لا أعتدى ولا أغش . . وأنت تخلط بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك . . الشرف هو إرادة فردية ، كل فرد يفسر الشرف كما يريد ، أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين . . قد أتفق مع رجل على أن يمتلكني ليلة واحدة وقد أتفق معه على أن يمتلكني العمر كله . . كل شيء له ثمن . . ثمن مالي وثن اجتماعي . . والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أي الزواج ، هو الفرق في الثمن . . لا تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية . . إنه مجرد عملية تجارية . . وجميع الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية . . عملية يحكمها الثمن وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن . . هل تدرى . . لقد قرأت أخيراً أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتي هن دخل خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتي لا يعملن وليس هن دخل خاص . . أتدرى لماذا . . لأن المرأة التي لها دخل خاص أقل احتياجاً للارتباط بعقد الزواج . . أقصد الاحتياج المالي والاجتماعي . . ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك . . أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقم لنفسها علاقة خاصة مع رجل آخر بجانب زوجها . . إنهم يقولون إن النساء الفقيرات أشرف من النساء العاملات

أو الثريات .. لا .. لمن أشرف .. كل ما هناك أنهم لفقيرهن أكثر استسلاما  
للكية الرجل .. وهناك رجال كثيرون لا يمكن أن ينالوا امرأة إلا في حدود الشرع  
والقانون .. شرف .. إن بينهم واحداً تزوج خمساً وأربعين امرأة .. شرف ..  
ياصديقي صدقتي ليس للشرف دخل في كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وضعته الأديان  
والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك .. مجرد تنظيم تجارى ..

وقال ساخراً :

- معنى هذا بالنسبة لك أن ثمن الامتلاك ليلة واحدة يدر عليك دخلاً أكبر  
من ثمن الامتلاك طول العمر .. أى ثمن الزواج ..

قالت في بساطة :

- لا .. إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة .. وأنا إلى الآن أفضل الأعمال  
الحرة .. لم ألتق بالرجل الذى يغربني بالوظيفة .. وظيفة العمر ..

وقام من أمامها في زهق وأخذ يخطو داخل العرفة :

- تأخذين منى ماتتى جنبه ثمناً لثوب واحد ثم تلقين على درساً فلسفياً ..

وقالت وهى تقوم كأنها تجرى وراءه :

- عدنا إلى الماتى جنبه .. يا صديقى الجاهل صدقتى أن هذا في صالح  
العملية .. لقد اشترت ثوباً بماتى جنبه ولكنى مثلاً لم أشتري حذاء .. انظر ..  
إنى أضع فى قدمى حذاء قديماً لا يساوى أكثر من خمسة جنيهات .. لماذا ..  
لأن الحذاء لا يعتبر اللبلة مؤثراً في المظهر ، فالثوب الذى اشتريته طويل سيغيبه  
ثم إن صيفك من هذا النوع من الرجال الذى لا يهمنه أن ينظر إلى حذاء المرأة  
لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حداثها ..  
ثم إنى أعطيتك من شراء الحلى التى أعتمد عليها في تزيين هذا الثوب .. كنت

أستطيع أن أصر على شراء عقد أو سوار أو خاتم حتى لو كان فالصو .. فإن  
صديقك من الرجال الذين لا يفهمون فى البترول ولا فى المجوهرات برغم أنهم  
يملكون بترول العالم ومجوهراته ، ولن يستطيع أن يميز بين الفالصو والحر ..  
وقد اكتفيت بالحلى التى أملكها فعلاً ودفع ثمنها رجل غريك .. كل هذا لأوفر  
عليك ، لأنى أعلم أنك لا تزال في بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول ..  
المهم كيف ستقدمنى إلى صيفك ؟

وقال في سذاجة :

- ماذا تقصدين ؟

قالت كأنها ضاقت بغيائه :

- أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه ؟

قال في زهق :

- كأنك تصورين أننا في طريقنا إلى حفل دبلوماسى .. إنى لست

في حاجة إلى تقديمك .. إنه سيفهم كل شىء بمجرد أن يراك معى ..

وقالت كأنها تبصق في وجهه :

- أنت عبيط .. لم أكن أتصور أنك جاهل بكل شىء وإلى هذا الحد ..

إنى مضطرة أن ألقى عليك درساً آخر .. أرجوك استمع لى بانتيه فهو درس مهم ..

إن هناك أكثر من صورة نستطيع أن نبدو بها أنا وأنت .. فإذا كانت العملية

سريعة نأفهمه أو كانت مجرد لقاء للدرشة فستطيع أن تقدمنى كصديقة ..

مجرد صديقة عابرة .. وهذا يعطى لصيفك الحق فى أن يغازلنى من اللحظة الأولى

ويستأذنى فى أن يأخذنى منك .. وإن كانت العملية أكبر قليلاً .. أى صفقة

صغيرة .. فإنك تقدمنى في هذه الحالة على أنى صديقتك الخاصة أى عشيقتك ..

وتتظاهر بأنك في حالة حب معي . . هذا من شأنه أن يرفع ثمنى ويجعل صديقك يدفع أكثر لأني سأبدو أمامه امرأة أصعب في الوصول إليها . . أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلاً فإنك تقدمنى إلى صيفك على أنى أختك أو ابنة خالتك ، لأنى أنقلب في هذه الحالة في خيال الضيف إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلا في حماية عائلية أو كما يقولون في حماية محرم . . وبذلك يصبح الثمن أكبر ويصبح التأثير على صيفك حتى يتم العملية أسهل على . . أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعلمية التى تقوم بها اليوم فإن الطريق الصحيح هو أن تقدمنى إليه على أنى زوجتك . . وقاطعها صارخاً :

- هل جنتت . . هل تصورين أن يصل بي الأمر إلى هذا الحد . . أن تكوفى زوجتى . . والله ولا مائة مليون دولار . . وقالت في هدوء :

- أرجوك . . استمع في هدوء ، إنى لا أطلب منك شيئاً ولكنى ألتى عليك درساً في مهنة رجال الأعمال . . إنى عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرنى جزءاً من الصفقة . . أى إذا كانت العملية تساوى مليوناً ونصف مليون دولار فهو مستعد أن يوقعها بلميون فقط والباقي لزوجتك . . أى أنا . . إن الزوجة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة . . ولكننا في هذه الحالة في حاجة إلى عدة إجراءات مكملة . . فيجب مثلاً أن ندعو معنا إحدى صديقاتى حتى تبدو كأننا أرباء وأنك لم تأخذنى إليه وإنما معنا امرأة أخرى لتجالسه وتهم به . . ولا تخش شيئاً فإنى مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبنا وسيضطر أن يبذل مجهوداً أكبر حتى يصل إلى ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر . . وفى هذه الحالة

فإنى يجب أن أضع على كتنى معطف فيزون حتى أبدو كأنى فعلاً زوجتك . . لا تخش شيئاً . . لن تدفع ثمن الفيزون . . ولكننا . . سنستأجره . . إن لى صديقة تاجر معطفها الفيزون كما تاجر شقتها المفروشة . . وقال ساخراً :

- وطبعاً . . بما أنتى قدمتك كزوجتى فإنى مضطر بعد ذلك أن أتزوجك فعلاً حتى لا ينكشف أمرى أمام الرجل الذى يمكن أن يستمر تعاملى معه سنوات . . هذا ما تسعين إليه . . هذا أبعد من كل أحلامك . . وقالت في تأفف :

- إنك رخيص . . إنك أغنى من أن تفهم . . لماذا أتزوجك فعلاً . . ما مصلحتى . . لقد اشتركت في عملية منذ سنتين وكان صاحبها يقدمنى في مجتمع الأعمال على أنى زوجته . . وكان فعلاً رجلاً ممتازاً رائعاً . . واستطاع وهو معى أن يحقق ثلاث صفقات ضخمة ، وكان دائماً يعترف بفضلى ويعطينى حتى ، وبعد الصفقة الثالثة طلب منى أن يتزوجنى فعلاً . . قال لى إن المجتمع العالمى أصبح بظن أننا أزواج فلنحقق ظن العالم . . ولكنى رفضت . . لماذا . . لأنى أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فإنى سأصبح أقرب إلى موظفة عنده . . ثم إننا تعودنا على أن نكون معاً بلا زواج وربما بعد أن نتزوج يزهق ويضيق أحدنا بالآخر . . بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة لى لذلك تركته . . أصبحنا مجرد أصدقاء . . وعندما يسأله أحد عنى فيجب بما يفهم منه أننا انفصلنا بالطلاق . . ولكنه كان نوعاً آخر من رجال الأعمال غيرك . . كانت كل أعماله فى الخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باريس أو نيويورك . . ومجتمع الخارج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعى أننا

زوج وزوجة . . أما أنت . . إنك لا تزال رجل أعمال محلياً والأعمال المحلية تبقى دائماً في مستوى تافه ضئيل . .

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال في تردد :

• وكيف تريدني أن أقدمك إليه . .

وقالت في زهق :

- لقد شرحت لك كل أساليب العمل . . وعليك أن تختار الأسلوب

الذي تقتنع به . .

وصمت طويلاً وهو يفكر ثم قال :

- اسمي . . لن أقدمك إليه بأى صفة . . لا زوجتي ولا عشيقتي . .

وتتركه يفهم ما يريد . . ولكننا سنصحب صديقتك معنا ونتركه يفهم أنها

له وأنك لي . .

وابتسمت قائلة :

- بدأت تثبت أنك لست غيباً كما تصورتك . .

• • •

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهي يجانبه في السيارة عائداً بها إلى بيتها :

- طلب مني أن أحادثه في التلفون . .

وقال في دهشة :

- متى طلب منك . . لم أسمع شيئاً . .

قالت ضاحكة :

- إنك عندما تأكل لا تسمع . . بطنك أقوى من رأسك . . وتصور . .

إنه لم يطلب من صديقتي أى موعد . . اسمع . . إن حديثي معه في التلفون

قد يستمر ثلاثة أو أربعة أيام . . وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأنى لا أستطيع

أن أقابله في جناحه بالفندق . . ولن أقابله وأعطيه شيئاً إلا قبل أسبوعين وفي خلال

الأسبوعين يجب أن تكون قد انتهت من الصفقة . . هناك خوف على الصفقة

له أعطيته نفسى قبل أن تم يجب أن يدفع مقدماً . . ويجب أن تدعوه معنا كل

ليلة أو نتركه يدعونا وستكون صديقتي معنا دائماً . .

وقال :

- كيف ندعو صديقتك وأنت تقولين إنها لم تعجبه ؟

وقالت :

- لا تكن غيباً . . اترك هذا الموضوع لي . . سأقول له إنى أتعهد دعوة

صديقتي لأنى أعرف أنها لا تعجبه فلا أغار منها عليه . . هذا يجعله أكثر سعادة

وأشد انخداً . .

• • •

وبعد أيام اتصل بها في التلفون وهو يصبح مهللاً في فرح :

- تمت الصفقة . . وقعنا العقد . .

وقامت في برود كأنها انتهت من عملية عادية :

- مبروك . . وسألقاه غداً في الشقة التي استأجرها . .

قال كأنه يزغرد :

- سألقاك الليلة وحدنا وستقيم احتفالاً خاصاً بالنجاح . .

وقالت :

- لا . . الليلة سأسهر مع صديقتي ميمى . . إنها ثائرة على وأنت تعرف

ميمى . . إذا ثارت فربنا يستر . . اذهب أنت إليه وحده . . لا يصح أن



تهمله بعد توقيع العقد . . . وقل له إني في زيارة أُمي لأنها مريضة وسأكون قد حدثته بالتليفون . . .

° ° °

وكان جالساً في الصباح يملاً عينيه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية ، تحمل إعلاناً عن العقد الذي وقعه باستيراد سيارات النقل . . . وصورته وهو يوقع العقد ويحانه الضيف الكبير ومعه المسئولون من كبار الموظفين . . . وكلهم يتسمون . . .

لقد وصل . . .

حقق المليون الأول . . .

عقبال المليون الثاني . . .

وأخذ يقلب في صفحات الجريدة وكل نبضاته تخفق بالسعادة . . . وفجأة اتسعت عيناه في دهشة . . . إنها هي . . . صورتها . . . وهذه صورة صديقتها . . . ثم هذه صورة السيدة ميمي . . . إن بوليس الآداب هاجم منزل ميمي وقبض على من فيه من النساء . . .

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يدارى فضيحة . . . وهمس كأنه يواسى نفسه :

- البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء . . .

❖ تائه بين السماء والأرض ❖

## كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينمائي ، وقد سبق أن طالبت بأن نعرف بأدب السينما كما اعترفنا بأدب المسرح ، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب . .

وقد حدث أن اتصل بي الأستاذ عبد الحلیم حافظ باحثاً عن قصة ينتجها سينمائياً ويمثلها . . وقلت له :

- لماذا لا نستلهم قصة حياتك ؟

وبدأت أكتب من وحي قصة حياة عبد الحلیم حافظ دون أن أكون مؤرخاً له ، إنما أطلقت لخيالي حرية تصور الحياة التي اختارها عبد الحلیم ، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أني جعلت البطل يغني باللغة الإنجليزية والفرنسية معبراً بذلك عن العقدة التي يعانى منها كل الفنانين والتي يمكن أن تسمى عقدة « عمر الشريف » فكل منهم يريد أن يكون عالمياً ويمثل أو يغني باللغة الأجنبية كعمر الشريف . .

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينمائي يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة ، وهو في الأصل عمل جماعي يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل ، والممثلة . . و . . وكل هذا بعكس الأدب المجرد أو الأدب المقروء الذي يتم في مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده . .

لذلك فهذه القصة السينمائية التي يقرأها القارئ لن تكون أبداً هي نفس الفيلم الذي يشاهده المتفرج ، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردي عن العمل الجماعي . .

كل ما في كان مركزاً على صلاح .. وكان صلاح يعنى كعادته وكأنه يعنى لكل واحد من هذه المئات المتجمعة من أمامه .. فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته .. ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس في آخر صف من الصالة العريضة .. إنه ينسى وهو يعنى .. ينسى كل شيء .. إلا مسؤوليته عن فنه .. ينسى مسؤوليته عن نفسه ..

واستدار صلاح مواجهاً الفرقة الموسيقية وظهروه للجمهور .. إن صلاح يستدير أحياناً ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية .. ولكنه غالباً ما يستدير ليتلقظ أنفاسه وظهروه للجمهور .. إنه إنسان عاды من حقه أن يريح أنفاسه ويبعد التقاطها ويريح ابتسامته ، ويريح نظرات عينيه من الأضواء المطلقة عليها ومن افتعال القوة والجمال والأمل الذى يبدو دائماً فى الصور الفوتوغرافية التى تلتقطه .. أو هو واقف أمام الجمهور الذى يعنى له ..

وأنا جالس فى الصف الأول من الفرقة الموسيقية ، وعندما يستدير صلاح يواجهنى مباشرة .. وجلسنى فى منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعى الذى يتطلبه التوزيع الموسيقى لآلة الناي ، ولكن أيضاً لأنى أصر على أن أكون دائماً بجانب صلاح .. وتطلعت بكل عيني فى وجه صلاح .. لا أحد يستطيع أن يرى فى وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا ..  
وهمت إليه همسة أقرب إلى الأمر :  
- اشرب قليلاً من الماء ..

ومددت يدى تحت مقعدى حيث أنعمد دائماً أن أحفظ بكوب من الماء .. ولكن صلاح ابتعد عني بسرعة واتجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار



كنت جالساً على مقعدى بين أعضاء الفرقة الموسيقية والناى بين أصابعى وقد أسدته فوق ركبتي وكل عيني مركزتان على صلاح وهو يعنى .. لم أكن أنطلع إلى الجمهور الكبير الذى يستمع ، رغم أنه جمهور يضم كل الشخصيات الكبيرة فى البلد .. ونحن الموسيقين .. نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء الحفلات الغنائية .. الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب .. ونحن أيضاً ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية .. إلا إذا قام واحد منا ليعزف « سولو » بمفرده .. فنركز نحن والجمهور اهتمامنا عليه .. ولم أكن أيضاً أركز اهتمامى على الناي الذى أحمله بين أصابعى .. إن هذا الناي .. عود البوص الهزيل المتواضع .. هو كل حياتى .. ورغم ذلك فى هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامى كثيراً .. فالفترات التى سأشارك فيها بالناى خلال اللحن .. متباعدة .. وحفظها غيباً إلى حد أن أذى أصبحتنا تستطيعان أن ترفعا يدى بالناى إلى شفتى بمجرد أن يأتى دوره .. دون أن أحتاج إلى تركيز ذهنى عليه .. وحتى الفقرات التى وضعت لأعزفها « سولو » كانت متمكنة منى إلى حد أنى أقف من تلقاء نفسى وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترتيب والانتظار ..

والأورج وأخذ يقودهما بتأثيرات ذراعيه . . لعله لم يسمع همسنى . . أو الأرجح أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفثته الابتسامة الواسعة وفي عينيه بريق القوة والجمال والأمل .

وأهبط صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية ، أى يواجهنى . . وجهه ملاً عيني . . وذعرت . . استولى على نوع من الخوف أقرب إلى الفزع ، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة . . وقلت وأنا لا أتعمد الهمس ولكنى أكنم الصراخ . .

— لا تكرر الكوبليه . . ادخل فى الكوبليه الثانى وبسرعة . . اختم بسرعة . .

وكان مفروضاً فى هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناي سولو . . وكنت قد تعودت أن أطيل عزف هذه الفقرة . . وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير . . ولكنى فى هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأنى تلميذ يلبد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها . . وأهبتها بسرعة وجلست ، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلح على طويلا كعادته فى إعادة الفقرة ، والتصفيق لى تصفيق بارد . .

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكوبليه التالى . . ولكن الجمهور اشتد صراخه وتصفيقه مطالباً بالعودة إلى الكوبليه السابق من الأغنية . . وإذا بصلاح يستسلم للجمهور . . للناس . . الناس الذين لا يستطيعون أن يروا فى خطوط وجهه ما أراه أنا . . ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ فى إعادة غناء الكوبليه السابق . .

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكوبليه وواجهنى . . مد يده إلىّ وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته رغم أنها أصبحت ابتسامة ضعيفة لأن ظهره للجمهور . . وفهمت أنه يريد كوب الماء . . ولكنى ما كدت أمد يدى إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عنى . . لقد غير رأيه . . لن يشرب جرة ماء . . وابتعد عنى إلى الناحية الأخرى من الفرقة . . وانتهت الأغنية . . إن الفقرة الأخيرة أيضاً كررها صلاح ثلاث مرات . . . والتصفيق . .

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور . . ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة . . وبين شفثته ابتسامة ضعيفة . . يقاوم كثيراً ليحتفظ بها كأنه يهدئها لنا . . وجفناه يتأرجحان فوق عينيه . . وهو يميل فى وقفته كأنه يبحث عن شيء يستند عليه ، ثم مرة واحدة سقط . . سقط على الأرض . .

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفثته . . وركعت بجانيه . . لم أبلك . . ولم أكن أنتظر دموعى . . فإنى كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث . . وكنا كلنا نعرف تعليقات صلاح فى مثل هذه الحالة . . الصمت . . لا أحد يتكلم . . لا يجب أن يعرف غريب وخصوصاً من الصحفيين ما حدث . . وتلكأ أعضاء الفرقة الموسيقية . . إلى أن دخل يس سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذى يصاحب صلاح دائماً . . وأعطاه حقنة فى فخذة أوقفت التزيف بسرعة . . ثم استطاع أن يقوم واقفاً واستند علىّ حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح ، وتركانه للطبيب . . وأفراد كثيرون من

الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح . . وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ويترك للنكات الضاحكة أن تنطلق :

ومرت ساعة . .

وخرج صلاح من العرفة ومعها الطبيب الذي لا يعلم أحد أنه طبيب . . وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار . . ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد ليواجه جمهوره كله بإبتسامة تملأ وجهه . . وخطواته مرحة . . ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل . .

وركب سيارته . . وصمم أن يسوقها بنفسه . . وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواعة :

- دعني أسوق أنا يا صلاح . . طول عمري وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة . .

إنها سيارة متعبة مثلك وأنا متخصص في المتعبين . .

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة بنفسه . . ويشير للجمهور الواقف محيياً بذراعه . . ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت . .

وما كاد يرى فراشه حتى انهار . .

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه . .

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدرة . . ودمعتان ضعيفتان تنزلقان من

عينيه كأنهما تواسيانه في آلامه . .

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت . .

إن فاطمة مثلي . . إنها تستطيع أن بما سيحدث لصلاح قبل أن يحدث . .

إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه . . إنها تعتمد على هاتف

إحساسها ، هاتف الحب . . إنها تحبه إلى حد إنها ترى داخله حتى وهي

بعيدة عنه . . وهي دائماً بعيدة . . إن صلاح لا يريد لها أبداً أن توجد بين الناس في حفلاته . . يريد أن يحتفظ بها فوق الناس . . يريد لها وحده . . أنانية الفنان . .

والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه . . وأنواع متعددة من الدواء . . الإبر . . والحجوب . . وما يذوب . . وما لا يذوب . . ثم انتهى بعد وقت طويل . . وهو يقول له في حدة . . كأنه يهيم أن يصفعه :

- قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة . . ولكنك لم تسمع الكلام . . اسمع . . أمامك ثلاثة أسابيع ترقدتها في الفراش . . سامع . . ثلاثة أسابيع . . بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولاً عنك بعد اليوم . .

وأمرنا الطبيب أن نخرج كلنا من العرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء مئوماً لينام رغم أنه . .

وعدت إلى بيتي وكل ما في رأسي هو هذه الأسابيع الثلاثة التي فرض على

صلاح أن يقضيها راقداً في فراشه . . إنني أعلم أن صلاح مرتبط بأكثر من حفلة

خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، أقرها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين . .

ولكن لا شك أنه سيعتذر . . إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له . .

لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بأزمته وهو فوق خشبة المسرح . .

لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام . . أما أن يصاب بها

وهو على المسرح . . فهذه هي المرة الأولى . . ولعلها تكون درساً له . . فإني أعلم

أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضاً . . ولن يعرض نفسه لمرضه

مرة أخرى وهو أمام الناس . .

واعتذر صلاح فعلاً عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء . .

إلى أن صدمت . .

كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطيب . . وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالا ، وكان مطيعاً فعلاً لكل التعليمات . لا يتحرك من فراشه ويسأل نفسه عن الدواء . . مرتاحاً هادئاً . .

كأن أحياناً عندما أكون معه يكلفني بمهام تافهة . . حتى كان يخيل إلى أنه يعتمد أن يبعثني عنه . . وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة . . ومع أصدقائه . . إلى أن كان صباح يوم الخميس . .

وذهبت إليه في الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتي . . إنه ليس في البيت . . وفاطمة جالسة تبكي . . إنها لا تعرف أين هو ؟

ولأحد في البيت يعرف . لقد خرج كأنه هرب . . لم يره أحد وهو يخرج . . وكنت أنا أعرف . . واكتشفت أنه خلال وقاده في فراشه كان يتخلص مني أنا وفاطمة ليتحدث في التليفون . . وليس هناك إلا جهة واحدة يهيمه أن يتحدث معها في التليفون ، الجهة التي يحتاج إليها . .

وذهبت إلى نادي الفرقة الموسيقية . . ورأيت أمامي واقفاً بين أفراد الفرقة الموسيقية يجرى بروفات على أغاني الحفلة التي كان مقرراً أن يقيمها الليلة لصالح مشروع بيت الطلبة . .

وابتسمت في أياس . . لأمل . .

وفتححت حقيبتى . . وأخرجت أعواد الناي . . وأخذت مكاني بين أفراد الفرقة . . ولم يقل لي صلاح شيئاً كأنه لم يفعل شيئاً . .

إنها قصة طويلة . . قصة بدأت منذ كنا أطفالاً . .

o o o



٢

. . لقد ولدت مع صلاح في قرية واحدة . . كفر ممونة . . وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه منذ كنا في عمر الصبا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية . . ربما لم يكن يحاول . . ولكن حيويته التي لا تهدأ ، وشقاوته الجريئة التي كانت تثير الغيظ أحياناً والضحك أحياناً . . كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله ، أحياناً لمشاركته اللعب وأحياناً للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايخة . . وأنا شخصياً كنت أحس بارتباطي بصلاح دائماً . . كنت أحب شقاوته . . وأحب جنونه وجرأته . . وأحب ذكائه . . وداًئماً معه نلعب الكرة الشراة أو نتسلل إلى حقول الذرة لنسرق ونأكل أو نتسلل إلى الجاموس والبقر المنتشر بين الحقول بعيداً عن أصحابه لنمتص اللبن بشفاها من أثدائها . .

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلاً هو العوم . . العوم في الترع . . والعموم في القناة . . وأحياناً لا يعوم ولكنه يلقي بنفسه في قناة صغيرة بعد أن يخلع ثيابه وينام في الماء وكنا نعلم أن هناك شيئاً اسمه بلهارسيا . . كل أهل القرية يعرفون البلهارسيا . . ويعرفون أن سمومها ترقد في مياه الترع والقنوات . . ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون في مياه الترع والقنوات . . وأنا مع صلاح دائماً في الترع وفي القنوات . . مع البلهارسيا . .

ولم يكن كل ذلك هو أقوى ما جمعني بصلاح . .

كان هناك ما هو أقوى . .

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعى معروفاً في القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة . . ولم يكن يغنى . . كان شخصية محترمة في القرية يمتلك عشرة أفدنة . . وأحياناً يستأجر عشرين فداناً عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشا . . وربما لهذا واحتفاظاً باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغنى . . إنما كانت كلما مزت بالقرية فرقة من الفرق الفنية الجواله تضم مطرباً يدعوها الحاج عبد الله إلى دواره ويقم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب . . وكان أهل القرية - كلهم - يجتمعون وهم في انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب . . فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها في أدب واتجه إلى داخل الدوار وترك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوي آذان الحاج عبد الله . . أما إذا أتى الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فمعنى هذا أن المطرب يستحق . .

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله في أنه يتولى بنفسه أداء آذان الفجر . . في كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة . . وكان صوته أعجوبة . . إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب ديني ، فهو ليس مؤذناً ولا إماماً للمسجد . . ولكنه فتان . . إنه مطرب . . إنه صوت غال نادر . . ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليد مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح مطرباً مشهوراً في مصر كلها . . ولكنه كان مصمماً على أن يحتفظ بشخصيته في القرية وبكل التقاليد القديمة المفروضة على هذه الشخصية . وربما كان يغنى أغاني عادية بينه وبين نفسه . . ولكن لا أحد يسمعه ولا أحد سمعه إلا وهو يؤذن آذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطى فته إلا لله حتى لو حرم منه الناس . . وفي مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله

أن يلقى أذاناً آخر . . وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة . . كنتجاح محصول القطن ، أو انفراج أزمة . . يقبل أن يلقى آذان العشاء بجانب آذان الفجر . . وبرة واحدة في عمره كله ألقى آذان الصلوات الخمس . . ألقاها كما لم يسمعها مسلم من قبل . . ألقاها ودموعه بين عينيه . . وكان هذا يوم توفيت أم صلاح . .

وكان صلاح عندما تكون معاً وحدنا يقف ويقلد والده في الأذان . . وكنت أيامها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صراصير الليل بجانب صوت أبيه . . ولكن صلاح كان يبدو متمتعاً منفعلًا فعلا وهو يقلد أباه . . وكان يقلده دائماً في الخفاء خوفاً من أن يصل الخبر إلى أبيه فيفسره بأن ابنه يستهزئ به . . ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتبني في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ويردد مواويل وأغاني الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلساتنا مع أولاد القرية أثناء الليل . . وبدأنا نحبه وهو يغنى . . لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدره كفتان . . ولكننا كنا نتركه يغنى أن نطلب منه أن يغنى . . لتغني معه . . وغالباً ما يرتفع صوتنا على صوته . .

ولم يجرؤ صلاح أبداً على أن يغنى أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغنى . . رغم أنه قطعاً ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه ، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحاذين ، وهي التقاليد التي حرمت على والد صلاح نفسه أن يغنى وأجبرته على الاكتفاء بأداء آذان الفجر ، وهي نفسها التقاليد التي كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أي شيء إلا أن يكون مطرباً . . وربما كان كقبية آباء الريف يصل غاية ما يتسامه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهلبية وقوة ضباط البوليس بين قرى الريف . . وأنا . . أنا ليس في عائلتي أي تراث ولا أي ظاهرة موسيقية . . ولكني وجدت

نفسى منذ صباى أمد يدى إلى أعواد البوص وأحاول أن أنفخ فيها أنفاسى لتصبح  
نعما . ثم بدأت أقلد الذين يصحبون الفرق الريفية من عازقى الأرغول والناى .  
أبجلقى فى أصابعهم وهى تتحرك فوق ثقبوب عود البوص بل إن أول ناى حاولت  
أن أعزف عليه صنعته بيدي تقليدا لما كنت أراه فى أيدي العازفين . ورغم  
ذلك فلولا ارتباطى بصلاح منذ صباى لما أصبحت الآن عازقاَ محترماً للناى .

إلى أن دخلنا المدرسة الابتدائية .  
وانقلنا . . صلاح وأنا . . لتقيم فى المركز ، ورغم أنى أكبر منه سنأ فقد كنا  
معا فى سنة دراسية واحدة . . ربما لأنى أصلام أكن من هواة دخول المدارس . .  
كان حلم صباى أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف الناى وصلاح يغنى  
لى . .

وفى المركز انطلقت هويتنا . . وانطلق بنا الفن إلى آخرة . .  
كان صلاح يغنى ليل نهار ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، وأنا أعزف الناى كلما  
استطاعت أصابعى أن تصل إلى ثقبوبه . بل إننا ، صلاح وأنا ، بدأنا نحاول  
أن نعزف ونغنى أى شىء نصل إليه . . صلاح حاول أن يغنى باليونانى تقليداً  
ليقال جريكى كنا نتردد عليه ، وحاول أن يعزف الأكورديون والبيانو ، والكمان ،  
والأرغول . . . . .

كل ذلك دون أن يخاطر على بال أحدنا أنه يرسم لنفسه مستقبلاً فتياً .  
وأذكر أننا كنا فى زحام مولد سيدى البرانى ، وانفصلنا مع بقية الطلبة إلى  
مكان بعيد وبدأ صلاح يغنى والطلبة تصفق وأنا أعزف الناى . . وكلنا نضحك . .  
وتقطع الأغانى لتبادل الشائتم التى كنا نعتبرها نكات . . وتجمع بعض الناس  
حولنا يستمعون . . إلى صلاح ويغنون معنا . . ويضحكون معنا . . وكان من

بين من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للبنات ، كن متباعدات فى خجل  
يتضحكن الضحكات الخجولة المثيرة . . وغنى صلاح إحدى الأغانى الريفية  
المعروفة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يغنى معه . . صوت خجول . .  
يغنى كلمتين وسكت . . ثم يعود يغنى . . ولكن الطالبات ابتدأن فى  
الإلحاح على الفتاة أن تغنى مع صلاح . . كأن البنات قررن أن يتحدثن فى الفن  
الأولاد . .

وتحن أيضاً بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمعه . .  
وغنت الفتاة . .  
بل اشتركت مع صلاح فى أغنية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة  
كل منهما يرد على الآخر بقطع منها . .

وكانت هذه الفتاة هى فاطمة . .  
ولم نعرفها يوماً . .  
وسأل صلاح بعدها عنها كثيراً . . ربما كانت ابنة موظف من موظفى المركز  
أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور . .

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة البنات بحثاً عن هذه الفتاة  
التى لم تكن تعرف أن اسمها فاطمة . .  
ولكن صلاح لم يعثر عليها أبداً . .

وفى هذا العام . . ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية . . توفى الحاج عبد الله  
والد صلاح وفى صباح يوم الوفاة . . ودون أن يبلغ صلاح أحداً ، أو يستأذن  
خاله الذى أصبح مسئولاً عن العائلة . . أو أخاه الأكبر . . وحتى دون أن يقول



لى . . سعد في الفجر إلى مئذنة جامع الكفر . . وأذن للصلاة . . كما كانت عادة أبيه . . كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أباه لم يميت ، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه أبوه ، أو كأنه كان يريد أن يرسل نحية لأبيه في قبره . . وذهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤذي الأذان . . واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتاً أقوى وأحلى وأداء لم تسمعه القرية من قبل . . وبدأوا يلتفتون حوله في ليالي الأتم . . ويطلبونه بأن يقرأ القرآن . . أو أن يعود ويؤذن لبقيّة الصلوات . . ولكن صلاح كان يرفض . . إلى أن عدنا إلى المركز . . إلى المدرسة . .

وبدأ صلاح يبدو في شخصية جديدة . . لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التي تقيده . . ويحسب حسابها . . ويخفي عنها حقيقة ميوله ومطمح أحلامه . . وقد تحرر بعد وفاة والده . . وأصبح يجاهر بفنه المتمكن منه ، ويركز كل ذكائه وكل جرائته وأحياناً كل جنونه على ممارسة هوايته . .

ولكنه لم يكذب يوماً في انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى . .

البلهارسيا . .

والبلهارسيا كانت قد أصبحت في الريف مرضاً عادياً كالزكام أو الصداع . . ولكن صلاح لم يكن ينتظرها . . لم يعتبر نفسه مشغولاً عنها رغم السنوات الطويلة التي قضاها في مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبلهارسيا . . لقد كان غروره بنفسه يرفض أن يدعه يعترف بأنه السبب في أى مصيبة تحدث له . . لذلك مرت شهور وصلاح منزو ، منهار ، ساخط على كل شيء ، يعالج نفسه من البلهارسيا . .

وشفى . .

لا . . إنني بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعا بأنه لم يشف . . وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته يتسرع ويهمل في علاج نفسه ، وبمجرد أن انقطع الدم الذي كانت تنزفه البلهارسيا اعتبر نفسه وكأنه شفى تماماً ولم يعد في حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج . .

وكان الانطلاق الذي اندفع فيه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتفي بالاشتراك في الفرقة الموسيقية التي تجتمع بين الهواة من طلبة المدرسة ، والتي أصبح بها مطرب المدرسة ، ولا يكتفي بالعناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التي يستطيع أن يغنى فيها . . ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شيء إلا إشباع هوايته . . لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يغنى ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية . . مجرد لعب . . ودائماً كان يسأل عن فاطمة . .

ولم يعلم عنها شيئاً أبداً . . حتى من صديقاتها اللاتي كن معها يوم رآها . . ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز ، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد . . إلى أن انتهينا - هو وأنا - من المدرسة الابتدائية . .

وفي فترة الصيف قضينا أيامنا في القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا . . وكان المفروض أن المستقبل كله ينحصر في التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية . . ولكن لا صلاح ولا أنا ، نريد أن نضع أنفسنا بين حواطم المدارس . . نريد أن ننطلق . . أن نجري . . أن نهرب . . وتركزت كل أحلامنا في الالتحاق بالمعهد الموسيقي الذي كنا نسعى عنه . . أى أن نهاجر إلى القاهرة . . ولولا أننا كنا مجبرين على أن ندخل المدارس . . أى مدرسة . . لما فكرنا حتى في الالتحاق

بالمعهد الموسيقى ، ولانطلقنا نغنى ونعزف في كل البلاد كأى فرقة من الفرق  
الرفيعة .. إلى هذا الحد كان صلاح يريد أن يمارس فنه ، ويمتج به نفسه قبل  
أن يمتج به الناس .. وإلى هذا الحد كنت متأثراً ومقتنعاً بكل ما يخطر على  
بال صلاح ..

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة ، فقد دخلنا المعهد الموسيقى ،  
ولم يعارض خال صلاح .. فقد كان كل ما يشغل باله هو نفقات التعليم ..  
وربما كان مقتنعاً بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله الفنية ، فتركه لجنونه .. وأنا  
أيضاً لم يكن يهتم عائلتي إلا كم تدفع ..  
وذهبتا لنعيش في القاهرة ..



٣

ولم يلتحق صلاح بقسم الأصوات .. ولكنه التحق بقسم الآلات ..  
معى .. ربما لأن الدراسة في قسم الآلات أوسع ، وربما لأنه هو نفسه لم يكن يدرى  
حتى هذه الأيام هل يستطيع أن ينجح كمطرب أم يستطيع أن ينجح كعازف ..  
أنا شخصياً كنت أتمنى له ما أتمناه لنفسى رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته  
وصوقى .. كنت أريده أن يكون عازفاً .. لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطوع  
من امتلاك صوتك .. إن الآلة لا تستطيع أن تخالف أمرك .. ليست معرضة  
للمرض .. ولا للضعف ولا للهزال ولا لسرعة التطور .. الآلة إذا أصيبت بخدش  
تستطيع أن تلقىها بعيداً وتستبدلها بأخرى جديدة .. ولكن صوتك إذا خدش  
لا تستطيع أن تبدله .. والآلة تعيش التاريخ كله ..

البيانو الذى كان يعزف عليه شبلى هو نفسه البيانو الذى تعزف عليه اليوم ..  
مهما تطورت الأليحان .. ولكن صوت صالح عبد الحى لا يمكن أن يطرب الآن ،  
لأن الصوت مرتبط بالقدرة على التجديد ، والتجديد يعتمد على الطبقات  
الصوتية .. والطبقات الصوتية هي قدرات فردية لا يستطيع أى فرد أن يصل إلى  
ما يشاء من الطبقات ..

وأريد أن أروى كيف كنا نعيش في القاهرة .. ليست أعجوبة أن نبدأ في  
القاهرة وأن نعيش بقرشين صاغ في اليوم .. وتستطيع أيضاً أن تصل إلى مائة  
جنيه في اليوم ..

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش - صلاح وأنا - في حجرة واحدة مؤجرة

داخل بيت في إحدى حواري الجزيرة من البيوت التي تؤجر للطلبة . .

وكنت أصحو كل يوم وأنا في انتظار معجزة من معجزات صلاح ، قد تكون معجزة ترتفع بنا ، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا . . ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذي اختار أن يتخصص فيه عندما التحقنا بالمعهد ، ولا معجزة تقدمه بصوته الذي يغني به عندما كان يدهشني أنا شخصياً رغم أني عشت العمر كله مع هذا الصوت . . ولكن معجزته الكبرى هي قدرته على الاتصال بالناس . . واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة . . لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوي شيئاً إلا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس . . إلى الجمهور . . ولكي تصل إلى الجمهور يجب أن تصل أولاً إلى مراكز القوى التي تسيطر على حركة المرور إلى الجمهور . . مراكز القوى الفنية . . إنها مراكز تضم أفراداً أقرب إلى عساكر المرور . . تشير ، فتمر إلى الجمهور . . تشير فتفت مكانك دون أن تتقدم إلى الجمهور . . وأحياناً كثيرة تسحب منك رخصة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتيت كفنان . . وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء خارق في اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية . . إنه يعرف مقدماً ماذا يريد كل منهم . . ومنهم من لا تستطيع أن تكسبه إلا إذا بدوت أمامه ضعيفاً غلبان ، محتاجاً ، تثير شفقتك ، وتثير فيه عقدة السيادة وتنتعش فيه شهوة العظمة . . ومنهم من يحتاج لإقناعه لنوع من القوة أقرب إلى التهديد . . ومنهم من ينتظر رشوة . . والرشوة ليست دائماً مبلغاً من المال . . إن هناك أنواعاً كثيرة من الرشاوى وصلاح يستطيع دائماً بذكائه وجديته وحيويته أن يكتشف الإنسان الذي يحتاج إليه ، ويكتشف وسيلة الوصول إليه . . وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل

ولكسب حتى ترتفع من مستوى سندويتش القول إلى مستوى طبق الكباب . . ومن مستوى البطلون الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة بنطلونات . . ولم يكن هناك طريق أمامنا لتعمل ونكسب ونحزن لا نستطيع شيئاً إلا الفن . . ولا نقبل أن نتحرف عن إصرارنا بأن نعطي كل حياتنا لهذا الفن ، ولا أحد يعرفنا كفتانين في هذا البلد الكبير ولا نزاع طلبية في المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمتنا بعد . . ولكن صلاح استطاع في عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية ، وأن يكسبهم بذكائه وخفة دمه ، ولا أقول القدرة الفنية ، بل كان صلاح يعتمد إخفاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الجدد الغيرة والخوف على أنفسهم من فنه ، كما يحدث دائماً بين أفراد المهنة أو الفن الواحد . .

ولم يكد العام الأول يمر ونحزن في فقر نعيش على ثلاثة جنيهات في الشهر بتلقاها صلاح من بلده وجنيه واحد أتلقاه أنا ، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه في إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان ، ويضعني معه كعازف ناي . . وكسينا . . ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبطلونات وتفصيل البدل . . وارتفعنا أيضاً إلى مستوى السكن في شقة إيجار . . شقة وحدنا . . صلاح وأنا . . وكل ذلك كان ارتفاعاً إلى مستوى متواضع ، أي إلى مستوى عشرة في المائة من المستوى الذي نعيشه الآن . . ولكننا - أيامها - كنا نحس أننا ارتفعنا مليوناً في المائة من المستوى الذي نعلم أن نعيش فيه . .

وكان أصدقائنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يغني . . وكان يغني لهم ، والكثيرون منهم يهللون له ويلحون عليه أن يبدأ في محاولة الظهور كمطرب . . وكثيرون أيضاً استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب . . كفاية عليك الكمنجة ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمضطرب إلا في الجلسات الخاصة الضيقة . . إنه عندما يعنى يردد أغاني محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحياناً محمد عبد المطلب أو يردد الأغاني الريفية والشعبية . . وهو لا يريد لنفسه كل هذا . . إنه مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون له شخصية منفصلة . . شخصية قائمة بذاتها . . شخصية تخلق الجديد ولا تكتفى بترديد القديم . . إنه لا يريد أن يقدم نفسه للجمهور إلا كشخصية فنية جديدة ، شخصية الصوت . . وشخصية اللحن . . وشخصية الأداء . . يجب أن يبدأ بشخصية جديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل . .

ولكن الجديد ، يتطلب ملحناً جديداً . . وشاعراً جديداً . . إنه لا يستطيع أن يذهب إلى أى ملحن ويطلب منه أن يلحن له . . فهو غير معروف ، ولا يستطيع أن يدفع ثمن اللحن ، وصوته قد لا يكفي ليدفع أى ملحن إلى أن يقدم له لحناً مجانياً . . وعبد الوهاب إنه حلم صلاح . . إن عبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التي لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفاً في القاع . . إنه يخشى وهو في القاع ألا يصل صوته إلى القمة . . يرتعش ويخاف أن يرفضه عبد الوهاب . .

وبدأ ذكاء صلاح يعمل . . إنه جديد . . جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الإذاعة وشركات الأسطوانات وزعماء التلفزيون . . فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الفني الجديد . . إنه يقدم نفسه وهو مجهول . . ويجب أن يكون الملحن أيضاً مجهولاً . . وكاتب الأغنية . . وموزع الموسيقى . . والموسيقيين . . يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الجديد . . وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشباب المجهولين . .

بعضهم من طلبة المعهد . . وبعضهم من هواة . . وبدأنا كلنا نعمل لنضع أغنية جديدة . . فتأً جديداً . . كل ما فيه جديد ، قد ننجح كلنا أو نفشل كلنا . . قد ينجح الجيل الجديد أو يفشل الجيل الجديد . . كنا نعيش أيامها كأننا نخطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفني . .

واتبيننا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الفني الجديد . . كلنا كنا فيها نشترك في التلحين وفي الأداء وفي الغناء . . كنا نعيش كأننا في مظاهرة فنية . . ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس . . لا طريق إلا الإذاعة . . ولكن . .

مستحيل أن تقبلنا الإذاعة . .

وبدأنا كلنا نعيش اعتماداً على ذكاء صلاح . . وقد استغرق ذكاء صلاح عاماً كاملاً استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدي الذي يعتبر إحدى الشخصيات القوية في مركز قيادة الإذاعة . . وأعجب عباس بصلاح كفتان . . أعجب به فعلاً . . وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن الثورة على الروتين المتجمد للإذاعة الذي يحرم دخول الجيل الجديد . .

وأذيعت الأغنية . . لأول مرة . .

وسمعا الجمهور في عشر دقائق . . وكنا قد قضينا في إعدادها عامين ، آخرها أسبوعان لم نتم خلالها أبداً . . قضيناهما كليهما نعيد ونراجع . . ونعيد ونراجع إلى أن تم التسجيل في الإذاعة . .

فرحتنا الكبرى . . نجحت الأغنية . .

وكل الأسماء التي أذيعت معها ، كانت أسماء جديدة . . صلاح . . والملحن

رأفت التوتى . . والشاعر أحمد حلمى . . أما اسمى فهو لا يذاع . .

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه . . إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها . .  
ولا يمكن أن تخلق جمهوراً ثابتاً . . خصوصاً إذا كانت الأغنية قد أذيعت فجأة  
وبلا دعابة تجذب الناس لها . .

ترى كم واحدا سمعها . .

وأذكر أنى عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت ، وقال لى وهو منطلق فى  
تخيله كأنه يبحث به عن المستقبل :

- لسه بدرى يا عمر . .

وليلتها دخل صلاح الحمام ، وكنت فى غرقى واعتقدت أنه دخل يغسل  
وجهه . . ثم ذهبت إليه داخل الحمام . . وفوجئت به وقد أمسك الفوطة وهو  
يتمسح بها حوض الحمام والفوطة ملطخة بالدم . . وخطوط من الدم لا تزال  
معلقة داخل الحوض . . وذعرت :

- ما هذا الدم يا صلاح . .

وأجابنى صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه :

- لا شىء . . بسيطة . . إن دمي ثقيل وأحاول أن أخففه . .

وصرخت :

- هل هى المرة الأولى التى تنزف فيها دمك من فمك . .

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم :

- المرة الأولى . . وبإذن الله الأخيرة . .

وأخذته إلى فراشه ، وأنا ساخط أصرخ فى وجهه وأصمم على استدعاء  
طبيب . . ولكنه يرفض . . إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته . .

وهو مؤمن بأن لا شىء قد حدث له . . إنه لم يلم طوال أسبوعين ، وقد أسرف فى وضع  
الشطة داخل الساندويتش . . وهذا هو كل السبب . .

ونام . .

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التى ترسم على وجهه عندما تنتابه

الأزمة . .

خطوط تظل عالقة تحت عينيه حتى وهو نائم . .



وفي صباح اليوم التالي دق جرس الباب .. وفتحت ..  
إنها فاطمة ..

وفرحت بها كأني وجدت الدواء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ صلاح ..  
وأجلستها في الصلاة ، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقداً متعباً من أثر  
الأزمة .. وما كاد يعرف أنها فاطمة .. الفتاة التي يبحث عنها منذ خمس سنوات ..  
حتى قفز من الفراش وألقى على وجهه قطرات من الماء .. وأدخل نفسه في قميصه  
وبنظولونه .. وجرى إليها .. إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يبني نفسه :

— الأغنية نجحت .. مادامت قد جاءت لي بفاطمة فقد نجحت ..

وكان هذا صحيحاً ، لقد سمعت فاطمة الأغنية في الإذاعة .. وقالت له إنها  
عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلا مرة واحدة في سوق سيدي براني  
ومنذ خمس سنوات .. واتصلت بالإذاعة وعرفت عنوانه وجاءت .. وقد حاولت  
من قبل أن تتصل به فلم تستطع .. مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة  
أخرى إلى دمنهور ، وسألت عنه هناك ، ولم تجده ..

ورأيت صلاح يومها كما لم أراه منذ زمان طويل .. إن ضحكته منطلقة صادقة  
ليس فيها هذا التعمد الذي يضعه دائماً كأنه واقف دائماً أمام آلة تصوير ..  
والخطوط التي تركتها الأزمة تحت عينيه اختفت بسرعة .. وهما يتذكران الأغنية  
التي غناها معاً في المولد .. ثم يعنى لها أغنيته الجديدة وتغنيها معه .. إن صوتها  
فيه شيء .. إنها يمكن أن تصبح شيئاً جديداً .. كبيراً ..

وأصبحت فاطمة في حياة صلاح .. لا .. أقصد إن صلاح أصبح في حياة  
فاطمة .. أما حياته فإني لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة  
أو أي إنسان آخر .. لقد أعطته فاطمة قوة جديدة .. قوة الزهو بالنفس ..  
قوة الغرور .. ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلا لفنه .. أناية الفنان ..  
وقد بدأ صلاح في إعداد الأغنية التالية .. ويقضى كل أيامه مع فنه ، وفاطمة  
لا تجد طريقاً إليه إلا أن تجرى وراءه .. وهي لا تغضب .. إنه يعطي نفسه لشيء  
تحبه .. لفنه .. وهي راضية ، فرحة به .. ويتحملها كأنها هي التي تغني ..  
وكانت تغني فعلاً .. كانت في الأوقات التي يبني فيها صلاح في البيت وتأتي  
إليه ، تغني معه .. وتعيد كل ألحان البروفات التي كان يؤديها وهي جالسة  
تسمعه .. وفي يوم قلت لصلاح :

— إن فاطمة صوت جديد .. إنها تستحق أن تكون مطربة .. لنحاول  
أن نقدمها لأصدقائنا .. ونظر إلى صلاح في دهشة كأني قد نسيت .. وقال :

— أنتظر إلى أن أنتهي من بناء نفسي أولاً ..

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء .. أناية الفنان .. ربما لم  
يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفني الذي كان قائماً بين عبد الوهاب وأم كلثوم .  
كان يخاف أن يعاني هذا الصراع ويخلق أم كلثوم أخرى .. من يدري ربما كانت  
فاطمة تستطيع أن تكون شيئاً جديداً بالنسبة لأم كلثوم ، كما أصبح صلاح  
شيئاً جديداً بالنسبة لعبد الوهاب .. ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن  
تكون أم كلثوم .. لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة ..  
يكفيها صلاح .. إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها ..

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن النجاح لا يتم إلا يجذب الناس

- إنك تقسو عليها بهذا التجاهل . .

وقال وهو يشهد بحسرة :

- إني أقسو على نفسي . . إن مسئوليتي عن فني تأخذ مني أكثر مما أطيع . .

إن المغنى الذى يغنى للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة . . كالفناني الذى يقرأ قصة حب ، إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها ، وقد تكون القارئة فتاة يأخذها خيالها إلى أن تتصور نفسها بطلقة وأنها هى التى يحبها كاتب القصة . . وكذلك المطرب . . إني عندما أغنى الحب أرفع المستمع إلى الحب . . إلى الخيال . . ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أنى أغنى لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمع . . يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى واقع قصتي مع فاطمة . . أنا محكوم علىّ حتى أحفظ بخيال المستمع والمستمعات واقع بأن أشعر كل فتاة بأنى أغنى لها حتى ولو كنت في الواقع أغنى لفاطمة . . محكوم علىّ أن أخفي حتى داخل قلبي وتحت ثيابي حتى لا يراه الناس . .

وربما لم أقتنع بهذا الكلام . . ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعة به . . كانت مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكاً لنفسه . . فإذا اهتمت به . . يتسم لكل الناس . . وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس . . ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس . . إنها تفكر كما يفكر صلاح . . وتحس كما يحس صلاح . . بل خيل إلى أنها أصبحت تتكلم بنفس أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضاً تقلده في حركاته دون أن تعتمد التقليد . . ربما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها . . وربما لأن النجاح السريع الذى حققه صلاح يجعل كل من يطمع في النجاح يتأثر به . .

إلى العمل الفنى . . إن كل شيء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة . . وقوة الجذب الكبرى هى الصحافة . . إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة كقوة لجذب الناس . . لا يمكن أن الزعم يلقى خطاباً ويجذب الجمهور دون أن تقوم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه . . والشيكولاتة لا يأكلها الناس إلا إذا جذبهم إعلانات الصحف إلى شرائها وأكلها . . وكذلك الفنان الذى يواجه الجمهور . . وبدأ صلاح يركز ذكاه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا الناس إلى أغانيه الجديدة . . صغار الصحفيين وكبار الصحفيين . . وأذكر أن صلاح أقتنع أحد صغار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين . . وصحب الصحفى الصغير صلاح إلى الصحفى الكبير وطلب منه أن يستمع إليه ولم يكن قد سمعه فى أغنيته الأولى ، وقال الصحفى الكبير :

- اعمل معروف . . لا تجربه فى . . دعه يجرب نفسه فى غيرى . .

ولم تنفص شهور حتى أصبح هذا الصحفى الكبير من أقرب أصدقاء صلاح . . إن صلاح لا يئأس أبداً من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم . . وبدأ اسم صلاح يلعب فى الصحف . . ولم يكن يمكن حتى يلعب اسمه أن يكون صديقاً للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجح فى اجتذاب الجمهور ، حتى تضطر الصحف إلى ترديد اسمه . . أى يصبح نجاحه أقوى من أن تتجاهله الصحف . . ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة . . وبدأ صلاح يخفى قصة حبه . . لقد طلب من فاطمة ألا تكون معه أثناء البروفات وطلب منها ألا تظهر معه فى مكان عام . . وكان عندما يدعى إلى حفل خاص ويجدها هناك يعتمد أن يبدو أقل اهتماماً بها . . بل يعتمد تجاهلها . . وقلت له يوماً :

وفاطمة لا شك تطمع في النجاح . . وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن تنجح فيه . .

ولكن الحدث الأكبر في حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت بمرضه . . كان قد مضى أكثر من عام وهو يخفى عنها الأزمات التي تتابها وتفقد بدمه من بين شفتيه ، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم . . كان يعتبرها هي أيضاً واحدة من الجمهور الذي يخفى عنه مرضه . . حتى لا تنهار صورته الفنية . . صورة الشاب المرح القوي المليء بالحياة الذي يعنى للحب . . كانت شخصيته الفنية تغلب شخصيته الآدمية ، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن تحبه كبنى آدم . . إنها تحبه فقط كفنان . . والفنان لا يمكن أن يكون مريضاً . . وكانت فاطمة أحياناً تلمح الهزال والضعف الذي يبدو على وجه صلاح . . ولكن - لأنها لم تكن تعرف أنه مريض - كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو نتيجة إتهالك نفسه في عمله الفني . . وأحياناً كانت تعتقد أن هذه هي طبيعة تكوينه الجسماني . . ولد هكذا . . ترسم فوق وجهه خطوط الضعف والهزال . . وينحصر قوامه في جسد رفيع قصير . . وكانت تقول له ضاحكة : -  
- صلاح . . طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عاماً . . إنك تستطيع أن تمثل في السينما أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج . . يابختك . .  
احمد ربنا . .

إلى أن كانت يوماً معنا في البيت . . وكان صلاح قد استيقظ من النوم منهكاً عصبياً وجلس معها وهو لا يستطيع أن يستمر في حديث . . ولا يستطيع أن يعنى لها أو يدعها تعنى له . . وفجأة تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه كأنه محتقن ، ويضع يده على صدره كأنه يحس في داخله بطلقات مدفوع

مترليوز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرخ . . وصرخت فاطمة :

- صلاح . . ماذا حدث لك . . أجبني . . تكلم . .  
ولم يتكلم صلاح . . إنه لا يستطيع . . وقام يجرى مترنحا ناحية الحمام ، وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض وانفجر شلال الدم من بين شفتيه . . إنها الأزمة . .  
ولأول مرة تراه فاطمة في أزمته . .  
وساعدتني فاطمة في حمله إلى فراشه ، وهي ترتعش وتصرخ :  
- الدكتور . . اطلب الدكتور . . أين الدكتور ؟ . .  
ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى ذلك اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب حتى لا يعرف الناس خبير مرضه :  
وكان شلال الدم قد توقف قبل أن نصل بصلاح إلى فراشه . . إنه شلال لا يستغرق سوى ثوان كطلقات مدفع المترليوز ، ونظر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة ، وقال في ضعف :  
- لست في حاجة إلى دكتور يا فاطمة . . أنا بخير . . الدم توقف . .  
ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول :  
- أمس وضعت على عشائي نصف كيلو شطة على الأقل . . وهذا هو السبب . . إنها ليست القوطه هي المجنونة كما يقول الناس . . إنها الشطة . .  
الشطة مجنونة وأنا مجنون بالشطة . .  
وفاطمة تنظر إليه في تعجب ، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ناثرة كأنها أم أخرجها أبنا عن هدوئها ، وصرخت في وجهه :



- اسمع . . أنا أفهمك جيداً . . ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب بعد أن يتقيأ دمه . . إننا نستدعي الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام . . وأنت أفرغت دمك ، ربما كان فيك شيء تمزق ، ولكنك لا تريد الطبيب لأنك لا تريد أن تعترف بالمرض . . لا تريد أن يعرف الناس أنك مريض . . حتى أنا أخفيت عنى كل هذه الأيام أنك مريض . . اعتبرتي واحدة من جمهورك . . إنك لا تحبني . . وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك الرفيع . .  
ورأيت صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شيابه مدافعاً عن نفسه ، ولأول مرة أسمعهم يعترف :

- فاطمة . . أنا أحبك . . عمرى ما اعتبرتك واحدة من الجمهور . . ولكنني أخفيت عنك لأنى كنت أخاف على حبك من مرضى . . إنى أريد حبك كاملاً ولا أريده إشفاقاً على من مرضى . .  
وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها :

- أثبت لى حبك . .

قال :

- كيف . . ما هو أكثر من أتركك تريننى فى ضعى . . فى مرضى . .  
قالت فى هدوء :

- الأكثر أن تتركنا نستدعى الطبيب . .

والفتفت إلى فاطمة تطلب منى أن أستدعى الطبيب فى التليفون ، واحترنا ، هى وأنا ، فى تحديد اسم الطبيب الذى نستدعيه ، ولكن صلاح هو الذى حدد اسم الطبيب . . من يدري ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل سراً ودون أن يبلغنى أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص

فى مثل حالته استعداداً لمثل هذا اليوم . . إن ذكاه يتسع لكل شيء . .  
وجاء الطبيب . .

وقبل أن يصل كانت فاطمة قد أخذتني خارج الغرفة وجلست معى بحجة أن تترك صلاح ليستريح وجعلتني أعترف لها بكل حالات مرض صلاح . .  
وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما نتصور ، ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه لعلاج المطرب المشهور صلاح ، وربما لأنه أحس بإرضاء غروره بنفسه واكتساب شهرة طيبة عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور ، وربما لأن هذه هى طبيعته فى تلبية حاجة المرضى . . الله أعلم . . ولكنه جاء بسرعة . . والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه ، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه . . وبدأ يسأله . . وصلاح يجيب إجابات مائعة ، وهو لا يزال مصراً على الاحتفاظ بابتمامته ، كأن الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور . .  
وتدخلت فاطمة قائلة فى حزم :

- قل كل شيء بصراحة يا صلاح . . وإذا لم تقبل فسأقول أنا . . إننى الآن أعرف كل شيء . .

ونظر إليها صلاح غاضباً ، كأنه ليس من حقها أن تتحداه بهذه الجرأة أمام غريب . . أمام واحد من الجمهور . . ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة فى حديثه مع الطبيب . .

. . واستغرق الطبيب وقتاً طويلاً فى الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن ، ثم قال وهو يجمع أدواته :  
- بسيطة . . ولكن أرجوك . . لا تتحرك من الفراش إلا بعد أن أقول لك . . إن الكشف لم يتم بعد . . يجب أن تأخذ أشعة على كل جسمك . . خصوصاً الكبد . .

ثم قال لنا الطبيب ونحن نسير به إلى باب الخروج :

- المسألة ليست سهلة . . أعتقد أنه نوع من تليف في الكبد نتيجة البلهارسيا . . نتج عنه فقاعات في المرئ يتجمع فيها الدم ، وتتضخم إلى أن يتقبأ دمه . . كل ذلك مجرد استنتاج ، في انتظار الأشعة . .

وما كاد الطبيب يخرج ونعود إلى صلاح . . حتى قال :

- العود . . هاتوا العود . .

وقالت فاطمة :

- عود إيه يا صلاح . . الدكتور كتب لك حقنة منومة . . ويجب أن

تنام . . تستريح . .

وصرخ صلاح :

- العود . . مش ممكن أنا وأنا عايز العود . . ونخلص . . اعتبرى الزيارة

انتهت . . فين العود . .

ودون أن أسمع رأى فاطمة . . حملت العود ووضعت بين يدي صلاح . .

إني أطمئن على صلاح والعود في أحضانه أكثر مما أطمئن عليه وهو بين يدي الطبيب . .

وانصرفت فاطمة خارجة وهي غاضبة .

ونغم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة . . وصرخت من بعيد :

- مش كده يا صلاح . . غلط . . راجع الفقرة دى تانى . .



. . وهكذا عشت مع صلاح . . عشت معه والأزمات التي تستنزف دمه

لا تنتهى ولا تتوقف وتكاد في كل مرة تقضى عليه ، ولا ينقذه منها إلا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعيده إلى الحياة . . حتى أصبحت أؤمن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم . . أقوى من علم الطب والأطباء ، إن العلم يأمره بأن يبتى في فراشه ويهدده بالموت . . والفن يأمره أن يعيش فنه ، أن يعيش بين الناس . . أن يعنى ويضحك ويعمل . . ويتنصر الفن على العلم . . ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو في حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة ، فهو لا ينام الليل أبداً وينام النهار ، وعندما حاولت في بداية هذه الحالة أن أجعله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار . . قال لي في يأس :

- لا أستطيع . . إني أخاف الليل . . أخافه لأن كل الناس من حولي

ينام . . وقد تتناهى الأزمة فلا أجد من حولي أحداً ليساعدنى عليها . . ولذلك يجب أن أبقى صاحبياً حتى أساعد نفسي أو أستطيع أن أوقف من يساعدى . . أما في النهار فكل من حولي في يقظة فأنا أنا مطمئناً على نفسي . . إني أخاف الليل رغم أنى أغنى الليل للناس . .

وأنا مع صلاح في خوف دائم . . أخاف عليه وهو في أزمته . . وأخاف عليه

وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لفنه ويهرب من فراشه ليعمل . . ليعنى . . وهكذا فاطمة . . أصبحت تعيش مثلى مع صلاح . . صلاح المريض النهار الذي ينزف الدم ، صلاح الفنان الجبار الذكي الأثافي الذي يستطيع أن يحصل دائماً

على كل ما يريد فنه . .

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة . . فإن نجاح صلاح جذب إليه مئات المعجبات بنات ونساء يجذبن إليه فنه وبخاحه . . وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه ، أو على الأقل تحاول تذوقه . . إن النجاح يجعل من الرجل الناجح شيئاً أشبه بقطعة الفاكهة النادرة التي تقطع كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تذوقها . . وكان صلاح يفرح بأنه قطعة من الفاكهة النادرة ، ويفرح بؤلاء المعجبات ، ويفرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة . . ويفرح أكثر عندما تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السفح . . وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يحادثهن في التليفون كأنه يمثل دوراً في فيلم سينائي . . إنه يبدو كأنه كله حب ، وكله فن ، وكله رقة ، وحديثه الذكي يستطيع به دائماً أن يكمل الصورة التي رسمها ، حتى لا يترك واحدة إلا وقد استسلمت لكل ما يريد . . يتركها وهي تعيش الحب . . حبه . . وكان خبر مرض صلاح قد أذيع وانتشر . . وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور تعلق به أكثر بعد أن عرف بمرضه . . وازداد عدد المعجبات الجريئات أن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض . . وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لا يمكن أن تكسبه له شهوة في إحدى النساء . . إنه مريض . . ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة . . واطمأن إليه الرجال . . فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بامرأة . . بزوجة أو ابنة أو أخت . . والبنات اطمأن أكثر إلى الاتصال به . . لأن لا أحد يمكن أن يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أى فتاة وبينه . . اكتسب سمعة البراءة كأنه راهب . . ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر

من إعجاب بالفن . .

وبدأت فاطمة بمجتاز مرحلة حائرة . . إنها تحبه . . تحبه . . تحبه قبل أن يكون قطعة من الفاكهة النادرة . . وهي تخاف على حباها من هاتيك المعجبات . . وهي تعلم أن صلاح ليس مجرد فنان . . إنه رجل كبقية الرجال . . وممرضه ليس له علاقة برجولته . . وأحياناً كانت تشدد بها الغيرة وتبدأ في نقاشه والصراخ في وجهه ، فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه .

— لا تكوئي مجنونة يا فاطمة . . هذا شغل . . الشغل عايز كده . . أنا مضطر . . وكما أنى لست ملك نفسي . . لا أستطيع أن أكون ملكك لوحده . . أنا ملك الناس . . وإذا كنت بتحبيني صحيح لا تحرمى الناس منى ، ولا تحرمينى من الناس . .

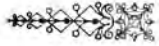
وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها :

— أنا خايبة عليك يا صلاح . . وخائفة على نفسي . . خائفة أن تضع منى . . ماذا يطمئني .

ويقول وصوته ينبض بحبه :

— يطمئنتك أن ليس بينهن واحدة تعرفنى . . كلهن يعرفن صوتى بس . . ليس بينهن واحدة تعرف شكلى عندما تنتابني الأزمة . . ولما باتنرفز وياخافقن باقول إيه . . ولما باكل على راحتى باكل إيه وياكل ازاي . . ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلا صلاح الفنان . . وإنتى عارفة إنى فنان وانت لوحده اللي بتشوفينى كإنسان . .

وكانت فاطمة تقتنع ، وتتحمل المعجبات ، بل إنها أحياناً وهي معنا في البيت كانت ترد على التليفون وتتلقي مكالمات المعجبات . . ثم تعطى السماعه



.. كانت نهال من أجمل فنيات المجتمع الراقي .. كانت ابنة رجل  
حفيد عائلة السلاموني ، واستطاع أن يستمر في الاحتفاظ بمستوى تراثه ومكانته  
الاجتماعية .. وربما كان في حياة نهال ما جعلها دائماً هادئة هدهوياً أقرب إلى  
الحزن ، صامته دائماً كأنها مكتفية بأن تعيش في خيالها .. والدهوه والصمت  
يلفانها بالطبيعة الحلوة .. ويحفظان لجمالها بيهره .. ليست مثيرة أقرب إلى  
صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء .. وربما كان ما في حياتها  
هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأغاني صلاح ، هو ما جعلها تتعلق  
به منذ اليوم الأول الذي التقت به فيه خلال حفلة عائلية خاصة ..

وبهر صلاح بها كما لم يهر من قبل .. يهر بجمالها .. وبهر باسم عائلتها  
الكبير .. وبهر بهدونها ، وبهر بصمتها ..  
هل أحبها .. ؟  
لا أدري ..

ولكن كل أيامه أصبحت « نهال » .. إنه يفتح عينيه ليحدثها في التليفون  
ويحدد مصير يومه كله بعد أن يحدد مصيره معها في هذا اليوم .. متى يلقاها ..  
ومتى تحدثه في التليفون وبعد ذلك كل شيء ، حتى فته أصبح يأتي بعد تحديد  
مصيره مع نهال ..  
وهي .. نهال ..

لصلاح ومجلس بجانبه وهي تسمعه يمثل دور راهب الحب .. وعندما كانت  
تسألها المعجبة التي تتلقى نكلماتها عن من هي كانت ترد .. أنا أخته .. وأحياناً  
ترد .. أنا الشغالة يا ستي ..

وربما كان أكثر ما يطمئن فاطمة في حيرتها أنها كانت مقتنعة بأنما وحدها  
التي لها الحق في زيارة صلاح في بيته .. كل البنات يحدثن في التليفون ويقابلن  
في الحفلات الخاصة أو العامة .. هي وحدها التي تدخل البيت ..

وكانت فاطمة تحب دائماً .. تحب في شخصيتها .. وتحب في كل  
حياتها فهي - كصلاح أيضاً - لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تتكلم إلا بقوة  
ذكائها .. كنا لا نعرف شيئاً كثيراً عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية .. كل  
ما كنا نعرفه أنها تعيش مع أبيها الموظف بوزارة الداخلية ، مع زوجة أبيها ،  
بعد أن توفيت أمها .. وطبعاً كنا نعرف عنوان بيتها ونمرة التليفون ولا أكثر .. وكنا  
نعرف أنها طالبة في الجامعة .. كلية الاقتصاد والسياسة .. ولكنها كانت أغلب  
الأيام معنا .. وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة ، فتقول ضاحكة .. زوغت ..  
أو تقول في قرف ،

- ما ليش نفس للجامعة .. أنا دخلت الجامعة بس عشان أخرج من  
البيت ..

وكان الشيء الوحيد الذي تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها في الساعة السادسة  
حتى تنفادي ثورة زوجها أبيها .. لم ترها أبداً بالليل ..  
إلى أن دخلت نهال في حياة صلاح ..

قطعا أحبته . .

إنها تعطيه من اهتمامها ومن اللهفة إليه أكثر ما تعطى فناة لا يدفعا سوى الإعجاب بفنه . . وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر في المجتمع ، ثم . . نشرت في الصحف . . ولم يعترض صلاح على نشر القصة في الصحف وقد كان يستطيع بصداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل . . ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضى غروره ، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه في أعين المعجبات لأن نهال يبين شيء عال ثمين . .

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئا عن قصة نهال . . وكان صلاح لا يزال مرتبطا بها . . وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زيارتها له واتصاله بها . . إلى أن قرأت ما نشر في الصحف . .

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة . . وبلا موعد . . ولم يكن صلاح في البيت فانتظرتة وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة فبقيت في انتظاره . إلى أن جاء في الساعة التاسعة بيدل ثيابه استعدادا لحفل كان يقيمه في تلك الليلة ، وفوجئ بها . .

إنه لم يتعود أبدا أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة . .

وقالت له في هدوء :

- إيه الحكاية الجديدة دي ياصلاح . .

قال وجفونه ترتعش فوق عينيه :

- حكاية إيه ؟

قالت وهي لا تزال تبسم :

- حكاية اللي اسمها نهال . .

وقال وهو يلوى شفتيه ساخرا :

- زى بقية الحكايات . .

قالت :

- بس أنت بتقول لى على كل الحكايات ، ودى ما قتلش عليها . .

قال :

- ما افتكرتش . . وماجتش مناسبة . .

قالت :

- واشمعى الحكاية دي اللي انتشرت في الصحف . .

قال :

- أنا عارف . . يمكن علشان من عيلة معروفة . .

قالت :

- بس أنت كنت تقدر تقول لهم ما يتشروهاش . .

قال وقد بدأ يفقد أعصابه :

- أنت فاكراى عايش في الجرايد علشان أعرف إيه اللي بتنتشر وإيه اللي ما يتشترش . . ما احتا حكايتنا اتنشرت ، قبل ما أطلب أنها ما تنتشرش .

قالت :

- وحكايتها زى حكايتي . .

وصرخ صلاح :

- فاطمة ما تجنننش . . إذا كنت بتقولى بتحبنى ببقى حبيبي زى ما أنا . .

ما فيش فائدة انك تغيريني . . وما فيش فائدة انك تحاسبيني . .

قالت وهي تكاد تبكى :

- الحب يعنى أطعش على حبك . . وأنا مش مطمئنة . .

قال كأنه قرفان :

- أطمئنت إزاي ؟

ونظر إليها طويلاً إلى أن هدأت ثورته ، ثم ارتفعت إلى شفتيه ابتسامة هادئة كأنه استرد كل حبه لفاطمة ، وقال وهو يقرب إليها ليأخذها بين ذراعيه :

- عايزه تطمني .. بوسيني ..

وتركهما ليكملتا بقية قبلتهما ..

وفي اليوم التالي كنت أنا الذي أتصل بفاطمة بالتليفون لأطمئن عليها بعد أن تأخرت في العودة إلى بيتها إلى ما بعد التاسعة .. ولم ترد على التليفون .. رد صوت عنيف كلماته كقطع الحجارة تلقى في وجهي .. لعلها زوجة أبيها .. واتصلت مرة ثانية ، ولم ترد فاطمة أيضاً وفي آخر النهار .. هي التي اتصلت لتقول لي إنها تشاجرت مع زوجة أبيها بسبب تأخرها وتركت البيت ، وهي تقيم الآن عند إحدى صديقاتها ، وعندما أحست بانزعاجي عليها ، قالت ضاحكة :

- ما يهمش .. مش دى أول مرة .. كلها كام يوم وأرجع البيت تانى ..

وصلاح مستمر في علاقته مع نهال .. وأصبح يبدو معها في المجتمعات ، بل ربما كان يعتمد الظهور معها ، إلى أن بدأت صوتها تظهر بجانب صوتيه في الصحف ..

وفاطمة تحتتمل .. بل تحتتمل أيضاً تهرب صلاح منها ، وتباعدت الأيام التي أصبحت تلقاه فيها .. إلى أن أصابته الأزمة يوماً ، وما كاد نزيف الدم يتوقف حتى صرخ :

- فين فاطمة .. دور على فاطمة ..

وفي هذا اليوم ، وهو لا يزال راقداً في فراشه عقب الأزمة ، اتصلت نهال

بالتليفون وأشار إلى من بعيد لأقول لها إنه خرج ، بينما كانت فاطمة قد جاءت

لتجلس بجانب فراشه .. فراشه المريض ..

ومرت الأزمة ..

وعاد صلاح يغنى .. ويثير ضجة حول حكايته مع نهال .. ويخفى حبه

لفاطمة ..

ولم أكن أعرف أن نهال مخطوبة إلا بعد أن قرأت خبر فسخ خطبتها في

الصحف ..

وأعقب نشر خبر فسخ الخطبة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب زواج

صلاح ، وكنت أنا أول من سأل صلاح :

هل ستزوجها ؟

وأجاب ضاحكاً :

- مش ممكن .. ما فيش واحدة ترضى بيانا احنا الاثنين انا وانت .. كل حاجة

عملناها من يوم ما تولدنا عملناها احنا الاثنين .. فاكز .. اللعب اللي لعبناه

في البلد .. والكتاب والمدرسة .. والنابى .. والكمشجة .. والمزليكة .. والفن ..

والجوع .. والشبع .. والضحك .. والبكاء .. كله احنا الاثنين إلا الجواز

أهو ده اللي ما تقدرش عليه احنا الاثنين ..

وضحكك دون أن أفهم شيئاً من نيات صلاح ونهال ..

وجاءت فاطمة ..

جاءت نائرة على غير عاداتها .. لا تحاول أن تعتمد على ذكائها .. ولا تحاول

أن تفننل الهدوء ولا النفاق .. وجاءت في الساعة الثامنة صباحاً حتى تتأكد من

أن صلاح لن يهرب منها بعد أن يقوم من النوم .. وما إن فتح عينيه حتى ألقفت

عليه صراخها وربما قبل أن تقول له صباح الخير :

- أنت حاتجوز اللى اسمها نهال ..

وانفض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارثة وقال :

- لا ..

وقالت له فى سرعة ..

- خلاص .. ما دام مش حاتجوزها .. الجوزى ..

وصرخ :

- إيه الكلام اللى بتقوله ده .. من إمى بتتكلمى عن الجواز ..

وارتفع صراخها على صراخه :

- من يوم ما شفنتك وأنا باتكلم عن الجواز .. وأنت سامعنى كويس

وما بتردش .. وكنت ناوية أعيش وأنا بالحلم بالجواز .. حلم .. أحلم وبس ..

واستحملت كل حاجة علشان أفضل عايشه فى حلمى .. استحملت يوم

ما خبتي عن الناس .. وفضلت تحببني لغاية دلوقت مش عايز حد يعرف بيتي

ويتك إيه .. واستحملت أنك معتنى عن أنى أتعلم الفن ، كنت عارفة إنك

بتفكر فى نفسك أكثر ما بتفكر فى .. استحملت اللى بتقول عليهم معجبات ..

ودلوقت حضرتك رايح جاي مع واحدة تانية وساب الناس والجرايد تتكلم وأنت

ساکت ومبسوط وآخر حاجة إنهم يقولوا أنك حاتجوز .. حتى لو كانت إشاعة ..

ليه الإشاعة ما تكونش على أنا .. تعرف ليه .. لأنك مستمر منى .. مش ماله

عنيك .. بتحنى فى السر وبس .. ومين عارف بتحنى ولا ما بتحنيش ..

وصرخ صلاح :

- أنت الجنتي .. أنت مش فاطمة .. مش فاطمة اللى بحبها .. فاطمة

قدردت تفهم إنى فنان .. وقدردت تعرف إنى ما الجوزتش إلا غنوة جديدة وإلا لحنا

جديداً و ..

وقاطعته صارخة :

- كفاية حكاية الفن بأه .. الفنان مش هو الإنسان اللى يودى غيره فى

داهية ..

وصرخ صلاح :

- أنا ما وديش غيرى فى داهية .. أنا بودى نفسى .. وأنا ما طلبتش منك

حاجة .. ما كذبتش عليك .. وما وعدتش وما عملتش بوعدى .. أنت اللى

راضية بي .. مش أنا اللى غاصب عليك ..

وقالت :

- وأنا دلوقتى مش راضية .. حاتعمل إيه ؟

قال :

- أنت عايزه إيه ؟

قالت :

- عايزه أنك تتجوزنى .. وإذا ما الجوزتش خلى الناس تتكلم عنى ..

أنا ..

وقاطعها :

- ما اقدرش .. مش ممكن .. وإذا ما كانش عاجبك سيبني .. ابعدى

عنى ..

وصرخت :

- للدرجة دى .. للدرجة دى ياصلاح ..

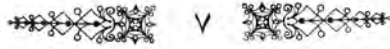
ثم رفعت أبا جورة الإضاءة من جانب فراشه وألقته على الأرض ، ثم أخذت تحطم كل ما تصل إليه يداها في الغرفة وهي تصرخ :

- أنا أحسن منك ومنها ميت مرة .. أنا اللي عملته لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة .. أنا مجنونة ..

وأمسكت بها حتى لا تحطم باقي الغرفة .. وأنا أحاول أن أهدئها ، ولكنها تخلصت من بين يدي ، وانطلقت تجري خارج البيت ..

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق بها .. ولكنها كانت قد خرجت وصدفت الباب وراءها بعنف كأنها تصفع البيت كله .. وعاد صلاح إلى فراشه صامتاً وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عنيفة .. إنه يجبها .. إني إلى اليوم مقتنع بأن الحب الوحيد في حياة صلاح هو فاطمة .. كل البنات اللاتي مررن به كن أشبه بالحنان الإجتماعية يواجه بها المجتمع .. حتى نهال .. ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة .. حبه الذي يضعه بعيداً عن عمله وعن مظهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الإجتماعية .. وقد بقي في فراشه صامتاً ثم مد يده إلى التليفون وطلب فاطمة .. ليست هي التي ترد .. وبعد قليل حاولت أنا أن أتصل بها في التليفون .. ولم ترد .. ثم عاد صلاح وحاول الاتصال بها بالتليفون .. ولم ترد وقال لي وكلماته ترتعش بين شفتيه :

- أنا لازم أطمئن عليها .. لتكونت عملت في نفسها حاجة .. قوم نزوح لها في البيت ..



كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة فاطمة في بيتها إن أهلها سيطردونا قطعاً بمجرد أن يروا صلاح وقد يعتدون علينا بالضرب فهم يعتقدون أن صلاح هو الذي جنى على مستقبل فاطمة ذلك فصلاح يصر ، ثم رضى أخيراً أن أذهب أنا وحدي إلى هناك

وقلت له :

- ولكني لا أعرف أحداً من أهلها .

قال :

- ولو .. إعمل نفسك زميلها في الجامعة .. ولا أى حاجة ..

وقررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أتأكد من أنها عادت إليه كعادتها إذا كانت قد قضت اليوم في الخارج ..

وضغطت على جرس الباب .. وفتح لي رجل مكفهر الوجه ، لاشك أنه والدها .. وقلت له إنني زميل فاطمة في الجامعة وإني جئت إليها بكراثة المحاضرات كما طلبت مني .. وصرخ الأب في وجهي :

- ابعدوا عن فاطمة بأه .. كفاية اللي عملته فيها .. غور من وشي ..

وصفق الباب في وجهي ..

وعدت إلى صلاح .. وكان يتحدث في التليفون .. يتحدث إلى نهال .. ولأول مرة أراه وهو يبذل جهداً كبيراً حتى يحتفظ بهدوئه وهو يتحدث إلى نهال .. وأنهى المكالمة بسرعة ، وهو يسألني بلهفة :



- لقيتها ؟

ورويت له كل ماحدث .. وصلاح يزداد عصبية ، وهو يردد .. دى مجنونة .. أنا عارف أنها مجنونة .. وبدأ يستعد للسهرة التى أقيمت يومها وهو فى عصبية .. بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غير برنامج الحفل ، ووضع أغنية لم تكن فى البرنامج مكان أغنية أخرى مما أخر رفع الستار حوالى نصف ساعة حتى يعيد الموسيقيون جميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم .. وغنى صلاح .. وأحسّت يومها لأول مرة أنه يعنى لفاطمة وحدها .. يناديها من بعيد .. ويرجوها ألا تتركه وحده ..

وانتهى الحفل فى حوالى الثالثة صباحا .. وذهبتا لتناول العشاء فى الكافيتريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل ، ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كعادته .. ثم بعد ذلك فرجئت وأنا بجانبه فى السيارة بأنه يسألني عن مكان بيت فاطمة ، ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال فى إصرار كأنه لا يقبل المناقشة :

- أنا متأكد أنها بايته فى بيتها .. والصبح حانترزل تروح الجامعة أو أى حته .. نستناها لغاية ماتنزل ..

وكانت الساعة الخامسة ..

ولم أناقش صلاح ، إلى أعرف جنونه ..

ونمت فى السيارة وهو لا ينام ..

وأصبحت الساعة الثامنة .. والتاسعة .. والعاشر .. والناس نمر وتنظر إلى صلاح فى دهشة .. وبعضهم يقف ويحييه .. وهو يدعى لكل من يسأله أنه فى انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت ..

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار ، أخاف عليه أن تدمره الأزمة .. ولكن الأزمة لم تدمه ، ويبدو أن الحب كالقن أقوى من المرض .. وقضى يومه وهو يحاول أن ينام ، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت فى خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة ، ثم يعود ويحاول أن ينام ..

وفى اليوم التالى دق جرس التلفزيون ، وكانت فتاة تريد أن تحدث صلاح وهمت أن أعتذر لأن صلاح لم يكن فى حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة .. فأعطيت التلفزيون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رآته أمس فى سيارته فى انتظار فاطمة ، وكل سكان الحي رأوه ، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة .. وهى تريد أن تبلغه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى .. مستشفى المقطم .. وأنها تبلغه دون أن تستأذن فاطمة فى إبلاغه وعندما سألتها صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة ، أجابت :

- دى تعبانة .. تعبانة قوى يا أستاذ .. كلنا بندعى لها ..

وأصبح صلاح كأنه مجنون ..

وبحثنا عن مستشفى المقطم ..

إنه مستشفى للأمراض العصبية ..

وسألت عنها فى التلفزيون .. وقال لى عامل التلفزيون إنها ليست فى خطر ، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المختص وقال لى أيضاً إنها ليست فى خطر ، ولكنها فى حاجة إلى علاج يعيد أعصابها إلى طبيعتها .. ومضى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى ، وأن يتلقى منه كل يوم تقريراً عن صحة فاطمة ، إلى أن اتفق معه على أن يسهل له زيارتها فى وقت لا يكون أهلها معها .. لم يقل للطبيب عن قصة حبها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة

تعودت أن تعبر عن إعجابها دائماً وهو لا يعرف أحداً من أهلها ، ولذلك يريد أن يراها وحدها ..

وذهبت معه إلى المستشفى ..

وكان لقاء عجبياً ..

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تماماً .. ولكنها تغيرت .. إنها لا تحدث صلاح بنفس اللهفة ، ولا بنفس اللهجة .. وهي تبدو دائماً كأنها تفكر في شيء بعيد .. ورغم الكلام الكثير الذي قاله صلاح يؤكد لها حبه .. وارتباطه بها العمر كله ، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبه هو الذي يعينه على فنه وعلى مرضه .. ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تلتقاه بانسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام ..

وخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثل في الشخصية الجديدة التي رأى بها فاطمة ..

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشفى بعد أيام ..

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة . وإشاعة زواجهما تنبع .. وبدأت الصحف تشير إليها دون أن يحاول صلاح أن يتدخل لينفي الإشاعة أو يسكت الصحف .. لقد كان في حاجة إلى نهال .. إنها أعطته مجتمعاً كان طول عمره يريد أن يصل إليه .. مجتمع القمم .. ومظاهر وتقاليد وفخامة حياة القمم .. وكانت نهال تبدو أحياناً كأنها تلقته درساً في تقاليد حياة هذا المجتمع ، بل إنها بدأت تعلم اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وقد تعمد أن يجيد اللغتين حتى أنه لم يكنف نهال فاتفق مع أساتذة يعطونه درساً خصوصية في البيت .. والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة .. ونهال تعاني

ضغطاً من عائلتها ومن خطيبها السابق لتعود إليه .. وأصبح صلاح مضطراً أن يواجه نفس المشكلة ، مشكلة الزواج .. وهو يعرف عائلتها ويعرف أنها عائلة لا ترحب كثيراً بزواجه من ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها حتى لو اضطرت أن يهرب بها .. ولكن هل يتزوج صلاح ؟ لا .. إنه لا يريد .. لا يستطيع .. إنه ليس ملكاً لنفسه إنه ملك فنه .. ملك الناس كلهم .. ولا أدري هل استطاع أن يقنع نهال بكلامه أو أنها اضطرت للاستسلام لما يريد حتى تحتفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليمها ..

وقبلت أن تعود إلى خطيبها الأول تحت ضغط عائلتها ، وقالت لصلاح :

- إننا لا نستطيع أن نتزوج ونحن نعيش الحب .. وأنا مضطرة أن أعيش

الزواج بلا حب ..

وقال صلاح بذلكانه الذي لا يعجز أبداً عن المنطق الذي يبرر به تصرفاته :

- إن الزواج هو الواقع ، والحب أقوى من الواقع .. وأنت وأنا مضطران

أن نستسلم للواقع ، ونحتمله لأننا لا نفقد الحب أبداً ..

وقد عارضته أنا كثيراً .. كنت أريده أن يتزوج نهال مادام لن يتزوج

فاطمة .. قلت له إن عبد الوهاب عاش عمرة الفنى ولا يزال يعيشه وهو متزوج ،

دون أن يفقد الجمهور ولا لفة المجبات ، وكان يقول لى :

- عبد الوهاب من جيل لم يكن فيه الزواج يستولى على الرجل كله ..

وعبد الوهاب لا يعاني ما أعانيه من أزومات .. وعبد الوهاب أستاذى في كل شيء

حتى في فن الحياة ولا أستطيع أن أرتفع إلى مستوى أستاذى

وتزوجت نهال ..

وصلاح هو الذى أحيا حفل الزواج .. وكنت أحس به وهو يعنى كأنه هو الذى يملك نبال وهو الذى تنازل عنها فى سبيل إسعادها .. كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفضل .. وربما كان هذا هو الإحساس الذى كانت تحسه نبال نفسها .. فحتى بعد الزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدعو إلى بيتها وتسال عنه ، وتطمئن عليه وتحيه ..

\*\*\*

وخرجت فاطمة من المستشفى .. ولم تعلم بخروجها إلا عن طريق الطبيب .. ولم تتصل بصلاح بعد خروجها ، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادى الفرقة وكانت تعرف كل أفرادها عن طريق صلاح ، وأنها بقيت هناك وقتاً طويلاً .. وأنها غنت .. لم تغن كمحترقة ولكنها غنت وسط أفراد الفرقة وهي تتضحك معهم .. وقال صديقنا .. والله صوتها مش بطل .. وجد صلاح لهذا التطور الذى حدث فى حياة فاطمة ، إنها لم تعد حريصة على أن ترضيه بانعزالها عن الجو الفنى وخصوصاً عن أصدقائه .. بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء .. واستطعت أخيراً أن أحدها ولتبتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح .. وقالت فى بساطة :

— هو عايز يشوفنى .. خلاص أشوفه ..

وجاءت إلى البيت .. ولكنها جاءت إنسانة أخرى .. جلست تتكلم ، كأنها إحدى المعجبات وتهرب من أى حديث يدها صلاح عن الحب والقرن .. حتى عندما هم بتقبلها أعطته قلبتها فى برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأنه زبون من زبائن القبل .. وعندما نار صلاح وبدأ يصرخ فى وجهها ويستعمل لأول مرة ألفاظاً جارحة تحذرها .. ردت عليه بهدوء :

— اسمع يا صلاح .. أنا لسه بحبك ويمكن أفضل أحبك عمرى كله .. أنا أنا قررت أنى أحبك زى ما انت بتحبنى تمام .. أنت بتحط فكك ومستقبلك الأول ، وبعدين الحب وأنا كنت بحط الحب الأول حتى لو صحيت بفضي مستقبلى .. إنما خلاص حتى زيك ، قى ومستقبل الأول .. أنا فنانة يا صلاح .. وأنت عارف إنى كلنى فن .. وأحب أقولك إنى سبست الجامعة وبقيت فى معهد الباليه .. اخترت الباليه علشان أنا عارفة أنك مش محاربنى أغنى .. مش عايز أبى أنا وأنت فى فن واحد .. وأنا مش عايزاك تصحى بحاجة إنما عايزاك تعقبنى من التضحية .. خلاص .. أنا تعبت من التضحية ..

واستمر النقاش والجدال بينهما كأنه لن ينتهى أبداً ..

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة غريبة .. لم نشهدها أى قصة حب .. إن كلا منهما يبدو كأنه يخاف الآخر ، ويعارب الآخر ، ويجادل الآخر .. ثم فجأة يلتقيان فى ساعات حب عنيفة ، يلتصق فيها كل منهما بالآخر كأنه لن يتركه أبداً ، ثم يعودان إلى الخوف والحرب والمجادلة .. وقد جد على صلاح أنه أصبح يغار على فاطمة .. إنها أصبحت تعيش فى الوسط الفنى كله .. وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك ، ويجن صلاح إلى حد أن يتخذ مواقف قاسية من هذا أو ذاك .. قامت إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف الجيتار ، فما كان من صلاح إلا أن عزل عازف الجيتار من الفرقة واستبدل به آخر .. أما فاطمة فكانت قد تعودت على الغيرة منذ عرفت صلاح .. لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بنبال ولا زيادة عدد المعجبات .. ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تماماً إذا أصيب صلاح بالأزمة التى تقذف بطلقات الدم من فمه .. كانت لا تسمع بالأزمة حتى ترك كل ما هى

فيه وتجري إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه . . . وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه . . . تبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالنفس والمستقبل اللذين تسعى إليهما . . . وربما كانت فاطمة هي أول من اكتشف أن أقوى علاج لصلاح في أزمته هو فيه . . . كانت بعد أن يتوقف الزيف ويستريح في فراشه تطلب منه أن يغنى . . . وكانت أحياناً تثيرة حتى يغنى قائلة :

- صلاح . . . سمعنى الغنوة الجديدة . . . فيها حته مش عجباى  
أو أحياناً كانت تبدأ هي في الغناء ، حتى تأخذها إلى الإحساس بالتحدى  
فيغنى معها أو يسكتها ليغنى وحده . . . ولا يكاد صلاح يبدأ في الغناء حتى يبدو  
كأنه يسترد حياته . . .

ومرت شهور ، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية ، وإذا بفاطمة تبدو في  
العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن  
تكتسب ثقة وحب أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح في اكتساب من يحتاج  
إليهم ، فوضع أساتذة المعهد عرضاً في البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهي ترقص  
وتغنى أيضاً . . .

وأثارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها . . .  
بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء . . . وقبل أن تتم دراستها في المعهد التحقت بفرقة  
الرقص الشعبي وأصبحت تقدم شيئاً جديداً . . . رقصات باليه كلاسيك ، مع أغان  
شعبية . . . تغنى وهي ترقص . . .

وأصبحت فاطمة نجمة . . .  
كل ما كان يضعفها في نظري أنها استمرت تقلد صلاح في كل شيء . . .  
في حركاته وفي أسلوبه . . . وفي تصرفاته وتفكيره . . . ربما لم تكن تتعمد تقليده

ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها ، وأصبحت تؤمن  
ألا طريق للنجاح إلا طريق هذه الشخصية . . . حتى لو كانت تقدم فناً يختلف  
عن فن صلاح . . .

وكنت كثيراً ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه في عمل واحد . . . حفلة  
غنائية . . . فيلم سينمائى . . . مسرحية . . . ولكنه كان يرفض . . . وكان يقول في  
سخريه مرة :

- عايزنى أنزل لمستواها . . . ولا ترفعها لمستواى . . . والناس يعد ما يشوفونا  
حابتكلموا عنها ولا عنى . . .

وكنت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة ، ولكن تتحدث  
عن العمل الفني وإذا ضمها إليه في عمل واحد فإنه سيقدم عملاً فنياً ضحماً  
يثير ضجة ويخلق مستوى فنياً جديداً ، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدمنا  
قفزة فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى  
الأخر . . . وكان يرد على قائلاً :

- عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلثوم إلا بعد ما بطل يغنى للناس . . .  
اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وهي جنبه . . . ما ظهرش معاها على مسرح  
ولا في فيلم ولا في أغنية واحدة . . . مش ممكن اتنين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا  
راجل وست . . . وما يقوش بيغنوا بيقولوا بيقولوا منولوجات . . . وأنا مش عايز أبقي  
منولوجت ياسى عمر . . .

وفاطمة تنطلق في آفاق النجاح . . . أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها . . .  
إنها ترقص رقصات الباليه وهي تغنى وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح ،  
كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . . وانقسم الشعب إلى حزب صلاح ،

وحزب فاطمة ، كما كان منقسماً إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم . .  
وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أى علاقة لها بصلاح ، كما كان يحرص  
هو من زمان على إخفاء علاقته بها . . ترفض أن تظهر معه فى مكان عام ،  
وترفض أن تلتقط لها صورة معه ، وأحاديثها عنه التى تنشرها الصحف أحاديث  
باردة . . وأحاديثه عنها أبرد . . ويرغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد . .  
إنى فى فترات متباعدة أفاجأ بهما فى البيت يستردان كل حلاوة قصة الحب  
الأولى ، وأحياناً أيضاً كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل فى بيتها بعد أن انفصلت  
عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها . . والناس لا تعرف شيئاً . .  
ودائماً إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة . . وعادت الفتاة  
الصغيرة التى تضحى بكل شئ ، من أجل حباها وجلست بجانب فراشه . . حتى  
لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا اتساءل : كيف سنتهى هذه القصة . . قصة  
أعجب حب بين رجل وامرأة . . لا . . إنيهما ليسا رجلاً وامرأة . . إنيهما فتان وفتانة .



هذه هى قصة حياة صلاح . . أو قصة ما عشته مع صلاح . . وقد عشت  
مع العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح . . ثم حدثت  
مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل بناء بيت الطلبة . . ويومها قرر  
الأطباء أنه يجب أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك . . وحدد له بسرعة موعد  
مع الطبيب الإنجليزي . . وسافرت معه إلى هناك . . إلى لندن . .  
ووضع الأطباء الإنجليزي مرض صلاح فى صورة أخطر مما وضعها أطباء مصر . .  
وبعد أيام طويلة قضاهها صلاح وكل أدوات الكشف الطبي الحديثة مسلطة عليه  
تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له . .  
ولم أفهم تفاصيل العملية ، وربما لم أهتم بفهمها ، يكفى أنها عملية جراحية ،  
وأول عملية يتعرض لها صلاح . . وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر  
يوماً وهو غائب عن الوعي ، وكلما أفاق ، حثونه ليعود إلى غيبوبته . .  
ودخلت إليه مرة وهو راقد على فراشه فى المستشفى وإذا بى أجده يغنى . .  
صوت ضعيف منهار ، ولكنه يغنى به . .

وقلت له :

- ما تجهدش نفسك يا صلاح . . مش وقت الغنا . .

وقال وكأنه يبكى :

- أنا حاسس أنى حاموت ، وعابز أموت وأنا باغنى . .

وكتمت دموعى حتى لا أبكى معه ، ولا أغنى معه . . أغنية الموت . .

والحمد لله . . بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التي تعود عليها . . حالته بعد أن انتهت الأزمة . . يغنى ويعمل وهو في فراشه . . وفي مرة ذهبت إليه وفاجأني قائلا :

طلع الناي .

وكان يعلم أنني أحفظ دائما في جيبي بصفارة صغيرة أتسلى بالعرف عليها عندما أجد نفسي وحيدا . . وأخرجت الناي من جيبي . . وبدأت أعزف عليه ، وصلاح يغنى . . وإذا بالمرضات يلتفتن حولنا معجبات ضاحكات ، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمغادرة الفراش وبينهم كثير من العرب ، جاءوا إلى غرفة صلاح- ليستمعوا إليه . .

وبدأ صلاح يغنى مرات كثيرة في المستشفى خصوصا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويغنى لهم ، وهو مريض بينهم . . وكان يمكن أن يغامر صلاح كعادته ويغادر المستشفى قبل أن يسمح له الأطباء ، ولكنه كان لا يزال في خوف وحرص أمام الأطباء الإنجليزي . .

وفي يوم قال لي صلاح :

- إيه رأيك . . تعال نغني لم الإنجليزي . . عشان يفهمونا . .

وبدأ صلاح يغنى أغنية إنجليزية كانت شائعة . . ولكنه كعادته . . كان طموحا عبقرا ، فامرأ ، كان يريد أن يغنى أغنية بالإنجليزية له وحده . . أغنية جديدة هو الذي يقدمها . . وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليزي سعيا ليتفق معهم على تلحين أغنية له . .

ولكن قبل أن يبدأ في صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى على أن يعود إليهم بعد ستة شهور ، لاستكمال العملية التي أجريت له . .

وفي الطريق إلى مصر قال لي صلاح :

- اسمع . . أنا وحدي . . وعازب أغنى بالإنجليزي . . طيب ليه كمان ما يكونش ملحن مصري بلحن للإنجليزي . .

ومنذ وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع الملحنين على إخراج أغنية بالإنجليزية . والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأسعد وأتم صحة مما كان قبل العملية . . واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة في أقل من شهرين ، وأن يقيم عدداً من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع ، كأنه كان يريد أن يطمن الناس على صحته . .

وقاطمة فرحة به . . وتحقق فرحتها وجها . . وتلقاه سراً ، هذه اللقاءات المتباعدة التي قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين . .

إلى أن عدنا إلى لندن . .

ومرت الأيام الأولى بعد العملية . . والأطباء يجتازون به حافة الموت إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن . . وبدأ يغنى . . ثم أرسل يستدعي ثلاثة من الموسيقيين . . عازف الجيتار ، وعازف الكمان ، وعازف الطبلية ، وقدم أغنيته الإنجليزية في المستشفى . .

ولا تتصور فرحة المرصضات والمرضى بالأغنية . . لقد تجحت داخل المستشفى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته . . بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليزي بعرض إقامة حفل عام يغنى فيه صلاح بالعربي للمقيمين العرب في لندن ، ويغنى بالإنجليزية للشعب الإنجليزي . .

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليزي ، فأصبح يتقاد لتهوره ، أو يتقاد

لفته دون أن يستأذنيهم . . فكان يخرج من المستشفى بلا إذن . . ويعود دون أن يقول متى يعود ، وفي مرة شكوه للطبيب ، وقال لي في اطمنان :

- هناك شيء في الإنسان لم يصل إليه العلم بعد . . شيء أقوى من العلم . . إن صلاح يعرف مرضه جيداً ، وهو قطعاً لا يريد أن ينتحر . . فإذا كانت في داخله دوافع أقوى من المرض فيجب أن تتركه لها . . من يدري ربما كانت هذه الدوافع هي سر استمراره في الحياة . . ربما كان تمسكه بفته أقوى من كل ما تسلطه الحياة . . فلتستسلم للأقوى . . وأصبحت هذه هي حياتنا . .

نقضى نصف السنة في مصر . . ونصفها الآخر في لندن مع الأطباء الإنجليز . . وصلاح لا يريد أبداً أن يستسلم حتى يشفي تماماً . . بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه . . وأقام حفلات عامة في لندن نجحت نجاحاً ضخماً ، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تداغ في الإذاعة الإنجليزية كما تداغ أغانيه في القسم العربي . . وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد في فراشه وفي المستشفى . . إنه دائماً مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه . . وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحفل رغم تحذير الأطباء . . بل كان أحياناً يخرج من المستشفى ويأخذني من يدي وأجد نفسي في طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقم حفلاً هناك . . ثم يعود إلى المستشفى . .

وفي مرة ظهرت في صحة صلاح عناصر جديدة خطيرة ، وتقرر أن يذهب للعلاج في فرنسا بدلاً من لندن . . وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح في حالة ميثوس منها . . كل الناس في انتظار الخبر المفزع . . وأنا منهم . . وكنا في مستشفى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا . .

كانت قد تعودت أن لا تجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج في الخارج ولكن هذه المرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات ، وجاءت لتجلس بجانبه . .

أصبح الحب بجانبه . . وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت ، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت . . وانتصر الفن . . وعاد يقني . . وأقام حفلاً غنائياً في مسرح باريس لأول مرة تشترك فاطمة معه . . لقد ظهرت أمام الجمهور في باريس ورقصت وغنت . . ثم ظهر صلاح وغنى وحده . . غنى بالعربية . . وبالفرنسية أيضاً . . ثم ظهر الاثنان معا وألقيا أغنية مشتركة . .

كان هذا هو أكبر تطور في قصة صلاح وفاطمة . . انتصر الحب حتى جمعهما في عمل واحد وإن كان لم يجمعهما في زواج . . ولا أعتقد أنه سيجمعهما في زواج أبداً . . وحتى في باريس رأيت نهال تجلس بين جمهور المتفرجين . . وهكذا نعيش . .

نعيش في فرحة نجاح فني . . وفي خوف دائم من الموت . . والنجاح والموت يتصارعان داخل جسد يعيش على الألم . .

كيف تنتهي . .  
لا أدري . .  
لا أحد يدري . .  
الله وحده . . رب الفن ورب العلم . .

تمت